الطبعة الثانية

د. منذر القباني

قُطُز

الجزء الثاني من ثلاثية «فرسان وكهنة»

رواية

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

قُطز

الجزء الثاني من ثلاثية
«فرسان وكهنة»

رواية

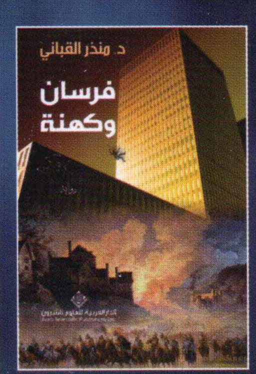
د. منذر القباني

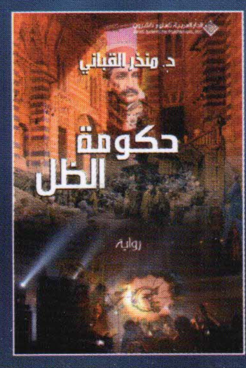
• روائي سعودي

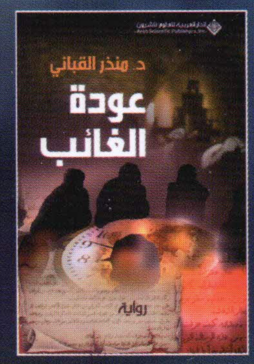
شعور بالعجز تملك مراد قطز، وجعله يشتاط غضباً، وهو يرى ياسمي ورفاقها يقتادون كالأغنام إلى درج في آخر القصر يقود إلى قبو عميق لا يعكس أي شيء من الثراء والرقي الذي بدا له في الأعلى!

وضعوا كل واحد منهم في زنزانة منفردة ثم جلبوا لهم شراباً غريباً يشبه القهوة، ولكن طعمه أكثر مرارة، كما بدا له لاحقاً من تعابير وجوههم عندما شربوه؛ في البداية رفضوا جميعهم شربه، ولكن أمام إصرار الحراس وتلويحهم باستخدام العنف، شربوه على مضض. بعد برهة من الوقت، لاحظ مراد أثراً غريباً بدأ يظهر على نوران ومحمود ومحمد، إذ بدأت تعتلي وجوههم نشوة، ثم أخذ كل واحد منهم يستلقي على أرض الزنزانة بارتياح شديد وكأنهم يستلقون على فراش وثير في حجرة نوم بديارهم! هذه الآثار لم تظهر على ياسمي، حتى إن الحارس المكلف بها أمعن النظر في الكوب الذي يحتوي الشراب للتأكد من أنه فارغ تماماً.

صدر للكاتب أيضاً ضمن مشروعه الروائي المتتابع









الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.
www.asp.com.lb - www.aspbooks.com



جميع كتبنا متوفرة على الإنترنت
في مكتبة نيل وفرات.كوم
www.nwf.com

ISBN 978-614-01-1306-0
9 786140 113060



الجزء الثاني من ثلاثية فرسان وكهنة

بريد المؤلف الإلكتروني:
alkabbani@mac.com

حساب المؤلف في تويتر:
@montherkabbani

قُطُز

الجزء الثاني من ثلاثية فرسان وكهنة

رواية

د. منذر القباني





الطبعة الأولى: آب/أغسطس 2014 م - 1435 هـ
الطبعة الثانية: أيلول/سبتمبر 2014 م - 1435 هـ

ردمك 978-614-01-1306-0



عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم
هاتف: 786233 – 785108 – 785107 (1-961+)
ص.ب: 5574-13 شوران – بيروت 1102-2050 – لبنان
فاكس: 786230 (1-961+) – البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb
الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

التنضيد وفرز الألوان: أبجد غرافيكس، بيروت - هاتف 785107 (1-961+)
الطباعة: مطابع الدار العربية للعلوم، بيروت - هاتف 786233 (1-961+)

الجُزء الثَاني

قُطز

ما من شيء سيكون إلّا وقد كان

ما من شيء سيزول إلّا وقد زال

وكأن اليوم قد جاء بالأمس

وكأن الأمس سيجيء غدًا

تَمْهِيد

لـم يتبـقَّ علـى نهايـة العـام سـوى سـاعتين، والمارّة في شـارع بويلسـتون بمدينـة بوسـطن أخـذوا يسـارعون إلـى وجهتهـم التـي سيسـتقبلون فيهـا مـع أصدقائهم وأحبابهم السـنة الجديـدة من القرن الجديـد مـن الألفيـة الجديـدة. كان العـام 2000 يحمل معانـيَ كثيرة لكثيرٍ من الناس، إلّا فيرجينيا تبْت التي دخلت من بوابة العمارة رقم 10، متجهة إلى المصعد الذي سيقلها إلى الطابق الخامس حيث شقة أختها أليس ورفيقها جيم. ربما كانت هي الوحيدة في الحفلة وربما في العمارة، بل حتى في الحي، التي كانت تدرك أن بداية سنة 2000 شيء وبداية الألفية الثالثة شيء آخر، فالألفية الثالثة فعلياً لا تبدأ حتى العـام 2001! لـم ترغـب في تصحيح المعلومة لأختها التي كانت في قمـة الحمـاس لاسـتضافتها الحفل الألفي في شـقتها الفاخرة المطلة على حديقة بوسطن، فالجهل لن يضرها، بل هو مصدر سعادتها في هذه الليلة.....

كانـت فيرجينيـا مـن أوائـل الحضـور، وكعادتهـا لـم تصطحب رفيقاً، فوقتها الثمين لم يكن يسمح لها بأي حالٍ من الأحوال بإقامة الصداقـات، بـل كان بالـكاد يكفيهـا لإنجاز أبحاثهـا العلمية. كم من المرات حاولت أليس أن ترتب لها صديقاً، ولكن دون جدوى، حتى أصابها اليأس، فظنت أن أختها الصغيرة ستظل طوال حياتها وحيدة، تعيش بين جدران المعامل العلمية.....

أخذت الشقة تمتلئ مع اقتراب عقارب الساعة لمنتصف الليل. كانت هناك مجموعات مختلفة متفرقة حول الصالة والبهو وباقي الشقة الفسيحة، وعلى اختلاف هذه المجموعات من حيث الطابع الثقافي والخلفية الاجتماعية، بل والعرقية أيضاً، إلّا أن جميعهم كانوا يشتركون في أمرٍ واحد، وهو أنهم من الأصدقاء المقربين لأليس وجيم؛ فعلى العكس من فيرجينيا، كانت أليس تتمتع بكثير من الأصدقاء، من داخل أمريكا وخارجها، كما كان بادياً من تنوع الحضور.

- "فيرجينيا، دعيني أعرفك إلى صديقي مراد من السعودية؛ طبيب مقيم في قسم جراحة التجميل بمستشفى ماس جنرال؛ وهو مثلك يعشق الجدال الفلسفي الذي يُصَدِّع الرأس." قالت أليس ممازحة، وهي تقدم الشاب الوسيم ذا الملامح الآسيوية لفرجينيا التي شعرت برغبة في أن تصرخ في وجه أختها لتطلب منها أن تكف عن محاولاتها البائسة لكي تشبكها مع أحد أصدقائها..... وها هو قد بلغ بها اليأس أقصى مداه، حيث تحاول تعريفها إلى شاب من السعودية، فلعله ينجح فيما فشل فيه الأمريكان!
- "أهلاً...." قالت وعلى وجهها ابتسامة مصطنعة، ولكنها سرعان ما تحولت إلى شيء من الدهشة.....
- "هل قلتِ من السعودية؟" تساءلت فيرجينيا عاقدة حاجبيها، موجهة السؤال لأختها أليس.
- "حتى أنا لم أكن أعلم أن في السعودية أناساً من أصول آسيوية مثلنا. مفاجأة أَلَيْس كذلك؟!"

مدّ مراد يده نحو فيرجينيا التي شعرت برجفة خفيفة تعتريها،

وهي تلامس أنامله، كادت تجعلها تسحب يدها على الفور من كفه.... لوهلة شعرت وكأنها رأت ذلك الشاب من قبل، ولكن أين؟

- "لا تصدقيها؛ أنا لست من أهل الفلسفة، فهي لها أناسها وأنا لست منهم." قال مراد مخاطباً فيرجينيا، فردت عليه دون شعور بسؤال:

- "من أهل ماذا أنت إذاً؟"

- "أهل العلم والمعرفة، مثلك على ما أعتقد." كانت الإجابة سريعة وفورية، وكأنه توقع السؤال.

- "لن تغلبيه بالكلام يا أختي الصغيرة...." قاطعت أليس بضحكة غنجة، واضعة يدها اليسرى على ساعد مراد الأيمن.....

- "أخبرها عن ذلك الذي حدثتني عنه ذات يوم في المطعم.... أقصد أحجية القطة في الصندوق."

القطة في الصندوق..... فهمت فيرجينيا على الفور ما الذي كانت تشير إليه أختها، أو هكذا حسبت.... قطة شرودنجر..... ولكن هذه أحجية في صميم غرائب فيزياء الكم ومآلاته التي تصور لنا عالماً غير ذلك الذي عرفناه واعتدناه! ما الذي يجعل جراح تجميل تحت التدريب يحدث أصدقاءه بأمر معقد كهذا، يصعب حتى على طلبة الدراسات العليا في الفيزياء؟ ربما سمع عن هذه الأحجية في فيلم من أفلام هوليوود، أو قرأها في كتاب فأراد أن يستعرض معلوماته عليهم!

- "ولِمَ لا؟ أخبرنا عن أحجية القطة، أظن أن أليس تقصد قطة شرودنجر، ألَيْس كذلك؟" تساءلت فيرجينيا بنبرة ساخرة لم تحاول إخفاءها.

هـذه المـرة لـم يجب مـراد على الفور، بل ظـل ينظر إلى عيني سـائلته وقد رسـم على وجهه ابتسـامة خفيفة، فسّـرتها فيرجينيا بأنها ابتسامة حرج وإذعان.

- "دعونا من أمر القطط والكلاب، فبعد ساعتين من الآن سندخل في....." حاول جيم أن يغير الموضوع، رغبة منه في إزالة الحرج عن صديقه، ولكن كان لمراد شأن آخر.....

- "أراد عالم الفيزياء الشهير إروين شرودنجر الحاصل على جائزة نوبـل فـي الفيزيـاء، أن يُبَيّـن مـدى غرابة العالَم الـذي تصفه لنا نظريـات فيزيـاء الكـم؛ ذلك العالَم الـذي يختلف كثيراً عما كان يعتقده البشـر منذ آلاف السـنين، خاصة إذا وضعنا في الحسـبان ما اكتشفه عالِمٌ آخر حاصل على جائزة نوبل في الفيزياء، ورنر هَيْسِنبرك، من خلال مبدأ عدم اليقين..... "

بدت الدهشة واضحة على فيرجينيا التي لم تتوقع من مراد هذه البدايـة الدقيقـة، علـى العكس من أليس التي كانت تنظر إلى صديقها السعودي بإعجاب......

- "إذا وضعـتِ قطـةً فـي صنـدوق، وفي داخـل هذا الصندوق قنينة زجاجية بها غاز سـام، وبجانب هذه القنينة مطرقة يمكنها كسـر الزجاجـة، فينتشـر الغـاز السـام داخـل الصنـدوق، قاتـلاً القطة، ولكـن المطرقـة مربوطة بجهـاز يقيس موضع الإلكترون في ذرة مـن الـذرات.... فلنقـل ذرة الكربون مثلاً..... فتم تجهيز الأمر، بحيث إذا كان الإلكترون في مجالٍ علوي، على سـبيل المثال، يعمل الجهاز فتكسر المطرقة القنينة الزجاجية، فتموت القطة. أما إذا كان الإلكتـرون فـي مجال سـفلي فـلا يعمل الجهاز، وبذلك

تعيـش القطـة..... وهنا يكمن السـؤال: هـل القطة حية أم ميتة؟ مع العلم أننا ندرك يقيناً أن الإلكترون، كما تنبأت نظريات فيزياء الكـم وعلـى رأسـها مبدأ عدم اليقين، موجـود في كل مكان في ذات الآن إلى أن تتم عملية الرصد، وحينها فقط يتخذ الإلكترون له موضعاً محدداً، إما سفلياً أو علويّاً.....

- "ولكن هذا أمر مستحيل....." قاطع جيم عاقداً حاجبيه الكثيفين، موجهاً نظره لفيرجينيا، وكأنه يطلب منها النجدة.....
- "الأحجية ليس لها جواب، أليس كذلك؟"
- "بـل الأحجيـة لهـا جـواب.... جـواب واحد لا محالـة." أجابته بتردد.
- "أن القطة، وهي في الصندوق المغلق، قبل أن تتم عملية الرصد، حية وميتة في الوقت نفسـه! مَجمع النقيضين..... من غير ذاك لا يكون هذا، ومن غير هذا لا يكون ذاك!" أضاف مراد....

* * *

لم يَتَبَقَّ على دخول السنة الجديدة سوى دقائق.... دقائق وتُطفأ الأنـوار، وتتعالـى الصيحـات، ويتم تبادل القبلات. لـم تكن فيرجينيا مغرمة بمثل هذه الأجواء الاحتفائية، لذلك فضّلت الذهاب إلى الشرفة لكـي تدخـن سـيجارتها بعيـداً عـن الناس، في سـكون الليـل؛ ولكن سـرعان ما انقطعت خلوتها، عندما سـمعت الباب الزجاجي للشـرفة وهو يُسحب. أطلت طلة سريعة خلفها، ثم عادت تتأمل أنوار حديقة بوسطن المزينة، غير آبهة بمجيء مراد الذي بادر بالحديث:

- "يبدو أنكِ مثلي تحبين الهدوء."

التفتت فيرجينيا مرة أخرى بشكل سريع نحو محدثها، ثم عادت إلى موضعها السابق، متعمدة أن تظهر عدم اكتراثها وتجاهلها شخص مراد.

- "المعذرة.... هل أزعجتك؟"
- "أخبرني، منذ متى وأنت تعاشر أليس من وراء جيم؟!" باغتته فيرجينيا بنبرة حرصت على أن يبدو عليها الغضب والاستياء.

صمت مراد قليلاً قبل أن يجيبها بشكل تلقائي....

- "لن أمتهن ذكاءك بالإنكار.... منذ نحو ثلاثة أسابيع."
- "اللعنة أليس!" همست مع نفسها....
- "لماذا تفعلين هذا بجيم؟! لم يفعل لك أي شيء سوى أنه أحبك وأخلص لك، وحاول إسعادك بشتى الطرق!"
- "لا تلومي أختك، فالذنب ليس بذنبها." قال مراد بهدوء وبساطة أثارتا دهشة فيرجينيا، ثم أكمل....
- "العاطفة مثلها مثل أي شيء في الكون، تَحْكُمها سنن، فمن يَعْلمها يستطيع التحكم فيها. أنا على أتم الاستعداد لإنهاء علاقتي مع أليس، إن كان هذا الأمر يرضيكِ."

شعرت فيرجينيا بالدهشة والاشمئزاز لما كانت تسمعه من ذلك الشاب الغريب الأرعن! أرادت أن تصفعه على وجهه في الحال، ولكنها تماسكت في آخر لحظة!

- "أختي ليست لعبة تلهو بها! فمن تحسب نفسك؟!"

مسح مراد الابتسامة التي كانت مرسومة على وجهه منذ حضوره الحفل، ليظهر من ورائها وجهاً آخر أكثر شراسة....

- "من تحسبينني أنتِ؟"

تراجعت فيرجينيا بضع خطوات للوراء، وقد بدأت تسترجع أين رأت هذا الشخص الغريب من قبل...

- "من أنت؟ وماذا تريد؟!"

- "أظنك تعلمين جيداً ما الذي أريده..... أما سؤالك الأول، فقد أمضيتُ دهراً وأنا أبحث له عن إجابة! اسمحي لي بأن أقدم لك نفسي من جديد. اسمي قطز.... مراد قطز!"

1

لم يكن غضب تولويْ، الابن الأصغر لجنكيز خان، بأقل بأساً مـن غضـب السـماء العاصفـة في الليلـة الأولى من سقوط بخارى! قائد فرسـانه يسـوجي كان يدرك جيداً أن لا شـيء سـوف يطفئ هذا الغضب سوى العثور على ذلك الرجل الذي أهان الفارسَيْن، والأهم مـن ذلـك: العثـور علـى ياسـمي قبـل أن يعثـر عليها أخوه جوشـي، فيكون مانعاً بينه وبينها، وحينها لن يستطيع التخلص منها. كان يظن أن إبعادها عن بلاط والده، الخان الأعظم، بعدما أوعز إليه بتزويجها مـن الخوارزمييـن، سـيبعدها إلـى الأبد، وبذلك لـن يكون في حاجة إلى قتلها، ولكن الأمر الآن قد ازداد تعقيداً. فياسمي أصبحت قريبة، وكذلك خطرها! لم يعد هناك حل سوى التخلص منها نهائيّاً، قبل أن يعثر عليها أبوها جوشي.... ليته سمع كلام الكاهن تبتنكر، ودسّ لها السم عندما كانت في قراقورم. ليته لم يسمع كلام زوجته التي رأفت بحـال ابنـة أخيـه، فأقنعتـه بـأن يتخلص منها بالإبعاد بـدلاً من القتل! تبتنكر كان على حق، عندما نصحه بعدم الاسـتماع إلى أقوال النسـاء والأخذ بنصائحهن......

- "إن لم تقض على ياسمي، فستكون هي السبب في القضاء على نسـلك." كان تحذيـر الكاهـن له واضحـاً دون مواربة، وهو يقرأ طالع مولوده الجديد هولاكو.....

الأمـر بالنسـبة إلـى تولـويْ أصبـح جليّاً ولا يحتمـل أي تأويل،

فأرض المغول لن تتسع لنسله وياسمي على قيد الحياة. هكذا أخبره تبتنكر، لذلك كان يجب عليه أن يقتلها منذ الوهلة الأولى، ولا يكتفي فقط بإبعادها..... " هذا الخطأ لن يتكرر مرة ثانية!" أقسم تولويْ بعد أن سقطت بخارى وأصبحت ياسمي في متناول أيادي فرسان المغول؛ لذلك كان الأمر الذي أعطاه لاثنين من أحنك فرسانه، بأن يبحثا عن الفتاة، ثم يتخلصا منها إلى الأبد. ولكن الفارسين في أول ليلة لهما في بخارى لم يعثرا عليها، بل عادا في حالة عجيبة يرثى لها، وكأنهما رأيا مارداً أراد قتلهما. عادا إلى المعسكر حول المدينة كالكلب الذليل المطأطئ رأسه والمخبئ ذنبه بين ساقيه.....

- "رجل أعزل؟! تهربون من رجل أعزل يا جبناء!"
- "مولاي، هذا ليس مجرد رجل! إنه.... إنه....."
- "إنه ماذا؟!" صرخ تولويْ وهو يسل سيفه من غمده ليهوي به عليهما قاطعاً رأسيهما بضربة واحدة لم تخطئ هدفها، ثم التفت إلى قائد فرسانه الذي ظل واقفاً في مكانه، منتظراً مصيره هو الآخر.....
- "يسوجي...."
- "مولاي."
- "أريدك أن تبحث أنت بنفسك عن ياسمي، وخذ من تشاء معك من الفرسان. لا تعدْ حتى تعثر عليها وتقتلها! أما ذلك الرجل الذي تجرأ على فارسَيّ، أريدك أن تأتيني به حيّاً لكي أقطع رأسه بسيفي هذا!"
- "أمرك مولاي، سأبحث عن ياسمي حتى أجدها، وإن ذهبت إلى

أطراف الأرض.... ولكن بالنسبة إلى الأمر الآخر، فأنا لا أعرف شكل الرجل، فكيف سأعثر عليه؟"

- "ستعثر عليه عندما تعثر على ياسمي."

جاءت إجابة تولويْ مثيرة لدهشة يسوجي.... فما علاقة ذلك الرجل بياسمي؟ ومن أين لمولاه أن يعرف أنه سيكون بصحبتها؟.....

- "تبتنكر سبق أن حذرني منه، عندما سمع ما قاله محمد بن إسحاق البخاري في حضرة جنكيز خان بعد هروبه من بلاد الخوارزميين. إنه ذاك الرجل ذو العمامة الخضراء، أنا متأكد من ذلك..... عبدالرحمن!"

2

لم يكن محمود بن ممدود راضياً عن الهروب من بخارى مع جدته نوران خاتون بصحبة ذلك الرجل، عبدالرحمن، الذي لا يعرف لـه أصـلاً، وظهـر لهـم فجأة في مدينة أترار مـع قافلة تجار المغول. كان يريـد أن يبقـى فـي بخـارى حتى يعود إليها جده السـلطان علاء الدين محمد بصحبة خاله جلال الدين ومعهما الجيش الذي سيقضي على دابرة المغول! ولكن جدته أصرت على مغادرة بخارى بعد أن سـقطت، وأن يصطحبهـا عبدالرحمـن إلـى غزنة..... لـم يكن أمامه خيار، فعلى الرغم من رغبته في البقاء والصمود، إلا أن جدته التي اعتنت به وعلمته منذ صغره، كان لها عليه حق، ولم يشأ أن يغضبها، فوافق على مضض أن يتسـللا من المدينة التي سـقطت تحت أقدام المغول، بعد أن فتح لهم أبواب أسوارها أعيان البلدة بمباركة قاضي القضـاة..... وافـق محمـود على أن يسـتعينا بذلك الرجل الذي ظل يشعر بالريبة والتوجس نحوه، خاصة بعدما خدع جده السلطان بتلك "الحيلة القذرة، حتى يفرج عن ذلك الفتى، محمد الطوسي، تلميذ الزنديـق واصـل بـن غيـلان!"..... "يا لها من صحبة سـوء!" أراد أن يصـرخ، ولكـن مـا باليد حيلة، فهذا كان الخيار الوحيد المتاح بعدما تخلـى جميـع مـن في القصـر عنهما، بل كادوا يُسـلّمونهما إلى قادة المغول، لولا أن الخادم المخلص لؤلؤ استطاع تهريبهما إلى الحانة فـي آخـر لحظـة، فـور سـقوط المدينـة، فأصبح هو وجدتـه طريدين

ومعهما هذه الفتاة المغولية التي زوجوه بها قسراً! لم يفهم محمود، لماذا عليه الآن بعدما دخلوا في حرب مع المغول، أن يبقي عليها زوجة له؟! حاول إقناع جدته مراراً بأنها قد تخونهما في أي لحظة لمصلحة عشيرتها المغتصبين، ولكن جدته نوران كان لها رأي آخر، فقد أحبت الفتاة، وكانت على ثقة بأنها لا تريد العودة إلى أهلها المغول، وأن ولاءها تبدل بعد زواجها من محمود؛ ولكن الفتى لم يكن مقتنعاً، وظل يتوجس من ياسمي خيفة، وظل يقاوم افتتانه بجمالها الغجري، وإعجابه بسعة معرفتها التي تجاوزت في كثير من الأحيان معرفته هو؛ فما قيمة كل هذا وأهلها هم الكفار الهمج الذين تجرؤوا على مملكة خوارزم، واغتصبوا مدينته بخارى، وتسببوا في تشريده هو وجدته ما اضطراهما إلى مرافقة "رجل غريب مشكوك في أمره وفتى تتلمذ على يد زنديق" حتى يتمكنا من الهروب تلك الليلة من بخارى بعد أن أصبحت جميع منافذها تحت السيطرة الكاملة للمغول.

كانت تلك الليلة عجيبة، حيث ظهرت فجأة ومن غير مقدمات، عاصفة رعدية مصحوبة برياح شديدة وأمطار غزيرة، جعلت أغلب فرسان المغول يلجؤون إلى خيامهم، ما عدا قلة قليلة ظلت تحرس البوابات، ما سهل عملية التسلل من الجهة الغربية، كأشباح تسير بين جنبات الظلام.

لم يفهم محمود في بادئ الأمر سبب إصرار عبدالرحمن على أن يتسللوا من البوابة الغربية، مع أنهم أرادوا الاتجاه جنوباً إلى غزنة، حيث يوجد خاله جلال الدين منكبرتي. هل أراد أن يأخذهم إلى مكان آخر غير الذي اتفقوا عليه في حانة موسى؟! وكأن عبدالرحمن قد توجس ريبته، فأخبر الجميع عندما لاحظوا أنهم متجهون في

الاتجاه الخاطئ أن المغول عندما يكتشفون أن زوجة السلطان وحفيده ليسا في القصر، وأنهما قد فرّا من بخارى، سيتركز بحثهم في اتجاه الجنوب نحو غزنة، والشرق حيث سمرقند. لذلك كان ينبغي عليهم أن يتجهوا غرباً بضعة أيام، ومن ثمّ يسلكون الطريق جنوباً.....

ظنّ محمود أنها خطة ذكية، إن صدق الرجل فيما يقول؛ وهكذا ظـل محمـود بن ممدود يراقـب ويراجع قرارات عبدالرحمن، متوخياً الحذر ومتوجساً الريبة، على الرغم من الثقة الكبيرة التي أبدتها جدته نوران خاتون نحوه.

* * *

لـم تكُـف الخيـول عن العدو على طريـق القوافل الغربي، على الرغم من الظلام الدامس والأمطار الغزيرة المنهمرة من السماء، حتى بدأت خيوط الفجر تظهر. حينها أشار عبدالرحمن بيده، فتوقفت جميع الخيول، وكأنها كانت منتظرة تلك الإشـارة منه هو دون غيره لتلتقط أنفاسها بعد عناء شديد. ترجل بعدها، ثم جرّ فرسه إلى بركة ماء على قارعة الطريق، وكذلك فعل مرافقوه.

- "الأمطار مسـحت آثارنا التي تركناها سـابقاً على الطريق، ولكنها توقفت الآن. لن تكون سوى مسألة وقت حتى يتمكنوا من تعقب أي أثر جديد نتركه، ومن ثمّ اللحاق بنا."

- "ماذا تقول؟! إذاً لماذا هربنا من بخارى إن كانوا سـيلحقون بنـا علـى أي حـال؟!!" صرخ محمود في وجه عبدالرحمن الذي ظل متمسكاً بهدوئه.

- "محمود! ليست هذه هي الطريقة التي تخاطب بها رجلاً خاطر بحياته لمسـاعدتنا." نهرت نوران خاتون حفيدها، ثم نظرت إلى

عبدالرحمن، وقد ظهر عليها جلياً القلق والحيرة مما قال، طالبة منه شرح قصده.

- "لا نستطيع تكملة سيرنا بالخيول. علينا أن نفارقها، ثم نتابع نحن مترجلين خارج الطريق بين الأحراش، حتى نصل إلى قرية على مسيرة يوم من هنا."
- "عفواً يا شيخي..." قاطع محمد الطوسي بنبرة قلقة....
- "كيف سنكمل السير بعد ذلك إلى غزنة من غير دواب، خاصة أن معنا نساء؟ سيكون الأمر شاقاً."

امتعض وجه ياسمي لجملة محمد، فلم يعجبها التقليل من شأنها وقدرتها على تحمل الشقاء لأنها من "النساء"! أرادت أن تعترض على ما قاله، ولكن عبدالرحمن سبقها وحسم الأمر.....

- "سنمكث في القرية بضعة أيام حتى تهدأ الأمور، ثم نشتري من هناك ما نحتاج إليه من الخيول."
- "لا أفهم.... لماذا علينا أن نتخلى عن الأحصنة الآن طالما أننا سنحتاج إليها لاحقاً؟ ما الداعي لكل هذا التعقيد؟! ألم تخبرنا بأن المغول سيركزوا بحثهم عنا في طريقي الجنوب والشرق، ولذلك سلكنا طريقنا نحو الغرب؟!" تساءل محمود باستعجاب.
- "لأن المغول بطبعهم لا يتركون حجراً دون النظر تحته." قاطعت ياسمي، مجيبة عن تساؤلات زوجها.....
- "فحتى إن ركزوا بحثهم عنّا في اتجاه غزنة وسمرقند، فسيبعثون بفرقة كشافة من فارسين أو ثلاثة للبحث في الطرق الأخرى على سبيل التحوط، والخيول تترك آثاراً واضحة من الممكن أن

يتعقبونا من خلالها، إلّا إذا أردت أن تجمع أنت برازها وتمسح بولها من على الأرض!"

شعر محمود بحرج شديد سرعان ما تحول إلى غضب، خاصة بعدما أطلق محمد الطوسي ضحكة خفيفة حاول إخفاءها. لم يعجبه استهزاء الفتاة المغولية به واستخفافها بتساؤلاته! فكيف تجرأت عليه بهذا الشكل وأمام الناس؟!! كان بوده في تلك اللحظة أن يصفعها على وجهها لكي تعلم مكانها جيداً، فكل هذا الذي هُم فيه من عناء ومشقة من جرّاء أهلها، وبعد ذلك تتجرأ وتتهكم عليه! "يا لها من فتاة وقحة!" أخذ يحدث نفسه.... "سامحك الله يا جدتي، كان يجب علي أن أطلقها في بخارى وأتخلص منها هناك، عوضاً عن اصطحابها معنا إلى غزنة! لا أعلم كيف سأتحملها باقي الرحلة؟!"

* * *

وصل عبدالرحمن ورفاقه إلى قرية السوت قبيل منتصف الليل، بعد ساعات من السير المتواصل على الأقدام. الهدوء كان يعم المكان الذي خلت أزقته من الناس. كان من الواضح من خلال المباني الخشبية والطرق المرصوفة بالحجارة، أن أهل هذه القرية المتوسطة الحجم ميسورو الحال.

استمر الجميع بالسير خلف عبدالرحمن حتى اقتربوا من مبنى في منتصف القرية بابه موارب غير مغلق. كان هذا المكان هو الوحيد في القرية المضاء في تلك الليلة....

* * *

لم يتوقع سنقر في هذا الوقت المتأخر من الليل أن يدخل عليه أحد في حانته التي منذ مجيء المغول وهي تعاني شحّاً في الزبائن؛ فلولا سكان القرية الذين كانوا يأتون إلى المكان للتسامر وتداول

الأخبار مع بعض الطعام والشراب لتمضية الوقت الرتيب، لاضطر إلى إقفال المكان حتى تَحسُّن الحال. القوافل لم تعد تمر من هنا بعد انتشار خبر حصار المغول لبخارى، وأهالي المدينة المحاصرون لم يعد بوسعهم السفر، ومن ثم التوقف في القرية للاستراحة كما كان الحال بالأمس القريب..... فكم كانت دهشة صاحب الحانة عندما دخل عليه خمسة أشخاص ليسوا من أهل القرية، في هذا الوقت المتأخر من الليل!

- "حيا الله المسافرين! كنت على وشك الإغلاق.... حياكم الله.... تفضلوا، تف...."

كان الترحاب حارّاً في البداية، حتى وقع نظر سنقر على وجهي المرأة والفتاة، فتلعثم بعض الشيء، ثم سرعان ما تمالك نفسه فأكمل ترحيبه بالحضور....

- "من أي البلاد أنتم قادمون؟"

لم يجب عبدالرحمن عن السؤال، واكتفى بطلب ثلاث حجرات مع بعض الطعام والماء.....

- "من حسن الحظ أنه لدينا ثلاث حجرات فقط خالية في الحانة، وهي إن شاء الله من نصيبكم....آه...." تردد قليلاً صاحب الحانة قبل أن يكمل......

- "الحجرة الواحدة ستكلفكم ديناراً في الليلة."

- "ماذا؟!" صرخ محمد الطوسي في وجه صاحب الحانة....

- "دينار! أجرة الحجرة في بخارى لا تتعدى الدرهم في أفضل الأحوال، وهنا في هذه القرية أنت تؤجرها بدينار؟!"

نظر عبدالرحمن نحو محمد ناهراً إياه على ما قاله، فَهِم على إثرها الفتى أنه قد أفصح بأكثر مما يجب.....

- "أنتم إذاً من بخارى؟ هل استطاع السلطان علاء الدين أن يهزم جيش المغول، ويفك الحصار عنها، أم سقطت المدينة؟" سأل سنقر بشغف.

- "دينار في الليلة من أجل حجرة واحدة ثمن مرتفع." قال عبدالرحمن دون أن يجيب عن تساؤلات صاحب الحانة.

- "يا سيدي الفاضل، الأسعار ارتفعت منذ مجيء المغول، والطعام أصبح شحيحاً. كما أن هذا السعر يشمل أيضاً الاستماع إلى سابح العواد، أمهر عازف عود في البلاد. والله إن الاستماع إلى عزفه العذب الذي يأسر الألباب، ليساوي وحده هذا الثمن؛ فاستبقاؤه هنا في الحانة من أجل إمتاع الزبائن يكلفني الكثير!"

- "كذاب...."

التفّت رؤوس الجميع نحو الطابق العلوي، حيث ظهر فجأة على السلم رجل في أواخر العقد الثالث من عمره حاضناً عوداً وكأنه طفل يخشى عليه من السقوط.....

- "أنا لا أكلفك سوى حجرة صغيرة لا تكاد تتسع لحوائجي، وبعض فضلات الطعام."

نظر سُنقر إلى العواد باستياء شديد موجهاً له اللعنات بصوت خافت لا يُسمِع، ثم أطلق ضحكة يشوبها التوتر....

- "إنه يمزح كعادته، فهو رجل يحب المرح..... على أي حال، لأنكم غرباء، ونحن هنا في قرية السوت مشهورون بكرم الضيافة،

سأخفض لكم الثمن وأجعل الحجرة الواحدة بنصف دينار في الليلة."

- "لا بأس."

ناول عبد الرحمن النقود لصاحب الحانة الذي أخذ يعدها المرة تلو الأخرى، قبل أن ينطلق إلى الدور العلوي من أجل تجهيز الحجرات.

- "إنه رجل جشع. يؤسفني القول أنه قد استغل حاجتكم، وأجّر لكم الحجرة بأضعاف ثمنها." قال سابح العواد ثم أشار إلى محمد الطوسي.....

- "الفتى على حق، فسعر الحجرة الواحدة لا يتجاوز الدرهم مع الطعام والشراب."

- "الرجل لم يرغمنا، ونحن وافقنا بطيب خاطر." أجابته نوران خاتون متجهة إلى أريكة كانت بأشد الحاجة لإلقاء عليها جسدها المنهك.

جلس سابح على كرسي متخذاً وضعية العزف على عوده، ثم سأل:

- "هل تودون سماع شيء الآن بما أن الثمن الباهظ الذي دفعتموه يشملني وعودي؟"

- "أعوذ بالله!" صرخ محمود....

- "أبعد آلة الشيطان هذه، وكف عنّا أذاك!"

تعجّب سابح العواد مما قاله الفتى، فظل ينظر إليه متأملاً ملامحه الجادة التي كانت تقصد كل كلمة قالها، ثم سرعان ما أخذه الضحك.....

- "أيها الفتى شـديد البأس، لو كان الشـيطان يجيد العزف على العود، لكان كف أذاه عن الناس."

كانت نبرة الاسـتهزاء واضحة بشـكل جلي مما زاد من غضب محمـود الـذي آثـر أن يترك المكان متجهاً نحو السـلالم المؤدية إلى الطابـق العلـوي، حيـث ذهب صاحب الحانة، مـردداً بنبرة غاضبة آية من سورة الأنعام:

- "فقد كذّبوا بالحق لمّا جاءهم فسوف يأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزئون."

فتبعته نوران خاتون وقد شعرت بالخجل من رعونة حفيدها.....

- "المعذرة ولكني لم أقصد إغضابه." قال سابح العواد لمن تبقى من الجمع، مستشعراً الحرج مما حدث تواً.....

- "ولكنـي لا أدري مـن أيـن يأتي البعض بتحريم الموسـيقا مع أن الرسول عليه الصلاة والسلام، كما ورد في الحديث، سمح لفتاة بالعـزف علـى المزمـار فـي بيتـه عندما دخل عليه أبـو بكر فأراد منعها."

ابتسـم محمـد الطوسـي، مـدركاً الحديـث الذي كان يشـير إليه العواد، فسأل ممازحاً:

- " أعازف وترٍ أنت أم فقيه؟"

- "أنـا مجـرد رجـل بسـيط يجـوب الأقطـار بحثـاً عـن النغمات الجميلـة التـي جعلهـا الله جـزءاً مـن هـذا الكون، لكي يستشـعر جماله الإنسـان. فكيف تكون الموسـيقا حراماً وهي موجودة من حولنـا فـي كل مـكان..... في صـوت العصافير وهي تغرد، وفي

صـوت الريـاح وهـي تداعب أوراق الشـجر، بل حتى في صوت شـيخ جليل وهو يقرأ القرآن بخشـوع. الموسـيقا هي لغة الكون، وما العود إلّا أداة من أدواتها مثله مثل الدف الذي يحلله بعض الفقهـاء. فمـا الـذي يجعـل الصـوت الذي يصدره العـود حراماً، وذلك الذي يصدره العصفور أو الدف أو الطبل حلالاً؟"

- "أنت فيلسوف أيضاً." هذه المرة أتى التعليق من ياسمي، التي بدا عليها الإعجاب مما سمعت.....

- "هل بالإمكان أن تعزف لنا شيئاً على عودك الجميل."

- "حسناً يا سيدتي ولكن هل يرغب في ذلك سيدي الجليل؟" تسـاءل موجهـاً نظـره نحـو عبدالرحمـن الذي ظل صامتـاً طوال الوقت، مكتفياً بإيماءة رأسه بنعم إجابة عن سؤال سابح العواد.

ضم سـابح العود إلى صدره ثم أخذ يدوزن بعض أوتاره وهو يقول:

- "سأسـمعكم قطعـة ألّفتهـا منـذ أيام علـى إثر زيارتـي إلى مدينة نيسـابور. كنـت قـد سـمعت عـن جمالهـا الأخّـاذ فاشـتقت إلى زيارتها، ويا ليتني لم أزرها."

- "لماذا؟!" تساءلت ياسمي بتعجب.

- "لأني وجدت أهلها في خصام كبير مع بعضهم، ومنقسمين إلى جماعتين: الحنابلة والشـوافع! الجماعة الأولى تتهم الثانية بأنهم أتباع الطبري، والثانية تتهم الأولى بأنهم قتلة الطبري! عندما رأيت هذا الخصام الشديد بين الجماعتين الذي كان غالباً ما يؤدي إلى الاقتتال بين الفينة والأخرى، سـألت أحد الأهالي: من هو ذلك

الطبري الذي يتقاتلون حوله، أهو عالم من علماء المدينة أم أحد قضاتها؟...... وكم كانت دهشتني عندما سمعت الإجابة عن السؤال، بأنه عالم جليل اسمه محمد بن جرير الطبري، عاش وتوفي في بغداد منذ مئات السنين! تصوري يا سيدتي الصغيرة، الحمقى كانوا يتقاتلون حول رجل لم يلتقوه، عاش قبلهم بقرون، بل وفي مدينة أخرى تبعد عنهم مسيرة شهر وأكثر! حينها، ومن حيث لا أعلم كيف، جاءني هذا الخاطر الذي سأسمعكم إياه."

أمسك سابح العواد بالريشة ثم أخذ يضرب بها على أوتار عوده..... كانت النغمات التي تخرج من العود تعبر عن مزيج من الحيرة والحزن والدهشة في آن واحد! لم تسمع ياسمي أي شيء مثله من قبل، وهي التي استمعت في حضرة جدها جنكيز خان إلى معزوفات من شتى بقاع الأرض. اللحن كان في غاية الجمال، وممّا زاد من بريقه حسن وسلاسة أداء العازف الذي بدا وكأنه يناجي صديقاً عزيزاً عليه، وليس آلة يمسكها بين يديه. لم تكن ياسمي وحدها من أُعجب بأداء سابح العواد، ولكن معالم الاستحسان كانت بادية على وجهي محمد الطوسي وعبدالرحمن.....

- "رائع، رائع!" بادرت ياسمي فور انتهاء سابح من أداء المقطوعة.....

- "لم أستمع إلى شيء كهذا من قبل. أنت لست مجرد عازف ماهر، ولكنك موسيقي مدهش!"

- "العفو يا سيدتي، ولكني مجرد رجل بسيط يبحث عن أسرار النغمات وأجمل الألحان، وإني لأطمح أن أصل إلى ما وصل إليه الفارابي العظيم، من تمكن وإتقان."

- "الفارابي الفيلسوف صاحب المدينة الفاضلة؟" سألت ياسمي باستغراب، ثم أدارت وجهها نحو عبدالرحمن الذي اكتفى فقط بهز رأسه موافقةً على ما قاله العواد.

- "بلى هو، أبو نصر محمد بن طرخان، عازف العود العظيم، ومخترع آلة القانون، وصانع أجمع الألحان والنغمات حتى أن البعض حسبه ساحراً لما كانت لهذه الألحان من وقع على نفوس الناس..... يُروى أنه في أحد المجالس عزف على عوده مقطوعة جعلت الحاضرين يبكون، ثم عزف مقطوعة أخرى جعلتهم يضحكون، ثم لكي يتمكن من الانصراف عنهم عزف مقطوعة جعلت كل من كان في المجلس ينام!"

- "وهل تعقل مثل هذه الأخبار؟ كيف يمكن للحن أن يحدث كل هذا الأثر في الناس؟!" قاطع محمد الطوسي بنبرة استنكار.

- "ولِمَ لا؟ فهذا الكون مليء بالأسرار، ولولا خشية الفارابي من أن يساء استخدام مثل هذه المقدرة العظيمة، لعلَّمها لكل تلامذته."

- "خسارة أن هذه المقدرة العظيمة التي وصفتها ذهبت وضاعت بين طيات الزمن." أضافت ياسمي بصوت خافت.

- "العلم لا يضيع ومن ورائه مطالب يبحث عنه وينشده." قال العواد ثم أخذ يعزف مقطوعة أخرى؛ هذه المرة مستخدماً أنامله عوضاً عن الريشة. اللحن كان فيه وهج أندلسي، ممزوج بأنين صوفي..... وبعد برهة من الوقت أخذ ينشد:

- **"أيها السائل أين منك السؤال..... أفي الدنيا تسير أم في عالم**

الخيال.... سـهرتَ الليل كثيراً والعيون لا تنام.... تبحث عن شـيء تجـده منـك بعيـد المنال.... إن كان القلـب عارفاً فما باله حيران.... وإن كان العقل باحثاً فلمَ هو عن الحق رحّال؟"

قامت ياسـمي من مجلسـها شـاخصة عينيها في ذهول بدا عليها جليّاً لِما سمعته تواً من كلمات الأغنية التي غناها سابح العواد..... هي نفسـها الكلمات التي سـمعتها من حلاجة، الجارية المقتولة، في تلك الرؤيا التي رأتها في بخارى!

- "من أين حصلت على هذه الأبيات؟!" سألته على الفور ودون مواربة.

- "عفواً؟...... هذه الأبيات.... نعم سمعتها في إحدى رحلاتي وأنا في طريقي إلى مدينة غزنة منذ سنوات. كنت قد توقفت في أثناء السير بقرية اسمها الرابعية، كان أهلها ينشدون تلك الأبيات. راقت لي فلحنتها."

- "أهي ذاتها القرية التي تسـكنها أم الوفا؟!" تسـاءلت ياسـمي بشغف شديد لم تحاول إخفائه.

- "نعم، سمعت بهذا الاسم يردد أكثر من مرة هناك، ولكني لم ألْقَها." أجاب العواد مستعجباً من هذا الاهتمام الشديد بالكلمات التي تغنى بها؛ كانت هذه أول مرة يسأله أحد عن مصدر كلمات تلك الأنشودة التي تغنى بها مرات ومرات عبر السنوات.

إذاً كل ما رأته في تلك الرؤيا صحيح!! شعرت ياسمي بالذهول، فما كان منها إلّا أن ذهبت إلى عبدالرحمن الذي بدا عليه هو الآخر، ولوهلة بسيطة، شيء من التعجب، سرعان ما أزاحه.

- "يجب علينا المرور بقرية الرابعية، ونحن في طريقنا إلى غزنة!"
- "لماذا؟" تساءل عبدالرحمن بهدوء شديد.
- "مسألة لا أستطيع شرحها، ولكن يجب أن أذهب إلى الرابعية، حتى لو اضطررت للذهاب إليها بمفردي!"

نظـر عبدالرحمـن إلى ياسـمي، متأملاً إياهـا دون أن يجيبها، ثم فجأة أمسك بذراعها أمام دهشة الجميع، وقادها إلى خارج الحانة!

3

- "أيها الرب يسوع، يا من ضحيت بنفسك على الصليب من أجل خطايا آدم وبنيه، أسألك بأن تلهمني الطريق من أجل الوصول إلى أعدائي، وأن أراهم من حيث لا يرونني، فأقضي عليهم الواحد تلو الآخر بسيفي هذا. أيها الرب الرحيم القابع في ملكوت السماء مع أبيه، اغفر لي خطاياي، ولا تحاسبني على ما بدر مني وسيبدر، فأعداء مولاي تولويْ كثيرون، وأعداؤه هم أيضاً أعداء هذا الذليل الراكع أمامك المُتضرع إليك.... آمين."

قام يسوجي حاملاً معه صليبه الخشبي الذي كان يبتهل إليه، ثم امتطى جواده بعدما وضع الصليب في الجراب المعلق على السرج.....

أيام عدة منذ أن كلفه تولويْ بالبحث عن ياسمي، أمضاها في التحري في بخارى عن أي أثر قد يقوده إليها، راجياً ربه أن تكون لا تزال في داخل المدينة؛ ولكنه سرعان ما أدرك، أن هذه الأمنية لن تتحقق، خاصة بعدما علم من جواري وخدم قصر السلطان أنها اختفت فجأة ليلة سقوط المدينة، ومعها زوجة السلطان نوران خاتون، وحفيده الذي تزوجته، محمود بن ممدود...... "مولاي تولوي كان على حق، فقد باعت عشيرتها، وانتسبت إلى الخوارزميين! هي لم تعد منّا!" ظل يقنع نفسه.....

كان أمام يسوجي أحد احتمالين: فإما أنها اختبأت في منزل من منازل المدينة أو في إحدى حاناتها ولا تزال هناك، أو أن تكون قد تسللت خارج أسوار بخارى، وانطلقت نحو أحد البلاد التي لا تزال تحت سيطرة الخوارزميين ما سَيُصَعِّب من مهمته كثيراً! لذلك كان عليه أولاً أن يبحث هو ورجاله في جميع حانات بخارى، ويكلف جواسيسه بترقب المنازل ووضع مكافأة مالية لمن يرشد عن مكانها أو مكان وجود زوجة السلطان علاء الدين.... ولكن كل هذا مع مضي الأيام لم يسفر عن شيء، وكأن الفتاة ومن معها قد اختفوا من على وجه الأرض! فلم يجد أمامه خياراً إلّا في البحث خارج أسوار بخارى، ولكن بأي اتجاه؟! المنطق كان يقتضي أن يتجه نحو طريق الشرق؛ ففي الغالب ستتجه زوجة السلطان مع حفيدها إلى سمرقند، حيث فرّ إليها علاء الدين محمد؛ فكان على هذا الطريق قد عزم أمره للسير فيه مع رجاله بحثاً عن ياسمي ومن معها، لولا أن أمراً عابراً قد لفت انتباهه، عندما سمع فارساً من فرسان الاستكشاف الذين أرسلهم من قبل، وهو يفاخر أمام باقي الفرسان لأنه استطاع مع رفيقه أن يمسك بعدد من الخيول البرية، فعاد ومعه غنيمة ثمينة!

كاد يسوجي لا يلتفت إلى ما قيل في بادئ الأمر، لولا تعقيب الفارس الآخر بأن الخيول استسلمت لهما دون عناء يذكر! أدرك حينها قائد فرسان تولويْ أن في الأمر شيئاً مريباً، فالخيول البرية لا تستسلم بسهولة لأحد، بل من الصعب جدّاً الإمساك بها على هذا النحو اليسير....

- "هذه الخيول، كم كان عددها وأين وجدتها؟" سأل الفارس الذي روى الحادثة.

- "خمسة، وجدناها غرب بخارى." أجابه الفارس وقد خشي من أن يكون قائده راغباً في الحصول على الخيول لنفسه، خاصة بعدما أمره بأن يجلبها حتى يعاينها....

نظر يسوجي إلى الخيول الخمسة متأملاً، ثم اقترب منها وأخذ يمسح على أعناقها.....

- "هذه ليست خيولاً برية." قال مخاطباً الفارس الذي جلبها، ثم التفت إلى مساعده وأمره بأن يستعد هو وتسعة فرسان آخرون للخروج معه من أجل استكشاف الأمر!

* * *

لم يكن في الحانة سوى صاحبها ورجلان من أهل القرية، عندما دخل يسوجي وفرسانه. نظر إلى المكان جيداً، ثم تقدم إلى سُنقر الذي ظل واقفاً في مكانه مرتعدة فرائصه من هول المشهد الذي كان يتجلى أمامه..... "المغول!"

- "أبحث عن فتاة مغولية في منتصف العقد الثاني.... هل رأيتها؟"

تنفس سنقر الصعداء، عندما أدرك أنهم لم يأتوا من أجل إحراق القرية، بل كانوا يبحثون عن تلك الفتاة التي جاءت برفقة زوجة السلطان، نوران خاتون، التي تعرف إليها على الفور عندما رآها وهي تدخل الحانة هاربة لا شك من المغول الذين حتماً سيكونون على أتم الاستعداد لدفع الأموال الطائلة نظير الإمساك بها! ها هي ذي فرصة عظيمة من أجل كسب الدراهم قد جاءته!

- "لا أدري يا سيدي، فربما يكون قد مر علي أمر كهذا. الذاكرة مع الأسف لم تعد تسعفني كما في السابق، خاصة

بعدما خفَّت القوافل المارّة من هنا، ومن ثم شحت الدراهم والدنانير." قال سنقر بمسكنة متصنعة، ثم أضاف، وهو يمد يده اليمنى.....

- "ولكن ربما لو كانت هناك مكافأة مُجزية.... ربما حينها قد تتحسن ذاكرتي الضعيفة."

أمسك يسوجي بيد صاحب الحانة الممتدة، وبقوة لا تخلو من العنف، سحب جسد سُنقر الهزيل إليه، ثم وضع رأس خنجره الحاد تحت عينه اليمنى!

- "مكافأتك هي ألا أقتلع عينك القذرة بخنجري هذا!"

- "سيدي! سيدي أرجوك!" نحب سُنقر متضرعاً للفارس المغولي على مرأى من رجلي القرية اللذين تسمرا في مجلسهما من هول المشهد، وقد بلغ قلب كل واحد منهما حنجرته!

- "مرة أخرى سأسألك، وثقْ بأن الإجابة الخاطئة ستكلفك عينك اليمنى هذه.... هل مرّت فتاة مغو....."

- "نعم! كانت هنا هي وأربعة آخرون. كان من بينهم زوجة السلطان، نوران خاتون، وحفيدها محمود بن ممدود! أرجوك يا سيدي، هذا كل ما أعلمه!"

مرحى! شعر يسوجي بأن يسوع قد استجاب لدعاءه.... ياسمي وزوجة السلطان! ولكن....

- "قلت لي كان معها أربعة أشخاص. ماذا عن الاثنين الآخرين؟"

- "رج....رجل عررربي يرتدي ثوباً أبيضَ وعمامة خضراء،

سسسسمعتهم ينادونه عبد... عبدالرححححمن. أما الآخخخر، فشاب لا أععلم من يكون!"

عبدالرحمـن! "تماماً كمـا توقـع مولاي تولويْ!" أخذ يسـوجي يفكر، فأزاح خنجره من تحت العين اليمنى لصاحب الحانة ثم وضعه تحت عينه اليسرى!

- "والآن، بعد أن أنقذت عينك اليمنى بإجابتك عن سؤالي الأول، دعنـا نـرى إن كنـت سـتنقذ عينك اليسـرى بالإجابة عن سـؤالي الآتي!"

- "مولاي! أرججوك! أخبببرتك بكل مما أععلم!"

ضغط يسوجي خنجره ببطءٍ، مخترقاً جلد سُنقر حتى كاد يصل إلى عظمة محجر العين ما جعله يصرخ ألماً، فانهمر منه البول مبللاً سرواله وأرض الحانة من تحته!

- "أين هم الآن؟!"

استمر سُنقر في الصراخ من هول الألم، ما جعل يسوجي يسحب الخنجر قليلاً ليخفف عنه حتى يتمكن من الحديث.....

- "مرة أخرى سأسألك، والإجابة هي التي ستحدد إن كنت ستُبقي على عينك اليسرى أم لا!..... أين هم الآن؟!"

- "مولاي!! مممولاي!! العععواد..... سابح العععواد هو الذي يعلـم! كان يتتحـدث معهـم قببل أن يغغـادروا ففجأة ممنذ ننحو يومممين! ححححتماً هو يععلم إلى أين ذذذهبوا!!"

ما كاد سُـنقر يفرغ من حديثه حتى ظهر في أعلى الدرج سـابح العواد ممسكاً بعوده، وكأنه كان ينتظر ذكر اسمه لكي يظهر، ثم أخذ

ينزل إلى الدور الأرضي حيث الأحداث!

- "ههاهو ذا!" صرخ سُنقر مشيراً بأصبعه إليه.

- "ما خطبك يا رجل؟ صراخك أيقظني.... آه لديك زبائن جدد."

جلس العواد على كرسيه المعتاد غير آبه بوجود الفرسان المغول الذين كانوا يحدقون النظر إليه.

- "قال لي صاحب الحانة إنك التقيت فتاة مغولية نبحث عنها هي وجماعتها، وإنك على علم إلى أين ذهبوا."

تحرك يسوجي نحو سابح ممسكاً بخنجره الملطخ بدم سنقر.

- "ياسمي؟! نعم بالطبع.... يا لها من فتاة عجيبة تجمع بين العقل والجمال.... خسارة أنهم لم يمكثوا هنا سوى ليلة واحدة ثم رحلوا مع مطلع الفجر. كان هذا منذ يومين، أليس كذلك يا سُنقر؟"

أكتفى صاحب الحانة بهز رأسه موافقاً، دون أن ينطق بحرف.

- "إلى أين ذهبوا؟"

- "سأخبرك بكل شيء، ولكن اسمح لي أولاً بأن أعزف لك هذه المقطوعة ترحيباً بك وبرفاقك الطيبين."

لم يصبر سابح العواد حتى يحصل على موافقة الفارس المغولي، إذ بادر بالعزف على عوده مستخدماً أنامله..... بدأ العزف بطيئاً بعض الشيء ثم أخذ يتسارع ثم يبطئ مجدداً..... لم يسمع يسوجي أي شيء شبيه بهذا اللحن من قبل حتى إنه توقف فجأة عن الحركة، وأخذ يستمع بتركيز إلى هذه النغمات الجميلة التي كان

العـواد يخرجهـا مـن آلته، ولوهلة شـعر بصراع داخلـه بين رغبته في أداء المهمة التي حضر من أجلها، وبين رغبته المتزايدة في الاستماع إلى هذا اللحن العجيب؛ ثم شيئاً فشيئاً أخذت رغبة الاستماع تطغى عليه، حتى وجد نفسـه وقد ألقى الخنجر من يده..... نظر يسـوجي حوله، فوجد الجميع وقد استلقوا على أرض الحانة في حالة سُبات! ما كاد يستوعب هذا الذي كان يحدث من حوله حتى شعر بعضلات جسـمه تتراخـى وجفونه تتثاقل والضـوء في المكان يخفُت، ثم فجأة كل شيء من حوله تحول إلى سواد!

* * *

كان قائـد فرسـان تولـويْ أول المسـتيقظين. نظـر حولـه فـرأى المنظـر نفسـه الـذي رآه قبـل أن يفقـد وعيه: الجميع مسـتلقون على الأرض، بخلاف العواد الذي لم يعد موجوداً في المكان!

- "سباتاي! تيموشين!" أخذ يسوجي يصرخ، وهو يحاول إيقاظ فرسانه.

- "سيدي.... ماذا حدث؟!"

- "إنه الساحر الذي كان يعزف على العود! سحرنا جميعاً وجعلنا ننام! ابحثوا عنه الآن وأتوني به قبل أن يهرب!"

تفرق الفرسـان بسـرعة خاطفة بعد أن استيقظوا جميعاً. بعضهم جـرى نحـو الطابق العلـوي حيث الغرف، وبعضهم الآخر إلى خارج الحانة. لم يمضِ وقت طويل حتى نادى أحد الفرسان من خارج.

- "هل وجدته؟!" سأل يسوجي فور خروجه إلى الفارس الذي ناداه.

- "سيدي! انظر إلى الشمس!" قال الفارس مذعوراً.....

- "عندما جئنا إلى هنا كانت الشمس بعد الزوال! انظر إليها الآن!"

ذهـل يسـوجي ممـا رآه، حيـث أدرك قصـد الفـارس المذعور! الشـمس الآن كانـت عنـد مشـرقها..... غفوتهم لـم تكن بضع دقائق كما كان يظن، بل لقد ظلوا نائمين في الحانة منذ مجيئهم في الظهيرة إلى اليوم الذي أعقبه!

4

وقـع خبـر سـقوط بخـارى فـي يـد المغـول، كالصاعقـة علـى أهالي سـمرقند وحكامها؛ فلم يتوقع أحد أن تسـقط المدينة العظيمة المحصنـة بهـذه السـهولة بعـد أشـهر قليلة من الحصـار. أخذ الناس يتحدثون عن حال سمرقند، وإن كانت هي وجهة المغول التالية بعد أترار وبخارى وباقي انتصاراتهم المتتالية على جيوش الخوارزميين، ولكـن الفاجعـة الكبـرى التـي أرهبـت القلـوب، وجعلـت الفرائص ترتعـد، كانـت أخبـار المذابح التي يخلفهـا جيش المغول لأي مدينة أو قريـة تقـاوم ولا تستسـلم طواعيـة! فالمقاومة كانـت تعني الإبادة والخراب، أما الاستسـلام فكان يسـاوي النجاة إلّا إذا سـبقته مقاومة مدة من الزمن كما حدث في بخارى، فينتج عنه مذبحة تساوي مائة ضعف عدد قتلى المغول! فسلطانهم جنكيز خان كان يعتبر أي فارس من فرسانه بمئة رجل ممن سواه، لذلك كان يعدّ مقتل أحدهم عنده ذنباً كبيراً لا يُغتفر!

ومع توالي الأخبار والشائعات بدأ الهلع يدب في نفوس الناس، وأخـذ بعـض الأعيـان مـن التجار يتسـاءلون مـا إن كان من الأجدى الاستسـلام مبكراً لجنكيز خان، دون إبداء أي مقاومة له، إذا ما قرر الهجوم على سمرقند؟

رصدت عيون السلطان علاء الدين محمد حال الأهالي، وأخبرته بمـا كان يـدور فـي الحانـات والسـاحات والحوانيت مـن الأحاديث

التـي كانـت لا تصـب في مصلحته، وخاصة أن بعضهم بدأ يشـيع أن السـلطان لن يتوانى عن الهروب من سـمرقند، كما فعل في بخارى عندمـا اشـتد الحال، فيفر مع أهلـه، ويترك الأهالي يلاقون مصيرهم. مثـل هـذه الأخبـار التي بدأت تتوافد على مسـمع علاء الدين محمد، جعلتـه يـزداد حنقـاً حتـى إنـه كاد يأمر الشـرطة بأن تقبـض على كل مـن يتحـدث بهـذا الحديـث، وأن تقطـع رأسـه فـي السـاحة الكبرى أمـام الجمـع، لـولا أن أمـه تركان خاتون هـدَّأت من روعه واقترحت عليـه أن يجعـل عيونـه في المدينة يشـيعون أخبار تركه لزوجته نوران ولحفيده محمود بن ممدود في بخارى؛ فلو كان الفرار هو هدفه لما تركهما، ولكنه خرج من بخارى لكي يجمع قواته فينقَضّ على المغول بضربة قاصمة تنهيهم إلى الأبد، وتزيحهم عن الوجود فيغزو بلادهم فاتحاً لها ولبلاد الصين من بعدها! ولأن الناس بطبعهم يبحثون عن الأمل، ولو كان أملاً كذاباً، وعلى أتم استعداد لكي يصدقوا أي شيء فـي سـبيل تحقيق ذلك الأمل، جـازت عليهم الأكذوبة، وصدقوا من يأسهم ما أشاعه رجال السلطان من أوهام! لكن تركان خاتون كانت تـدرك جيـداً أن الأمـر قد أصبح في غايـة الحرج، خاصة بعدما رأت ابنها السـلطان يراسـل أعداءه السابقين من ملوك المسلمين بمن فيهم الخليفـة العباسـي الناصـر لديـن الله الـذي حاول غزو بـلاده بالأمس القريـب وإزاحتـه عـن الخلافة! وكانت على يقين بأنه لن يأتي لنجدة الخوارزميين أحد؛ فكل ملك كان مشغولاً بمملكته، وودّه لو أن باقي الممالك تنهار حتى يسـود عليها بجيوشـه؛ وهجمة المغول شـكّلت فرصة سانحة لإضعاف مملكة خوارزم القوية التي طالما هددت باقي الممالـك...... نعـم، هـذه كانـت معركة الخوارزميـن وحدهم دون سـواهم، هكذا أدركت تركان خاتون، فإما أن ينتصروا على المغول،

فيمسوا أقوى مما أصبحوا، أو أن ينتصر المغول عليهم، وينتهي كل شـيء! لذلك كان لا بد لسـمرقند أن تصمد وتقهر أعداءها! هذا ما أدركتـه تـركان خاتـون، وهـذا ما أفهمتـه لابنها السـلطان علاء الدين محمد خوارزمشاه.

5

"ما من شـيء سـيكون إلا وقد كان. ما من شـيء سـيزول إلا وقد زال."..... ظلت هذه الجملة التي كانت آخر ما سمع من حياته السابقة تخطر على بال مراد قطز، هي والصوت الذي نطق بها، والذي بدا مألوفاً له؛ ولكن لم يكن هذا الأمر سـوى جزء من سلسـلة ألغاز حاصـرت عقلـه وأذهلـت كيانـه.... سلسـلة من الألغـاز كانت تزداد مـع الأيـام، وكلمـا شـعر أنـه اقترب من حل أحد هـذه الألغاز، نبتت له مجموعة أخرى! ولكن لغزين شعر بأنهما في الوقت الحالي هما الأهم؛ إن استطاع فك شفرتهما، لربما انكشفت له أمور كثيرة: اللغز الأول كان ذلـك الـذي حـدث أمام قلعة بخارى، عندما حاصره ذلك المخلوق الهلامي الداكن، فنظرت تجاهه ياسمي.... هل رأتهما في تلك اللحظة؟! الأمر الثاني كان رؤيته لنفسه صغيراً مع أبيه في زيارة لأوزبكستان، ولذلك المقام الواقع في المكان نفسه الذي وجد نفسه فيه بعد سـقوطه من ناطحة السـحاب وانتقاله في هذا الحال الغريب لهذا الزمن العجيب، ولتلك الأبيات التي كانت منقوشة على جداره. العجيـب أيضـاً أن تلـك الواقعـة مع أبيه لم تكن مسـجلة في ذاكرته، وإن بـدت مألوفـة له لسـبب ما. حاول اسـترجاع ذلـك الماضي أكثر مـن مـرة بتفاصيلـه، ولكنـه اكتشـف أنه لا يسـتطيع، وكأنه مُسـح من سجلات الذاكرة! بل اكتشف مراد أيضاً أن آخر شيء سجلته ذاكرته كان أحداث جامعة جدة والظروف المحيطة التي أجبرته على المجيء

إلى الرياض، ولا شيء قبل ذلك سوى الشذرات! كيف لم ينتبه من قبل إلى أنه لا يتذكر أي شيء عن ماضيه؟! حاول مراراً أن يستذكر، أن يرجع إلى ماضيه كما حدث، وهو في سجن قلعة بخارى، ولكن دون جدوى..... كيف استطاع أن يفعلها أول مرة؟! كيف استطاع أن يرى نفسه ويرى أباه؟! لو استطاع أن يسترجع تلك الذكريات لربما انكشفت له شفرات حل هذه الألغاز! أمّا سؤال عبدالرحمن عن هذه الأمور وغيرها، فقد أصبح عديم الجدوى، هذا ما أدركه مراد، فالرجل يجيب عن سؤال بسؤال آخر أكثر تعقيداً، لذلك كان من الأجدى ألا يسأله. ولكن ماذا عن ياسمي؟ لو كان بإمكانه أن يتحدث معها ويسألها عن بعض الأمور..... شيء ما يربطه مع هذه الفتاة المغولية، لا يدري ماذا يكون ذلك الشيء، ولكنه كان على يقين بأنه موجود، خاصة بعد ذلك الذي جرى في الحانة! الأبيات التي تغنى بها سابح العواد، هي نفسها التي رآها منقوشة على مقام قطز.... ياسمي تعرفت عليها! قالت إنها سمعتها من جارية أمر بصَلْبها سلطان خوارزم.... سمعت أبياتاً من فتاة ميتة؟! كيف؟! والأعجب أنه لم يكن هو وحده من شعر بالدهشة في تلك الليلة، بل حتى عبدالرحمن! عبدالرحمن الذي لا يدهشه شيء، دُهِش لِما قالته له ياسمي بعد سماعها للأغنية التي غناها سابح العواد، فسحبها إلى خارج الحانة للحديث معها على انفراد.....

كانت هذه من المرات القلائل التي حمد فيها مراد ربه على حالته هذه التي تمكنه من مراقبة ما يحدث من حوله دون مانع، فيستطيع رؤية الأحداث كما تقع، دون تشويش أو تجميل. ليس بينه وبين التاريخ قلم حاقد أو تزلف منافق، بل واقع يراه كما هو بحلوه ومره، بعظمته وبؤسه، بأحزانه وأفراحه...... وبغرائبه التي لا تنقطع!

حكت ياسمي لعبدالرحمن عن الرؤيا التي رأتها والّتي لم تكن تعلم حتى الآن إن كانت حقيقة أم مجرد خيال من خيالات النوم. ما كانت تعلمه يقيناً أنها تحدثت إلى جارية لم ترها في حياتها من قبل أو تسمع عنها. جارية ماتت منذ سنوات، رأتها وتحدثت إليها بعدما سمعتها تردد الأبيات نفسها التي كان يتغنى بها سابح العواد! تلك الجارية حدّثتها عن أمور لم تفكر فيها من قبل، كالفرق بين العلم والمعرفة؛ كما حدّثتها عن امرأة اسمها أم الوفا، شعرت ياسمي من حديث الجارية عنها بأنها تريد اللقاء بها، وكأن رابطاً ما غير معلوم يربطهما......

في تلك اللحظات، تأكد حدس مراد نحو ياسمي، وإلّا ما معنى رؤيته لذات الأبيات من الشعر في الفترة نفسها التي سمعتها هي من الجارية. حتماً هناك رابط ما يجمعهما، وإن كان لا يعلم حتى الآن ما هو!

- "هذه ثاني مرة ألاحظ فيها عليك الدهشة، وفي المرتين كان الأمر يتعلق بياسمي."

لم يحاول مراد إخفاء سعادته وتشفيه في عبدالرحمن الذي كان إلى وقت قريب يعتقد أنه يعلم كل شيء، ولا يدهشه أي شيء.

- "وأين تكمن لذة الحياة إن لم يُدهش المرء بين الفينة والأخرى."

لم تكن تلك الإجابة التي يرغب في سماعها مراد....

- "من تكون أم الوفا هذه التي تريد ياسمي الذهاب إليها؟" سأل مراد بشكل مباشر وهو يعلم مسبقاً أنه لن يحصل على إجابة شافية.

- "لماذا لا تسأل ياسمي، فهي التي ذكرتها."
- "لو كان بمقدوري التحدث معها، لسألتها عن أمور كثيرة أخرى بجانب أم الوفا."
- "لو أن الأمر متعلق فقط بالقدرة لما واجهتك عقبة، ولكن القدرة يلزمها الاستطاعة لكي تتحقق..."
- "لماذا كل هذا الغموض الذي تحيط نفسك به؟ ما الذي تخشى أن أعرفه؟!" تردد مراد قليلاً قبل أن يكمل.....
- "ذلك الكائن الغريب، لقد حذرني.... حذرني منك!"
- "تقصد ذلك المخلوق الداكن الذي حاول القضاء عليك، والذي أنقذتك أنا منه؟" لم تكن نبرة عبدالرحمن متعالية أو طالبة للامتنان، ولكن مع ذلك شعر مراد بشيء من الإذلال لتذكيره بما حدث.
- "أنت دائماً لديك رد جاهز لكل سؤال، وإن كان لا يسمن ولا يغني من جوع!"
- "هل تذكر ماذا قلت لك منذ زمن ليس ببعيد؟ علم في غير موضعه...."
- "نعم، أذكر!" قاطعه مراد....
- "قد يقود إلى مزيد من الجهل!"
- "إذاً دعني أقلْ لك شيئاً آخر هذه المرة، وأرجو أن تتذكره جيداً: الحقيقة إن لم يكن المرء على أتم استعداد لتقبلها، قد يكون وقعها أشد ألماً على النفس من الموت!"

وبهـذه العبـارة أنهى عبدالرحمـن حديثه مع مراد في تلك الليلة بقرية السوت....

* * *

حـاول مـراد مـراراً أن يتحدث مع ياسـمي.... طاف حولها.... همس في أذنها أثناء النوم وأثناء اليقظة، ولكن لا شيء..... لا شيء على الإطلاق! لم يكن يعلم ما الذي كان باسـتطاعته أن يفعل حتى تتمكن من رؤيته وسماعه كما حدث مع تلك الجارية..... كره مراد هذا الشعور بالعجز! كما كره شعوره بمرارة الجهل!

حاول مراراً أن يسترجع الأحداث التي جرت أمام قلعة بخارى، فلعلـه يكتشـف كيـف اسـتطاعت ياسـمي أن تراه في ذلـك اليوم؟ ما الـذي فعلـه فمكنهـا من رؤيته؟ وهل يسـتطيع فعله مرة ثانية؟ أسـئلة أخرى بلا إجابة...... لم يكن أمامه سـوى المراقبة والانتظار، فلعل الأمور تتضح له مع الوقت؛ ومن حسـن الحظ، إن كان هناك شـيء اسمه الحظ، أخذ مراد يردد مع نفسه، أن الوقت هو السلعة الوحيدة التي يمتلكها.

6

مـا هـذا الـذي كان يحـدث أمامه؟! أمرها عجيـب هذه الفتاة وما أحدثته في نفس جدته! هل سـحرتها؟! لقد سـمع محمود بن ممـدود مـن قبل أن المغول يمارسـون ضرباً من ضروب السـحر، ولهـذا كانـوا ينتصـرون في جميع معاركهـم، فهل هذا هو ما فعلته ياسـمي مع جدته؟! "ولكن سـحرها لن ينفع معي، وسـأطَلِّقها فور وصولنـا إلـى غزنـة! خالي جلال الدين منكبرتي لن يقبل أن تكون زوجـة ابـن أختـه مـن أعداء الله المغول! لن يقبـل بهذا الأمر أبداً، وسيقُنع هو جدتي نوران بوجوب تطليقها، بل وسَبْيها!" كل ما كان عليـه أن يفعـل الآن هـو أن يصبـر..... أن يصبـر على هذه الرحلة التـي يبـدو وكأنها سـتطول، وعلى رفاق هـذه الرحلة الذين أرغمه القدر على صحبتهم!

فقـط خمـس ليـالٍ هي التي مضت منذ أن ترك على عجل تلك الحانة التي كرهها منذ أن خطت فيها قدماه ثم ظهر بها ذلك العواد! لذلك لم يعارض محمود عندما قرر عبدالرحمن الرحيل فجأة وعلى عجـل، حتـى وإن لم يكن سـعيداً بالطريقة التـي كان يتخذ بها القرار دون مشـورته هـو أو جدتـه، وكأنهمـا من أتباع ذلـك "الرجل العربي المُريب" وليسا من سادة القوم!

* * *

في الليلة الأولى عندما توقفوا للمبيت، استطاع محمود أن يختلي بجدته بعيداً عن مسمع الآخرين، ثم بدأ يبوح لها عما كان يجول في صدره:

- "لا ينبغي لنا أن نطيعه هكذا في كل قرار يتخذه، وكأننا من مريديه!"

- "محمود! لماذا تتحدث هكذا عن رجل يساعدنا، ولم نرَ منه إلّا كل خير؟!"

- "لأنني لا أثق به..... هل نسيتِ أنه جاء مع قافلة الجواسيس التي أرسلها خان المغول؟!"

- "عن أي جواسيس تتحدث؟! أنت رأيتهم مثلي، عندما كنا في أترار. كانت قافلة لتجارٍ مسلمين؛ كما أنك تعلم جيداً مدى جشع ينال شقيق تركان، ولا أستبعد أبداً أن تكون القافلة قد أغْرته، فحاك تلك التهمة الخسيسة لكي يقضي على التجار فيستولي هو على بضائعهم!"

- "وماذا عن الذي فعله في بخارى؟!" قاطع محمود.....

- "ماذا عن استهزائه بجدي السلطان أمام حاشيته وخداعه له من أجل الإفراج عن غلام ذلك الزنديق واصل بن غيلان؟!"

- "محمود!.... واصل بن غيلان لم يكن زنديقاً!"

صمتت نوران قليلاً، وقد شعرت بعينيها تفيض حزناً لتذكرها ما حدث للرجل الوحيد الذي أحبته في حياتها..... من حسن الحظ أن الليلة لم تكن مقمرة فاستطاعت إخفاء الدمعة التي سالت على الرغم منها.

- "محمود أيها الحفيد الغالي، أنا لم أُنشئك على قسوة القلب أو نكران الجميل.... تذكر أنه لولا الله ثم عبدالرحمن، لما تَمكّنا من الفرار من بخارى، ولوقعنا في أسر المغول؛ ولم تكن هذه هي المرة الأولى التي ساعدنا فيها ذلك الرجل الطيب واسع العلم، أم نسيت المخرج الفقهي الذي جاء به عندما التقيناه في أترار، والذي حافظ به على ماء وجه السلطان ما مكّنه من أن يبر بقسمه دون أن يضطرني للمبيت في العراء."
- "العراء!" ضحك محمود مستهزئاً وهو يُلوِّح بذراعيه.....
- "وما هذا الذي نحن فيه الآن؟!"
- "ومن الذي يلام على هذا؟! عبدالرحمن؟!"
- "بل أهل هذه الفتاة الحمقاء التي تصرين على اصطحابها معنا!"

لم ينتظر محمود بن ممدود رد جدته، وآثر أن ينهي الحديث بالقيام من موضعه والذهاب إلى مكان آخر، حيث يستطيع أن يكون بمفرده بعيداً عن جدته وعن الجميع....

* * *

استمر السير في اليوم الثاني من بعد صلاة الفجر إلى الزوال دون توقف؛ عدواً على الخيول تارة، ومرتجلين تارة أخرى حتى لا تنهك تلك الخيول التي اشتراها عبدالرحمن من القرية قبيل مغادرتها. عند الزوال كانوا يتوقفون عن السير برهة من الوقت من أجل التقاط الأنفاس وتناول بعض الطعام..... في ذلك اليوم توقفوا عند ضفاف نهر جيحون.

فرغ محمود من الطعام سـريعاً، ثم انصرف بمفرده متجولاً في المـكان، بيـن الأشـجار القليلة التي كانت ترويهـا مياه النهر. لم تكن لديه رغبة في التحدث مع جدته أو أي أحد آخر؛ أراد فقط أن يختلي بنفســه ولو لمدة قصيرة من الزمن، فينســى في تلك اللحظات القليلة كل ما حدث له في الأيام السابقة، فيزيح بذلك عن باله وعثاء ترحاله. وما كاد يجد سـكينته وسـط هدوء المكان حتى سـمع صوت أغصان ناشفة على الأرض تنكسر تحت قدمي شخص لحق به.

- "هل أنت بخير؟"

كانـت أول مـرة تتحـدث معه ياسـمي منذ تهكمهـا عليه، عندما اعترض على تسريح الخيول بعد فرارهم من بخارى...

- "أودّ أن أعتـذر لـك علـى الطريقة التي خاطبتك بها ذلك اليوم."

أكملت بعد صمت قصير لم تتلقَّ خلاله إجابة عن سؤالها.

اكتفـى محمـود بإيمـاءة رأسـه، ثم أخـذ يدير جسـمه عنها، وما كاد يفعل حتى لمحها وهي تضع يدها اليمنى في جراب لتخرج منه شـيئاً..... لـم يصـدق فـي بادئ الأمر هـذا الذي كان يشـهده! لكنها كانـت حقيقـة لا يعتريهـا الشـك..... خنجـر! ياسـمي كانت تمسـك بخنجر في يدها اليمنى، وكانت تقترب منه!

وضع محمود يده على خصره، فتذكر أنه قد ترك سـلاحه على الفَـرس.... نظـر حولـه، فلعلـه يجد شـيئاً ينفعه كسـلاح...... "هذه الفتـاة المغوليـة تريد طعني! لم تصدقني جدتي عندما حذرتها منها!" التف سريعاً ليأخذ من الأرض قطعة حجر رآها، فيستطيع الدفاع بها عن نفسه، وما كاد يلتفت على عجلٍ نحو ياسمي بعد إمساكه بقطعة الحجـر، حتـى وجدهـا بجانبـه، وهي تقطع بخنجرها فرعاً يابسـاً من

الشجرة التي بجواره.....

- "أعتقد أن هذه القطعة تصلح." قالت متأملة الفرع المقطوع دون أن تنتبه للجَزَع الذي أبداه محمود قبل قليل، ثم رجعت من حيث أتت، تاركة إياه في حيرة من أمره!

* * *

ظل محمود يراقب ياسمي في اليوم التالي وهي تعمل على فرع الشجرة كلما تسنى لها الوقت. رآها تستخدم الخنجر على ذلك الفرع اليابس بمهارة لم يتوقعها من فتاة، ولم يمضِ وقت طويل حتى تبين له أن ما كانت تصنعه هو قوس!.... " ما هذا الهراء؟!"....... لم يفهم السبب وراء صنعتها هذه، فهل تنوي خوض معركة وهمية مع قُطّاع الطرق؟!

لم يكن محمود الشخص الوحيد الذي تعجب من صنيع ياسمي، بل حتى محمد الطوسي شاركه ذلك الشعور، ولكن على خلاف الأمير الخوارزمي، لم يشعر محمد بأي حرج في السؤال:

- "أهذا قوس بحق أم مجرد لعبة؟"

- "قوس لعبة؟ وهل هناك شيء كهذا؟" أجابته ياسمي مستغربة السؤال.

- "لست خبيراً في السلاح، ولكن لم يخطر على بالي أن صناعة الأقواس بهذه السهولة."

نظرت ياسمي إلى محمد الطوسي باستنكار. لوهلة قصيرة شعرت وكأن هذا الفتى يستهين بصنعتها، ولكن سرعان ما تغاضت عن هذا الشعور عندما بادر محمد بتصحيح ما قال....

- "أقصد أنك ماهرة جدّاً بحيث بدا لي وكأن الأمر يسير..... لم أتخيل أن في يوم واحد فقط يمكن لفرع شجرة يابس أن يتحول إلى قوس." صحح محمد قبل أن يضيف.....

- "ولكن ماذا تنوين الفعل به؟"

ضحكت ياسمي لسؤال الفتى، ثم أجابت عن سؤاله بسؤال:

- "وما الذي تظنه يُفعل بالأقواس؟"

ظل محمد الطوسي صامتاً مستشعراً بعض الحرج.....

- "سأستخدمه مع هذا السهم الذي صنعته لصيد الأرانب البرية، حتى لا ينقص علينا الطعام."

- "أنت تحسنين أيضاً الصيد بالقوس؟!" سأل محمد عاقداً حاجبيه دَهِشاً مما سمع....

لوهلة أرادت ياسمي أن تنغزه بالسهم الذي في يدها.... "كم من مرة سأتحمل استهزاءه بي؟!!".....

- "إن كنت تنوين الصيد، أوليس من الأفضل أن تصنعي أكثر من سهم واحد حتى إذا ما أخطأت الهدف من أول رمية....."

لم تتحمل ياسمي أكثر من هذا!!...... قامت من موضعها وصوبت قوسها، بعد أن حمّلته بالسهم، إلى رأس الفتى "المتعجرف"......

- "أنا لا أخطئ هدفي أبداً! هل تودّ أن أبرهن لك؟!"

ثوانٍ قليلة مرّت، شعر محمد الطوسي وكأنها ساعات، قبل أن تزيح ياسمي السهم من القوس المصوب إليه وتنصرف بعيداً عنه..... أخذ الفتى يلتفت حوله، مستشعراً الحرج، ليتأكد أن أحداً لم يشاهد

هذا الموقف المُذل، حتى وقعت عيناه على محمود بن ممدود الذي كان يراقبهما من بعيد.....

* * *

بدأت جبال بلاد الأفغان تلوح لمحمود في الأفق، عندما توقفوا للاستراحة في اليوم الخامس من الرحلة...... ملل شديد كان يشعر به، خاصة مع هذه الصحبة التي، باستثناء جدته، لم تَرُق له على الإطلاق! تمنى لو أنه كان بإمكانه أن يقلص المسافات، فيصل إلى غزنة اليوم قبل غد؛ وكعادته في الأيام السابقة، أخذ محمود جانباً بمفرده ليستقر فيه، دون أن يشارك الآخرين في وليمة الأرنبين اللذين استطاعت ياسمي أن تصطادهما بقوسها الذي صنعته ثم قامت بتنظيفهما ووضعهما على النار التي أشعلوها في المكان الذي استقروا عليه من أجل المبيت عند واحة صغيرة كَوَّنتها الأمطار المتفرقة بين التلال....

- "لماذا أنت دائماً غاضب؟"

فوجئ محمود بالسؤال من ياسمي بعد أن تسللت إلى جانبه، دون أن يشعر بها، ثم جلست بجواره مناولة إياه قطعة متبقية من اللحم المشوي.

- "لا رغبة لي في الطعام." اكتفى بردّ ما قدمته إليه من طعام، دون أن يجيب عن سؤالها.

- "عندما قدمت إلى بخارى حسبت أن الحياة ستسير بي في طريق آخر غير هذا الذي أسير فيه الآن، ولكن هكذا هي الحياة، لا تعطينا كل ما نتمناه، تقسو علينا تارةً، وتحنّ علينا تارةً أخرى...... تستطيع أن تغضب كما تشاء، ولكن هذا لن يغير شيئاً."

التفت محمود إلى ياسمي. أراد أن يقول لها بأن ما هو فيه الآن هـو صنيعـة أهلهـا المغـول "الذين عاثوا في الأرض فسـاداً!" أراد أن يخبرهـا بأنـه لا يريدهـا زوجـة له ولا يرغب فـي صحبتها، ولا حتى التحدث معها!....."فلتذهبي أنت وأهلك وقوسك وسهمك وأرنبك إلى الجحيم!"......

- "لماذا... لماذا أنت هنا؟" كانت هذه هي الكلمات التي تفوه بها.
- "أنـا هنـا مـع أهلـي..... مـع زوجـي." جاءت الإجابة بشـكل عفـوي ودون تكلـف، مـا أربك الفتى، فلم يسـتطع الرد، واكتفى فقط بتأملها.
- "هل رأيتما عبدالرحمن؟" جاء السؤال من محمد الطوسي قاطعاً لحظات الصمت التي اعترت المكان......
- "لقـد بحثـت عنـه فـي كل مكانٍ حـول الواحة، ولكنـي لم أعثر عليه."
- "آخر مرة رأيته فيها كان عندما توقفنا قبيل الغروب. لعله ذهب ليستكشـف المـكان كعادتـه عندمـا تحـط بنـا الرحـال." أجابـت ياسمي.
- "نحن الآن بعد العِشاء. ليس من عادته أن يغيب مدة طويلة كهذه دون أن يخبرني."
- "هـدئ مـن روعـك، فالرجـل ليس في حاجةٍ إلى وصاية أحدٍ منا... لا تخشى عليه." قاطع محمود بنبرة حادة غير مكترثة.
- "ليس هو الذي أخشى عليه، بل نحن."

شعر محمود بقلق يعتريه من جملة محمد الأخيرة....

- "ماذا تقصد؟!"

لم تأتِ الإجابة من محمد الطوسي، بل من أصوات أقدام بدت واضحة، آتية من خلف التلال..... بعدها بلحظات قليلة، أسفرت الأصوات عن أجساد.... أجساد رجال أحاطوا بالمكان، ولم يبدُ عليهم الترحاب!

7

لو كان الأمر بيده، لترك يسوجي البحث عن ياسمي ومن معها، ولذهب وراء ذلك "العواد الوغد" الذي سحره ورجاله! فالشعور بالمهانة لا يعادله شعور، خاصة عندما تأتي هذه المهانة من شخص لم يعُدّ له بالاً أو يقِم له وزناً! ولكن كان عليه أن يترك العواد، على الأقل الآن، ويستمر في بحثه عن ابنة جوشي كما أمره تولويْ، خاصة أن الأمر الآن قد أصبح أكثر تعقيداً..... فإلى أين هي وجهتهم؟ إلى غرب مملكة خوارزم، أم أن هذه كانت مجرد خدعة، ولكن وجهتهم الحقيقية هي نحو غزنة في الجنوب؟ الحل الوحيد كان أن يقَسِّم فرسانه إلى نصفين: نصفهم يتجه غرباً، والنصف الآخر يسير معه جنوباً.....

لم يتخيل يسوجي أن البحث عن ياسمي سيستغرق كل هذا الوقت، فهي في نهاية المطاف فتاة تسير مع بضعة أشخاص هاربين. لقد تعقب في حياته الحافلة من هم أكثر خبرة وحنكة، واستطاع الوصول إليهم دون عناء. الآن بدأ يتفهم لماذا أصر تولويْ عليه هو شخصياً لكي يقوم بهذه المهمة على الرغم من كونه قائداً للفرسان، خاصة مع ظهور ذلك الرجل العربي في الصورة الذي لا يعرف عنه شيئاً سوى أن اسمه عبدالرحمن، وأن تبتنكر حذّر منه! ولكنه مجرد رجل أعزل، لا يسير مع جيش أو أتباع، قد يكون شديد الدهاء، كما بدأ يتبين له، ولكنه يبقى رجلاً أعزل يسير في بلاد ليست بلاده.

الشيء الوحيد الذي جعل يسوجي يشعر بشيء من الحذر تجاهه هو ذلك الذي حدث مع فارسَيْه ليلة سقوط بخارى. إلى الآن لم يفهم كيف استطاع ذلك الرجل أن يُرهب اثنين من أفضل فرسانه، ويجعلهما يفرَّان منه بذلك الشكل المهين! لعله ساحر يجب الحذر منه وأخذ الحيطة! أمور كثيرة بدت غريبة لقائد فرسان تولويْ، ولم تكن هذه أقلها، ولكن الحياة علمته ألا يسأل كثيراً. فقط كان عليه أن ينفذ أوامر أسياده؛ فماذا جنى السؤال لأصحابه سوى الهم والغم..... كم من فرسان كان يعرفهم، أشد منه قوة وبأساً ودهاءً، ذهبوا أدراج الرياح لأنهم كانوا يكثرون من السؤال، فأغضبوا رؤساءهم! كان يسوجي يدرك جيداً أن من أهم أسباب نجاحه ووصوله إلى مكانته التي وصل إليها مع أحد أبناء جنكيز خان، هو أنه ينفذ الأوامر دون أن يسأل..... فهو لم يسأل مثلاً تبتنكر عن سبب كرهه الشديد لياسمي، أو عن سر ذلك العربي الذي يسير الآن معها، وكيف عرف الكاهن بأمره، وهو الذي يبعد عنه مئات الأميال...... لم يسأل سيده تولويْ عن رغبته الملحة في قتل ابنة أخيه جوشي وهي التي تحظى بمكانة كبيرة عند أبيه جنكيز خان..... لم يكن يسوجي في حاجة لكي يسأل، فكل ما كان عليه إدراكه هو أنه الفارس المحظي من قبل أكثر أبناء ملك ملوك الأرض دهاءً وذكاءً! صحيح، قد لا يصبح تولويْ هو الخان القادم بعد أبيه لصغر سنه، ولكنه حتماً سيكون له اليد العليا والكلمة الأخيرة في اختيار ذلك الخان؛ وإن كان هناك أحد يفوق الملك قوة فهو صانع الملوك!

* * *

لم يشعر يسوجي في يوم من الأيام بما يسميه البعض "تأنيب الضمير"، وهو حتماً لم يشعر به بعد لقائه بصاحب الحانة في قرية

السوت، كما لم يكن لديه أدنى شك بأن ضميره لن يكون عائقاً أمام تنفيذ المهمة التي أوكلها له تولويْ، والسبب أنه كان على يقين بأن الخير والشر هما وجهة نظر، لا أكثر ولا أقل. الأمر كله كان يتعلق بمصلحة من يقوم بتقييم الفعل. فإذا كان من مصلحته أن يصنف هذا الفعل على أنه شر فهو كذلك، وإن كان من مصلحته أن يصنفه على أنه خير، فخير هو! عندما ينقلب القائد على مَلِكه، وينجح في قتله، ويحل مكانه، تكون فعلته هذه هي الخير الذي عمّ على البلاد لإنقاذها من الفساد، وعندما يفشل تكون حينها فعلته هي عين الشر والفساد. الأمر برمته ليس إلا وجهة نظر، وعلى هذا الأساس كان يتعامل يسوجي في جميع أمور حياته، حتى مع الدين الجديد الذي تبناه. فلم تكن المسألة بالنسبة إليه بحثاً عن الحق؛ لأن الحق كان هو أيضاً خاضعاً لوجهة النظر. الأمر كان بالنسبة إليه أبسط من هذا بكثير: فزوجة تولويْ تبنت المسيحية ديناً لها، وتولويْ يعشق زوجته ويسعى لإرضائها بشتى الطرق.... الخُلاصة المحتومة التي بدت ليسوجي من أجل أن يترقى بشكل سريع من فارس إلى قائد فرسان هي أن يعتنق المسيحية هو الآخر، ويبالغ في إظهار مسيحيته للجميع لكي يكسب ود الزوجة التي تستطيع التأثير في زوجها، ولذلك عندما برزت له الفرصة كان أفضل من يستغلها. فلما تساءل يوماً ما أحد الفرسان عن هذا الدين الذي يدّعي أن إلهه اضطر للتضحية بابنه الوحيد من أجل التكفير عن خطايا البشر: "أوليست لديه القدرة على التكفير من دون إراقة الدماء؟".... كان جواب يسوجي بسيطاً ومباشراً، سلّ سيفه، وقطع رأس ذلك الفارس!

في أي ظرف آخر، كان هذا الفعل كفيلاً بأن يتسبب في إنهاء حياة يسوجي، ولكن لأنه كان يدرك أن الخير والشر هو رهن لوجهة

النظر، وصاحبة وجهة النظر الأهم في هذه الحالة هي زوجة تولويْ، فقد كان على أتم الاستعداد بالمخاطرة والإقدام على فعلته تلك...... النتيجة أنه أصبح في غضون مدة وجيزة قائد فرسان الابن الأصغر لجنكيز خان..... الابن الأكثر دهاءً وذكاءً..... الابن الذي إن لم يصبح الخان القادم، فسيكون حتماً هو الصانع له!

* * *

روث خيول، وبقايا حطب وطعام..... أناس حتماً مروا من هنا، ولكن يبقى السؤال: هل هم الذين يطاردهم؟ لم ييأس يسوجي، واستمر في سيره جنوباً، فلم يكن لديه خيار آخر، إمّا أن يكونوا هم فيلحق بهم ويتم مهمته، أو لا يكونوا هم فيعيد حساباته من جديد ويبحث في مكان آخر......

مع كل يوم جديد، كان يزداد اقتراباً من تلك العُصبة التي ظل يتعقبها؛ إلى أن لاحت له في الأفق واحة، على مسافة ليست ببعيدة..... اقترب يسوجي وفرسانه الخمس من بركة الماء الواقعة بين الأشجار. نظر حوله بعد أن أمر فرسانه باستكشاف المكان. حتماً كان أناس هنا، بل من آثار أقدام الخيول وروثها، كان العدد كبيراً، يفوق المئة!

- "سيدي يسوجي." أقدم أحد الفرسان حاملاً معه قوساً......
- "وجدتُ هذا."

نظر يسوجي إلى القطعة المصنوعة من فرع شجرة، ثم أدرك ما أراد الفارس الإشارة إليه: هذه الصنيعة تدل على صانعها. لقد مرّ شخص مغولي من هنا.....

- "ياسمي؟!"

8

يوم يتلوه يوم، والقافلة تسير دون أن تعلم ياسمي من هم هؤلاء القوم الذين أحاطوا بهم عند الواحة، وماذا ينوون الفعل بهم بعد أن اقتادوهـم معهـم. الأمر برمته انقضى بشـكل خاطف ودون أي تلكؤ، بل حتى لم تحاول تلك العصبة التي كان تعدادها حول المئة، هكذا خمّنـت ياسـمي، أن تتحـدث معهـم أو تسـألهم مـن يكونـون؟ وماذا يفعلون هنا؟.....

منظرهم كان يثير الريبة: ملثمون ومدججون بالسلاح! أشكالهم لـم تكـن توحـي بأنهـم ممن يرحبـون بالأغـراب، وهذا ما أثـار ريبة ياسـمي، وقـد تأكـد حدسـها عندمـا قيدوهـا هـي ورفاقهـا، باسـتثناء عبدالرحمـن الـذي لـم تر لـه أثراً! لوهلة ظنت أنهم ربما أمسـكوا به خلـف التـلال، أثنـاء تَجَولـه كعادتـه كلمـا توقفـوا من أجـل الراحة، ولكـن عندمـا أتوا بنـوران خاتون مربوطة اليدين، ووضعوها بجوارها هـي ومحمـود ومحمد الطوسـي، ثم اقتادوهم جميعـاً إلى رجل كان يبدو عليه، من الهيبة التي أبداها باقي الرجال نحوه، أنه هو زعيمهم، أدركت حينها ياسـمي أن عدد الأسـرى قد اكتمل، وها هم يُعْرَضون علـى صاحـب القـرار لكي يحدد مصيرهـم! عبدالرحمن لم يكن من ضمن الأسرى..... إما أنه شعر بقدومهم فهرب قبل أن يقبضوا عليه، أو أنهم عثروا عليه ف...... لم ترغب ياسـمي في إكمال الخاطرة. لـم تكـن على اسـتعداد فـي تلك اللحظة لتقبل احتمـال أنها لن ترى

عبدالرحمن بعد اليوم! ولكن كلما مضى يوم وأعقبه يوم آخر، بدا لها هذا الاحتمال هو الأقرب إلى الواقع.....

* * *

اقتربت القافلة من جبال بلاد الأفغان بعد مسيرة عدة أيام لم تتوقف إلّا من أجل النوم لبضع ساعات. الصمت كان السمة الغالبة لتلك الرحلة، حتى إنه لوهلة ظنت ياسمي أن هؤلاء القوم ربما لا يفقهون الحديث! كانوا جميعهم يتصرفون كجسد واحد متناسقة أعضاؤه؛ كل فرد منهم مدرك لما يجب أن يفعله، وكأن كل خطوة كانت مدروسة وكل حركة محسوبة..... ألِهذا هم ليسوا في حاجة للإكثار من الحديث؟ شعرت ياسمي بالحيرة الشديدة لما كان يحدث، وقلق أشد مما ينتظرهم!

لم تكن هي الوحيدة الشاعرة بالقلق، بل كان ذلك واضحاً أيضاً على الباقين، خاصة محمود الذي في أول يوم ظل يهدد ويتوعد، ولولا إيماءة نوران خاتون له بأن يصمت، لأخبرهم بأنه حفيد سلطان خوارزم، وأن هذه المرأة هي زوجة السلطان وأم أمير بلاد الأفغان.... ولكن نوران خاتون كانت تدرك جيداً أن هذه المعلومات يجب ألا تظهر حتى تتبين من هوية هؤلاء القوم، فليس كل سكان هذه البلاد هم على وئام مع آل خوارزمشاه. لذلك لم تمانع زوجة السلطان هذا الصمت الذي اتصفت به مسيرة القافلة.....

أما محمد الطوسي فلم يكن قلقاً على نفسه بقدر ما كان قلقاً من اختفاء عبدالرحمن المفاجئ، حتى إنه كاد يسأل أحد الخاطفين عنه، ولكنه تراجع في آخر لحظة، مدركاً أنه لربما كان مختبئاً، ومن ثم ليس من الحكمة الإفصاح عن وجود شخص خامس لم يمسكوا به.......

- "لا داعي لذكر عبدالرحمن لهم." همس محمد الطوسي لياسمي ومحمـود ونـوران خاتـون، فـي أول فرصة سـنحت لـه للحديث معهم، عندما توقفت القافلة للمرة الأولى.

- "ولكن ماذا تظن جرى له؟" تساءلت ياسمي.

- "لا أدري.... إن كان هناك شيء قد أدركته عنه طوال الأشهر التي لازمته، فهو أنه لا يفكر، ولا يتصرف كباقي الخلق."

- "لا تُؤمِّل نفسك وانظر إلى الواقع من حولك. مستحيل أن يكون قـد فلـت مـن مئة رجـل أو أكثر كانوا محيطين بواحة صغيرة بين التـلال... آن لنـا أن نعتـرف بالواقع: الرجل حاول الفرار بجلده عندما شعر بهم، ولكنهم في الغالب أمسكوا به، وقتلوه....."

- "محمود!!" قاطعته ياسمي بصوت مرتفع يعلوه الغضب، حتى إن بعض رجال القافلة التفتوا نحوها باستنكار شـديد، مما نتج عنه تفريقهم.....

وهكذا استمر الحال إلى أن حط بهم الرحال عند مسلك متعرج بين جبلين ساروا فيه حتى قادهم إلى سد حجري منيع تتوسطه بوابة كبيرة مصنوعة من حديد، يعلوها برج مراقبة للتأكد من هوية القادمين؛ ومـا كادت تقـف القافلـة عند مدخل ذلك السـد، حتى فُتحت البوابة بشكل تلقائي لتأذن بدخول القافلة ومن معها.

* * *

الطرف الآخر من السـد كان استمراراً للممر نفسـه بين الجبلين الذي سارت فيه القافلة، وإن كان أكثر اتساعاً من سابقه بنحو الضعف ويزيد. استمر السير فيه وقتاً أطول، وفي اتجاه انخفاض ما كان يوحي بأنه مدخل وادٍ بين الجبال، وهذا بالفعل ما أسفرت عنه نهاية الطريق

عندما حطّت القافلة برحالها وتوقفت عن سيرها عند بناية كبيرة، بجانب مدخل الوادي، مُرفقة بها حظيرة للخيول لا تقل مساحة عن تلك البناية.

قائد القافلة لم يتوقف للاستراحة مع رجاله، بل بدّل خيله، ثم انطلق بمفرده، وبعد لحظات جُمِعت ياسمي مرة أخرى بنوران ومحمود ومحمد، بعد أن فكوا قيودهم. بعدها اقتيدوا جميعاً إلى عربة يجرها حصان كانت بجوار الحظيرة، بدا وكأنها أُعدّت لهم لكي تقلّهم إلى مكان آخر.....

جنة من جنان الأرض! كان أول خاطر طرأ على بال ياسمي في أثناء سير العربة على الطريق الممهد في الوادي...... جداول وينابيع مياه، وحقول شاسعة من الأزهار بين الشجيرات التي كانت تملأ الساحات الفسيحة على امتداد البصر بين الجبال التي بدت شاهقة بالنسبة إلى هذا المكان المنخفض...... ولكن هذا الخاطر لم يستمر طويلاً، فعلى الرغم من جمال المكان، إلّا أن حالة الأسر الذي كانت فيه مع رفاقها، وعدم معرفة من هم هؤلاء القوم، وما الذي يريدونه منهم، جعلها تتغاضى عن جمال المكان وسحره!

- "أين نحن؟" سأل محمد الطوسي موجهاً نظره إلى نوران خاتون، متوقعاً أنه لو كان عند أحد إجابة، فحتماً زوجة سلطان البلاد ستكون هي الأعلم، بحكم أنها جابت المملكة مع زوجها في رحلات عدة؛ ولكن الإجابة التي تلقاها كانت على غير هواه.....
- "حقّاً لا أعلم؛ فلم أسمع بوجود هذا المكان من قبل. يبدو كأن موقعه بين الجبال جعله خفيّاً عن الأنظار."
- "هل تعتقدين أنهم علموا من نكون، ولذلك فكوا قيودنا؟" جاء

السؤال من محمود، وإن كان أقرب إلى التمني والرجاء.

- "ربما..." أجابت نوران خاتون بنبرة متمنية هي الأخرى.

- "أظن أن سبب فك قيودنا هو أنه لا خوف علينا الآن من الهروب. فأين سنذهب؟ المكان محاصر بالجبال، ومدخله أشبه بمدخل الحصون!" قاطع محمد الطوسي، ذاكراً ما خطر على بال الجميع وإن حاولوا إنكاره..... فكل شيء من حولهم كان يبوح بأنه لا مجال للهروب! لا مجال للخروج من هذا الوادي إلّا إذا سُمح لهم؛ وجميعهم باتوا مدركين أن لو كان هذا الخيار مطروحاً لما جيء بهم عنوة إلى هنا!

* * *

استمرت العربة في سيرها بين الحقول المليئة بالزهور البنفسجية اللون نفسها، وإن كانت تتخللها بعض الألوان الأخرى مثل الأصفر والأبيض، ولكن كلها تحمل الشكل نفسه، والمتناثرة بين كم هائل من الشجيرات القصيرة ذوات الأوراق الطويلة الخضراء.... بعد برهة من الوقت لاح في الأفق نفق كبير بدا وكأنه يخترق أحد الجبال. كانت العربة تتجه نحو ذلك النفق....

- "ما هذا؟!" كان أول سؤال يخطر على بال الجميع، وإن كانت ياسمي هي أول من نطق به عندما دخلت العربة إلى داخل النفق وشاهدوا تلك الأعمدة المضيئة المتناثرة على جانبي الطريق! وجه الغرابة أن مصدر الضوء المنبعث من أعلى العمود لم يكن شعلة كما هو المعتاد، ولكن بلورة زجاجية يصدر منها ضوء ساطع، النظر إليه يكاد يُعمي الأبصار!

- "سحر! هذا سحر!" صاح محمود....

- "نحن في بلاد السحرة والجن!"

ولكـن الدهشـة لـم تنقطع بخـروج العربة من النفـق، بل زادت عندمـا أسـفر الطـرف الآخـر من النفق عن مدينة لم يسـبق لأحد من الأربعة مشاهدة أي شيء مثلها!

شـوارع معبـدة بالحجـارة تتفـرع منهـا شـوارع أصغر بيـن مبانٍ متلاصقة ذات واجهات حجرية منقوشة. الشوارع كانت تضج بالناس. بعضهـم يسـير على أقدامهـم بين الحوانيت، وبعضهـم داخل عربات مسـقفة تجرهـا الخيـول، والبعـض الآخر يركـب آلات عجيبة ذوات عجلتين يُسيِّرونها بأقدامهم!

المدهـش أن هـذه المدينـة التي تقع فـي حدود مملكة خوارزم، كانت إلى تلك اللحظة مجهولة لدى زوجة سلطان خوارزم وحفيده!

* * *

لـم ينطـق السـائق طـوال الطريـق بكلمـة واحـدة، واكتفى فقط بتوجيه الحصان الذي يجر العربة بين الطرق الفسـيحة إلى أن وصل إلـى سـاحة كبيـرة يتوسـطها تمثال ضخم مصنوع مـن الرخام والعاج لرجل بدا عليه الوقار ينظر نحو السماء تحيط به مجموعة من النوافير. حينها انعطفت العربة نحو طريق فرعي في اتجاه قصر كبير ذي واجهة رخامية بيضاء، لا يقل روعة عن الساحة التي كان يطل عليها.....

اقتـرب أحـد حـراس القصر من العربة التي توقفت عند مدخله، ثـم نطـق بجملـة بلغـة غريبة، فُهِمت على أنها دعـوة للوافدين الجدد بالدخـول، فكذلـك فعلـوا خلـف حارس آخر قادهم إلى بهو فسـيح، ومـن ثَـمّ إلـى قاعـة كبيرة سـقفها محفـوف بنقوش ذهبيـة ذات طابع إسلامي، وأرضها من رخام أزرق من شدة صفائه يكاد يوحي للناظر إليه بأنه بحيرة ماؤها شديد الصفاء!

- "هذا أعظم من قصر جدي السلطان." همس محمود إلى جدته التي كانت هي الأخرى مشدوهة بروعة المكان!

توقـف الحـارس أمـام نهاية القاعة بالقرب من عرش مرتفع عن الأرض، خلفـه بـاب مـن ذهـب. لم تمضِ لحظات حتـى فُتح الباب ليخرج منه الحاجب منادياً بلغة فهمها هذه المرة الوافدون الجدد:

- "مولاي الغازي بن مسعود، القائم بأمر مولانا حيدر الكاشف قـدس الله سـره." ثـم دخـل مـن البـاب رجل خمسـيني متوسـط القامـة، ذو بشـرة سـمراء تميـل إلـى البياض، وعينـان خضراوان بارزتان وكأنهما عينا صقر يبحث عن فريسة في أثناء تحليقه في السماء. خلف ذلك الرجل كان يسير قائد القافلة.

- " فتاة مغولية وشـاب فارسـي مع امرأة وشـاب من التُرك. يا لها من جمعة غريبة!" قال الغازي بن مسـعود وهو يجلس على العرش العاجي المرصع بالأحجار الكريمة.

بادرت نوران خاتون بالحديث بعد أن شعرت بأنه قد آن الأوان لكي تفصح عن هويتها.... فهذه البلاد في نهاية المطاف تقع في ملك زوجها السلطان، أو هكذا حسبت:

- "اسمح لي بأن أقدم لك نفسي. أنا...."

- "أعلـم مـن تكونيـن.... نـوران خاتـون زوجـة عـلاء الديـن محمد....."

- "السلطان علاء الدين محمد!" قاطعه محمود، غير راضٍ عن الطريقة التي ذكر بها جده دون لقب أو تعظيم.

- "وأنـت حفيـده محمـود بـن ممدود، وهذه عروسـك ابنة خان

المغول. لقد تعرف عليكم جميعاً قائد القافلة باستثناء هذا الفتى الفارسي، لعله خادمكم."

- "إن كان الأمر كذلك، فما معنى أسره لنا، واقتيادنا رغماً عنّا إلى هذا المكان؟!" سأل محمود وقد شعر بارتياح إذ عُرفت مكانته ومكانة جدته؛ ولكن ما إن كاد ينهي سؤاله حتى تلقى صفعة من الحاجب أسقطته على الأرض أمام دهشة نوران وياسمي ومحمد الطوسي!

- "عندما تخاطب مولاي الغازي بن مسعود، فعليك أن تخاطبه باحترام وتبجيل، بعد أن تستأذنه في الحديث." أضاف الحاجب بعد الصفعة.

- "دعه يا منصور، فهذا الفتى المتغطرس لا يعلم أنه خارج ملك جده الذي فر من بخارى خوفاً من المغول." قال الغازي بن مسعود باستهزاء، ثم التفت إلى نوران، وأشار بيده إلى قائد القافلة الذي كان على يساره واقفاً....

- "عليك أن تشكري هذا الرجل، فلولا أنه تعرف عليكم، لكنتم الآن بين الأموات."

- "أموات؟! لماذا؟!" بدا القلق جليّاً على نوران خاتون وهي تسأل سؤالاً خشيت من إجابته، خاصة بعد الذي جرى توّاً مع حفيدها.

- "لأنكم اعترضتم طريقه." أجاب بكل هدوء وكأنه يذكر أمراً بدهيّاً.

- "ولكننا لم نعترض طريق أحد.... هو الذي حاصرنا عند الواحة!"

- "وجودكم في الواحة هو اعتراض لطريقه."

لم تعلم نوران بماذا تجيبه، فالرجل كان يتحدث بمنطق غريب غير مفهوم لها! أخذت تنظر إلى رفقائها، وكأنها تطلب العون في مخاطبة هذا "المعتوه"!

- "سيدي..." حاول محمد الطوسي أن يأخذ بزمام الحديث....

- "يبدو وكأن هناك سوء تفاهم. فنحن كنا في طريقنا إلى غزنة بعدما فررنا من بخارى التي أسقطها المغول. أنا على ثقة بأنكم إن ساعدتمونا للوصول إلى هناك، فستنالون جزاءً عظيماً من الأمير جلال الدين منكبرتي أمير غزنة، وفاءً منه على مساعدتكم لأمه مولاتي نوران خاتون ولابن أخته الأمير محمود بن ممدود."

ما إن فرغ محمد من حديثه حتى أطلق الغازي بن مسعود ضحكة مدوية أسمعت أصداؤها كل من كان في القاعة الفسيحة وما حولها....

- "وماذا عنك أنت وحفيدة خان المغول؟" استمر في ضحكه قبل أن يكمل حديثه....

- "هل سيجزل لي أميرك العطاء عنكما أيضاً؟!.... انظر حولك جيداً يا فتى ثم أخبرني، هل تظنني في حاجة إلى عطاء الخوارزميين؟!"

- "ما الذي تريده منّا إذاً؟!" سألت ياسمي بحزم بعد أن فاض كيلها، ونفد صبرها من هذا "الهراء"!

- "عجيب! حتى الفتاة المغولية تريد أن تدلي بدلوها في هذا الحديث الشائق." قال الغازي مستهزئاً قبل أن يمسح آثار

الضحك من على وجهه ليُظهر ملامحه الصارمة من جديد....

- "أنتم الآن ملكي أنا الغازي بن مسعود، القائم على وادي القُنَّب بأمر مولانا حيدر الكاشف قدّس الله سره!"

- "مستحيل!" صرخت ياسمي....

- "ليس من حقك أن تفعل بنا هذا! نحن لسنا عبيداً ولن نذعن لك أبداً!"

استاء الحاجب من صراخ الفتاة وهمّ بلطمها كما فعل مع محمود، ولكن الغازي بن مسعود أشار إليه بالتريث، فأمسك ذراعه ولم يَهْوِ به واكتفى بقضم شفّته السفلى.

- "بل ستذعنون لي، ثقي من ذلك..... ستذعنون لي، بعدما يفرغ المُبَخِّرون من تأهيلكم، حتى تكونوا أهلاً للسُّكنة في وادي القُنَّب!"

9

"كيـف جـاؤوا بهـذه السـرعة؟! كيـف؟؟! كأنهـم يتعاملـون مع الجن! انتصار يعقبه انتصار دون أي مقاومة تذكر..... كيف يتغلبون علينا ونحن الخوارزميون الأشدّاء الذين لا تُقهر لهم جيوش؟!"....
كاد السـلطان عـلاء الديـن محمـد يجنّ، وهو يرى بـأم عينه من برج قلعـة سـمرقند جيـش جنكيز خان الجزّار الذي أخـذ يحاصر المدينة من جميع جوانبها! من أين جاء بكل هذه الأعداد؟! كيف وقد أسقط مدناً عدة مثل بخارى وأترار، وأبقى جزءاً من جيشه لإحكام القبضة على تلك المدن؟! مملكة خوارزم كانت تتسـاقط مُدنها، المدينة تلو الأخرى، كتساقط أوراق الخريف أمام "هؤلاء الهمج"! كيف؟!!.....

تسـاؤلات ظل السـلطان يسـألها لنفسـه دون أن يجد لها أجوبة تشفي الغليل. تساؤلات لم تزده سوى حيرة على الحيرة التي تملكته منذ سقوط أترار!

- "مـولاي، لـن تصمـد سـمرقند طويـلاً، وسـيكون حالها كحال بخارى من قبلها." أفصح الوزير نجم الدين كبلك عن مخاوفه، بعد أن شعر بأن الحال لم يعد يسمح بالمداهنة خاصة أن جنكيز خان قد أعلن أنه إذا لم تستسلم سمرقند، ويتم تسليم علاء الدين محمد له حيّاً حتى يتلقى العقاب الذي يستحقه من جرّاء ما فعله والي أترار بتجار المغول، وما فعله هو بالرسول الذي أرسله إليه، فسـيحرق المدينـة حرقـاً بعـد أن يُنزل جام غضبـه على الأهالي،

صغيرهم وكبيرهم!

- "وماذا تريدني أن أفعل أيها الوزير؟! أفرّ من سمرقند، كما فررت من بخارى؟!! هل تريدني أن أصبح طريداً في مملكتي؟!" صرخ السلطان بعد أن سلّ سيفه في وجه وزيره.

- "مولاي!!.... أنا خادمك المطيع! ولكني أخشى من الخيانة يا مولاي!"

- "لن يخون أبي إلّا الجبناء، وهؤلاء لا حاجة لنا بهم!" قاطع غياث الدين، الابن الأصغر للسلطان.....

- "نحن لدينا من المؤونة ما يكفينا سنة من الزمان؛ وحصون المدينة لا يمكن اختراقها من قبل المغول حتى لو جاؤوا بالجن معهم يحاربون!"

نظر السلطان إلى قائد الحصون، منتظراً منه المشورة.....

- "مولاي الأمير غياث الدين محق فيما قال، ولكن...." تردد القائد قليلاً قبل أن يكمل.

- "ولكن ماذا؟! أفصح!"

- "مولاي السلطان.... صمود سمرقند مرهون ب....." صمت مرة أخرى قائد الحصون، ولم يستطع إكمال جملته خشية سوء العاقبة إذا ما غضب منه السلطان!

- "قلت لك أفصح! صمود سمرقند مرهون بماذا؟!"

- "بصمودك أنت يا مولاي."

- "ويحك أيها المعتوه!" وثب غياث الدين نحو القائد، وقد

تطاير الشـرر من عينيه لِما سـمعه من وقاحة لا تعاقب إلّا بقطع الرأس!

- "على رسلك يا بني." قطع السلطان الطريق على ابنه.....

- "دع قائد حصون سمرقند يُفصح عمّا يدور في خاطره."

- "مـولاي.... المعـذرة، ولكـن هـذا ليـس برأيـي أنـا، معـاذ الله! شجاعتك يا مولاي لا تضاهيها شجاعة في هذا الكون! ولكن.... ولكن بعض أعيان المدينة يرددون الأقاويل التي تريب الأهالي، وهذا ما عنيته، إذ ربما تؤثر هذه الأقاويل المغرضة في معنويات العامة.... فمع الأسف يا مولاي، بعض التجار لا همّ لهم سوى بضائعهم وأموالهم بغض النظر عمّن يحكم المدينة، إن كان من المسلمين أو من الكفار أعداء الدين. مثل هؤلاء لا أمان لهم يا مولاي، وقد يُسَلِّمون سمرقند للمغول إن تَركتْها، كما جرى في بخارى."

نظر السـلطان إلى وزيره الذي لم يُعجبه ما قاله قائد الحصون، وبدا مرتبكاً بعض الشـيء، حيث كان يفضل الفرار من سـمرقند قبل فوات الأوان، كما فعلوا في بخارى....

- "أريدك أن تُصدر الأوامر إلى كبير العسس بأن يُطلق البصاصين في أرجاء المدينة لكي يعلم من هم الذين ينشرون تلك الشائعات عني، فيتم التعامل معهم بحزم، ودون رحمة أو هوادة! يجب على الجميع أن يدركوا أن بطشي لا يقل فظاعة عن بطش المغول!"

10

وكمـا ظهـر اختفى.... فجـأة ومن غير مقدمات، تاركاً ياسـمي ونـوران ومحمـود بـن ممـدود ومحمـد الطوسـي بمفردهـم ليلقـوا مصيرهـم..... "يـا لـه مـن رجل أناني ومُدَّعٍ! وهـل لوجوده أي قيمة أصـلاً بالنسـبة إلـي؟! بالطبـع لا، فحديثـه كان فقـط ألغـازاً لا معنـى لهـا، ولكـن مـا ذنـب هؤلاء الأربعة حتى يتركهـم؟! هل فرّ خوفاً من الأسْر؟!"

أمـور كثيـرة لم يفهمها مراد قطـز، ومنها هذا الاختفاء المفاجئ لعبدالرحمن عند الواحة. ولكنه لسـبب ما شـعر بشـيء من الارتياح لغيابـه. ربمـا لأنـه سـئم من كلامـه المبهم الذي كان دائماً ما يشـعره بمدى جهله، أو ربما لأنه شـعر بالملل من شـعوره المسـتمر بالعجز كلما رأى أفعاله العجيبة التي لم يفهم إلى الآن كيف يقوم بها! ولكن مـراد كان فـي قـرارة نفسـه يدرك جيداً أن أكثر الأسـباب التي جعلته يرغب في التخلص من وجود عبدالرحمن من حوله، هو عدم قدرته على الإجابة عن سـؤال ظل يراوده: ما الذي يريده ويهدف إليه هذا الرجل الغريب؟! الآن وقد ذهب عبدالرحمن، فلن يكون هناك مدعاة لهذا السؤال المحير... ولن يضطر لعصر ذهنه مرات ومرات من أجل الإجابة عنه!

* * *

شـعر مـراد بالأسـى، وهـو يرى هـذه الفتـاة المسـكينة تقع مرة

أخرى في الأسـر من قبل رجال القافلة، فمنذ أن جاءت إلى بخارى والمصائـب لا تـكاد تفارقهـا! تمنـى لـو كان بمقدوره فعل أي شـيء لمسـاعدتها..... لـو كان باسـتطاعته أن يذهـب إلـى أهلهـا المغـول ويتحـدث معهـم فيخبرهـم عمـا وقعت فيـه من محنة، ولكـن الواقع كان فارضاً نفسـه وبقوة، ولم يكن بمقدور مراد فعل أي شـيء غير أن يشاهد الأحداث وهي تتجلى أمامه..... العجز كان عنوان حالته. العجـز عـن التصـرف والعجز عن الحديث معها والعجز حتى عن أن يظهر نفسه مرة أخرى لها كما يظن أنه حدث أمام قلعة بخارى! سئم مراد من هذا الشعور المستمر بالعجز..... هذا الشعور الذي لم يبدأ فقـط منـذ أن وجـد نفسـه في هذا الزمان والمـكان، بل بدأ قبل ذلك بكثير.... "أو ربما عليّ أن أقول سيبدأ بعد قرون من الآن بعدما أولد." لم يتمالك إلا أن يضحك على حاله استهزاءً، وهو يبدي هذه الملاحظة الساخرة مع نفسه، فعن أي ماض أو أي مستقبل يتحدث، وقد فقدت هاتان الكلمتان معناهما بالنسبة إليه؟! حتى في هذه المسألة هو عاجز عن الفهم...... عجز يعقبه عجز..... ألهذا شعر بالتعاطف مع ياسمي؟ هل لأنها مثله عاجزة عن فعل أي شيء؟ يقال لها اذهبي إلى بخارى، فتذهب..... تزوجي من محمود بن ممدود، فتتزوج.... اذهبي إلى غزنة مع نوران خاتون، فتذهب، "ولكن مهلا..." أخذ يتنبه مـراد لأمـر: هـي التـي اختارت أن تذهب مع نـوران خاتون ومحمود بـن ممـدود إلـى غزنة. كان بإمكانها أن تذهب إلى أهلها المغول بعد دخولهم بخارى، ولكنها لم تفعل..... "نعم لم تفعل! لماذا؟! لماذا لم تتخلص من تلك المتاهة، وأقحمت نفسـها في هذا العناء؟!".... لـم يفهـم مـراد، وها هو ذا يشـعر مجدداً بالعجـز، وكأنه محتوم عليه ألا يتخلص من هذا الشعور البغيض!

لم يكن أمامه الآن سوى حل واحد: أن يستمر في المراقبة. فمن يدري، لعله تحدث انفراجة، ويحِلّ عنه ذلك الشعور.....

* * *

الصامتون..... هكذا أطلق مراد على أفراد القافلة الذين أسروا ياسمي ورفاقها، حيث لم يجد وصفاً أكثر ملاءمة يصفهم به غير هذا، وهم الذين يقتصدون في حديثهم إلى أقصى حد، وفي المرات القليلة التي استمع إليهم وهم يتحدثون، لم يفهم حديثهم..... شيء عجيب آخر انضم إلى قائمة العجائب التي لم يجد لها تفسيراً: لماذا استطاع أن يفهم لغة المغول والأتراك مع أنه لم يتعلمهما في يوم من الأيام، ولكنه عجز عن فهم هذه اللغة؟!

لكن قائمة العجائب هذه لم تتوقف عند هذا الحد، ودهشته وصلت إلى الذروة، وهو يشاهد هذا المشهد العجيب الذي لا يمكن له أن يكون! في هذه المدينة المختبئة في الوادي الكبير المستتر بين جبال بلاد الأفغان، شاهد مراد قطز المستحيل! درّاجات وأعمدة إضاءة كهربائية في مدينة هي أقرب إلى مدينة أوروبية بنهاية القرن التاسع عشر منها إلى مدينة في أوائل القرن الثالث عشر للميلاد!..... "مستحيل! ما هذا العبث؟!"...... لوهلة ظن مراد أنه ربما انتقل إلى زمن آخر كما حدث معه في سجن قلعة بخارى، عندما شاهد نفسه صغيراً مع أبيه في أوزبكستان، ولكن سرعان ما أزاح تلك الخاطرة عندما تيقن من وجود الأشخاص أنفسهم الذين رافقهم في الأيام الأخيرة. الشيء الوحيد الذي تغير هو فقط انتقالهم إلى هذا الوادي العجيب! وادي القُنَّب، كما سماه ذلك الحاكم، الغازي بن مسعود... "القائم بأمر مولانا حيدر الكاشف!".... عندما سمع اسم المكان تنبه على الفور إلى ماهية تلك الشجيرات التي رآها عند مدخل الوادي

وتلك الأزهار التي كانت متناثرة حولها: القُنَّب والخشخاش.... "هذا الوادي هو حقل كبير، بل كنز للحشيش والأفيون!" أدرك مراد..... "الصامتون هم تجار مخدرات القرن الثالث عشر، وهذا الحاكم المعتوه هو كبيرهم!" ولكن بقي السؤال الأهم: "كيف توصلت هذه المدينة إلى مخترعات من المفترض أنها لم تُخترع بعد؟! كيف أصبحت مدينة سابقة لعصرها بما لا يقل عن ستة قرون؟!"..... أسئلة كثيرة وإجابات شحيحة، وقائمة العجائب لا تريد أن تنقص، وكأنها كلما أضاف إليها تساؤلاً جديداً أو تعجباً آخر، ترد هي عليه سائلةً: "هل من مزيد؟!"

* * *

شعور بالعجز تملك مراد قطز، وجعله يشتاط غضباً، وهو يرى ياسمي ورفاقها يقتادون كالأغنام إلى درج في آخر القصر يقود إلى قبو عميق لا يعكس أي شيء من الثراء والرقي الذي بدا له في الأعلى!

وضعوا كل واحد منهم في زنزانة منفردة ثم جلبوا لهم شراباً غريباً يشبه القهوة، ولكن طعمه أكثر مرارة، كما بدا له لاحقاً من تعابير وجوههم عندما شربوه؛ في البداية رفضوا جميعهم شربه، ولكن أمام إصرار الحراس وتلويحهم باستخدام العنف، شربوه على مضض. بعد برهة من الوقت، لاحظ مراد أثراً غريباً بدأ يظهر على نوران ومحمود ومحمد، إذ بدأت تعتلي وجوههم نشوة، ثم أخذ كل واحد منهم يستلقي على أرض الزنزانة بارتياح شديد وكأنهم يستلقون على فراش وثير في حجرة نومٍ بديارهم! هذه الآثار لم تظهر على ياسمي، حتى إن الحارس المكلف بها أمعن النظر في الكوب الذي يحتوي الشراب للتأكد من أنه فارغ تماماً... لو لم تشرب منه أمامه

لظن أنها ألقت بمحتواه على أرض الزنزانة! خرج الحارس إلى زميل له، ومن طريقة حديثهما عرف مراد أن حال ياسمي الذي لم يطرأ عليه أي تغيير كان أمراً غير متوقع الحدوث، ما سبّب لهما ربكة شديدة، فخرج على إثره الحارس الأول مسرعاً إلى مكان آخر، ثم عاد حاملاً معه كوباً آخر من الشراب نفسه.

لم ترفض ياسمي شربه، إذ كانت على يقين بأن هذا لن يجديها نفعاً مع الإصرار الذي بدا واضحاً على الحارس وهو يناولها الكوب. بعد فراغها من الشراب، ظلّت على حالها باستثناء شعور بسيط بالنعاس..... لم يكن هذا هو الأثر المطلوب، كما بدا جليّاً من قلق الحارس الذي أخذ صوته يعلو في النقاش مع زميله. في تلك اللحظة دخل أربعة رجالٍ ملثمين حاملين معهم مباخر يخرج منها دخان كثيف، توجه كل واحد منهم إلى زنزانة، على إثر ذلك أخلى الحراس المكان على عجل، بمن فيهم الحارس المكلف بياسمي الذي ظل يلتفت خلفه مرات عدة باضطرابٍ شديد في أثناء توجهه للباب الواقع في آخر الممر.....

* * *

لم تلتفت ياسمي لما كان يرتله المُبَخِّر وسط الدخان الكثيف الذي ملأ زنزانتها، بقدر ما التفتت إلى الرائحة الأليفة التي شمّتها، والتي أخذت تعيدها إلى ذكرى قديمة مضت عليها السنون..... أخذت تشعر بالحالة العجيبة نفسها التي هي ما بين النعاس واليقظة. حالة لم تجد لها وصفاً في الماضي، ولم تجد لها وصفاً الآن، وهي تغوص فيها من جديد! أخذت دقات قلبها تتسارع، والخوف بدأ يملؤها من جديد، يزحف عليها كما يزحف الليل على النهار دون أن يكون بمقدورها فعل أي شيء لطرده من عالمها المحدود! شيئاً

فشـياً أخذت ترى أمامها ذلك الذي كانت تخشـاه، ذلك الذي ظلت تحاول إنكار رؤيته وهي تدرك جيداً أن إنكار رؤيته هو أشـبه بإنكار رؤية الظلام.... إنكار لا معنى له! ولكن هذه المرة بدا لها مختلفاً، وكأنه استبدل بظلمته شيئاً من النور، كما رأته أمام قلعة بخارى!

* * *

لم يصدق مراد هذا الذي كان يحدث أمامه!.....لقد رأته! نعم، لقـد رأتـه، ولـم يكـن متوهماً! لقد صدق حدسـه، ولم يكـن متوهماً عندما ظن أنها رأته أمام قلعة بخارى! وها هي تراه الآن مجدداً..... ولكن شـيئاً أزعجه؛ فنظرة ياسـمي له كان يملؤها الزعر؟! هذه الفتاة الشجاعة التي لا يُهيبها أي شيء، كانت تشعر الآن بالفزع!

- "لا تخافي، اسـمي مراد...." وجد نفسـه دون شـعور يتحدث معها في محاولة منه لطمأنتها، ولكنها ازدادت فزعاً لسماع صوته!

كانت الوحيدة في المكان القادرة على رؤيته. لم يكن ظاهراً لا للمبخرين ولا لباقي رفاق ياسمي.... فقط هي التي كانت تراه، بل تسـمعه أيضاً! الأمر لم يعد حكراً على عبدالرحمن، وهذا ما أسـعده أكثر.....

- "أرجـوكِ..... لا أدري كيـف حـدث هـذا، ولكنـي أرغب في التحدث معك."

نظرت إليه ياسـمي بحذر، متأملة هذا المشـهد الذي لم تتخيل أنها ستراه من جديد....

- "ماذا تريد مني؟! هل أرسلكَ إلي؟"
- "من تقصدين؟" سأل مراد مستعجباً.....
- "عبدالرحمن؟"

شعرت ياسمي بنفحة أمل تعتريها لسماع اسم عبدالرحمن، وإن كانت لم تقصده هو بسؤالها.....

- "هل تعرف عبدالرحمن؟ أين هو الآن؟! هل لديك علم؟"
- "نعم، أعرفه، ولكني لا أعلم ماذا حلّ به منذ كنّا في الواحة."

شيء ما جعل الفتاة تشعر بالمزيد من الريبة والذهول معاً؛ بدا ذلك على ملامح وجهها جليّاً.....

- "لماذا أرسلك إلي؟! ماذا يريد مني؟! أنت من المتواطئين معه، أنا على يقين من هذا؛ لا تحاول الإنكار والتظاهر بأنك على صلة بعبدالرحمن!" كان الذعر قد تمكن من ياسمي.
- "لا أدري عمن تتحدثين..... ثم إنك لم ترني قبل اليوم سوى مرة واحدة فقط: أمام قلعة بخارى عندما اقتادوك إلى السجن."
- "لا، بل رأيتك قبل ذلك! لا تحاول خداعي!"

رأته قبل ذلك؟! متى وكيف؟! شعر مراد وكأن الكون يتثاقل عليه... لقد رأته قبل ذلك، وكأنها تعرف من يكون! ما الذي تعرفه هذه الفتاة عنه؟! هل لديها إجابات عن تلك التساؤلات التي ظلت تحيره منذ أن حلّ به ما حلّ؟! تلك التساؤلات التي كانت تتكاثر على ذهنه، وتتوالد مع بزوغ شمس كل يوم جديد في هذا العالم المجنون الذي لا ينتمي إليه!

أراد أن يوجه لها بعض هذه التساؤلات، ولكن شيئاً ما أخذ يحدث لياسمي.... لوهلة لم ينتبه، ولكنه سرعان ما رآه: بدأ الدخان الكثيف ينحسر، وعاد الحراس إلى مواقعهم. أخرجوا نوران ومحمود ومحمد من زنازينهم ثم اقتادوهم دون عناء أو أي مقاومة تذكر إلى

درج القبو. لكن ياسـمي كانت على حال آخر؛ تقاوم بشراسـة منادية رفاقها الذين لم يردوا عليها أو حتى يعبؤوا بوجودها!

- "ياسـمي! أين رأيتِني من قبل؟! ياسـمي...." صرخ مراد في محاولة يائسـة منه للفت انتباهها من جديد، إذ شـعر بأن رؤيتها له قد باتت تنحسر.....

- "أرجوك جاوبيني، من أين تعرفينني.... ياسمي!"

ظل مراد يصرخ، مردداً المرة تلو الأخرى استجداءه للفتاة التي كانـت تُقتـاد إلـى مكان آخر بالقبو بعيداً عن رفاقها..... ظل يلاحقها دون أن يكف عن الصراخ بالسؤال نفسه: "من أين تعرفينني؟!"

ولكن ياسمي لم تجب، إذ لم تعد تسمعه أو تراه.....

11

بقدر ما حاول الكاهن الوصول إليها، إلّا أنها كانت عصية عليه في بادئ الأمر. لم تكن راغبة في التصديق، فعالمها أصبح ينظر إليه ولأمثالـه علـى أنهم جزء من خرافات الماضي وتخلفه، ولعلها تكون محقة في نظرتها هذه لِما حل بعلمه من اختزال واستبدال على أيادي الأفّاقين والمدّعين! هذا العلم الذي قضى جل حياته في جمعه إضافة إلى ما ورثه عن أجداده لم يكن كافياً لكي يحذرها منه، لأنها لم تكن متقبلـة لفكـرة وجـوده في عالمهـا؛ ولكن كل هذا تغيـر عندما بدأت تنضج بمفردها. عندما مرّت بتلك المرحلة المسماة بالبلوغ، وأصبح شـيئاً فشـيئاً النـوم يقـل، حتى تحولت الرؤى إلى عالـم اليقظة. باتت حينهـا تـدرك أن تبتنكـر ليس بوهم، بل هو الغائب الحاضر؛ هو جزء منهـا لا تسـتطيع التخلـص منه، وأنـه حقيقة في زمن أصبح فيه المرء متناقضاً مع نفسه، وبقدر ما توصل إليه من علم أمسى جاهلاً!

هنـاك حقيقـة تعلمها الكاهـن تبتنكر من خلال تجاربه وتجارب الآخرين التي دأب في تتبعها عبر جولاته خارج سـجن الجسـد: أن النصر وقوده الصبر، والصبر وقوده الزمن.....

وعندمـا يأتـي الأمـر إلى الزمن، فلا أحد كان يجيد التعامل معه أكثر منه!

* * *

– "كاد يقضـي عليـك ذلـك الغريب، ذو العمامة الخضراء." قال

تبتنكر مخاطباً حليفه السابق، بعد أن أصبح بمقدوره أن يراه على صورته، وليس بشكله الهلامي الداكن الذي كان يستتر وراءه حتى ذلك اللقاء المتفجر أمام قلعة بخارى.

- "كاد، ولكنه لم يستطع." أجابه بنبرة محذرة، وكأنه أراد أن ينذر الكاهن بقوته وقدرته.
- "أما آن الأوان لكي تخبرني من يكون ذلك الشخص؟"

أمعن المخلوق الداكن المسمى الكلب الشرس النظر إلى وجه الكاهن، في محاولة منه لقراءة إن كان هناك سؤال كامن وراء هذا السؤال الظاهر.....

- "أنت تعرفه جيداً، ولذلك قبلت التحالف معي من أجل القضاء عليه."
- "سؤالي ليس عن عبدالرحمن، بل عن الآخر الذي معه..... الذي حسبتني لن أراه."

إذاً ما كان يخشاه قد وقع، ورأى الكاهن مراداً..... ولكن هل استطاع أن يرى ما هو أهم من ذلك؟ هل استطاع أن يرى الصورة كاملة ويعيها؟ لم يرغب في المخاطرة والانتظار. كان عليه أن ينهي كل شيء الآن.....

- "أيها الكاهن العزيز، مع الأسف ما كنتُ أتمنى أن تصل الأمور بيننا إلى هذا الحد الذي اضطر فيه إلى القضاء عليك، ولكن ما كل ما يتمناه المرء يدركه." قالها بتهكم شديد وهو يلتف حول تبتنكر، ليحيطه بظلام يحجب الأنوار من حوله، مانعاً عنه الحياة.... ولكن الكاهن لم يقف ساكناً، وكأنه كان ينتظر

هـذه المباغتـة مـن حليفه السـابق، فمد ذراعيه إلـى جانبه، وكأنه يريـد احتضانـه، ثـم نطـق بكلمتين كانتا كل ما يحتـاج إليه ليتغير المشـهد، ويتبدل الحال، فيصبح الكلب الشـرس قاب قوسين أو أدنى من ألا يكون:

- "لقاء النقيضين!"

تحول المشهد من حولهما إلى زمن حان أوانه ولـم يحن، بمكان ما كان ينبغي للكاهن تبتنكر أن يعلمه... تونس... سـيدي بوزيد... شـارع الجمهوريـة... شـاب أسـمر نحيـل أصبح نادلاً فـي عالم هذا المخلوق الداكن!

- "كيف عرفت؟!"

أدرك الكلب الشرس أن أسوأ الاحتمالات قد تحقق، وأن الكاهن قـد تمكـن منـه! لقـد علم، ولم يكن أمامه سـوى خيـار واحد...... الفرار!

12

وجد يسوجي نفسه أمام أحد خيارين: إما أن يرسل فارساً ليتحرى الممر الذي انكشف أمامه بين الجبلين، أو أن يسيروا جميعاً فيه. الخيار لم يكن صعباً، فأمام المجهول الحَذر دائماً أوجب، وبذلك أمر أحد فرسانه بالمضي قدماً، على أن ينتظر هو مع باقي فرسانه عند مدخل الممر.....

لم يكن هناك طريق آخر يتبعه غير هذا، فآثار القافلة كانت واضحة بما لا يدع مجالاً للشك. من هنا دخلوا، ولكن السؤال: إلى أين ذهبوا؟ وهذا ما كان ينوي معرفته. فإما أن يعود الفارس بنبإٍ يقين، أو ألا يعود، فيعرف حينها أنه في نهاية الممر يكمن كمين. في كلتا الحالتين سيأتيه العلم.....

أخذ يسوجي يفكر في أثناء انتظاره، كيف أمست رحلة البحث هذه عن ياسمي أعقد مما كان ينبغي. لم يحسب أن أياماً عدة ستنقضي في مطاردتها، بدلاً من يومين أو ثلاثة على الأرجح كما كان يعتقد، حتى إنه خطر على باله أكثر من مرة أن يعود إلى مخيم تولويْ من أجل طلب المزيد من الرجال، ولكنه تراجع عن هذه الخاطرة، إذ لم يشأ أن يظهر بمظهر الضعف أمام سيده، فتهتز بذلك ثقته به. كان يسوجي يدرك جيداً أن كسب الثقة يستغرق سنين، ولكن هدمها قد لا يستغرق إلّا لحظات، ولم يكن هو على استعداد لكي يهدم الثقة التي اكتسبها عبر سنوات من خدمة ابن جنكيز خان ومراضاة زوجته

المسيحية عبر الصلاة كل يوم أمام الملأ لإله قاسي القلب، ضحى بابنه الوحيد في أبشع صورة من أجل إنقاذ أرواح العصاة! لذلك لم يكن أمام يسوجي سوى خيار واحد: أن يجد ياسمي، ويذبحها مع رفقائها الأربع، مكتفياً بما عنده من رجال.

* * *

مضت ساعتان قبل أن يعود الفارس ليخبر قائده عمّا وجده في نهاية الممر. لم يكن يسوجي سعيداً بما سمع، فقد ازداد الأمر تعقيداً!

- "لن نستطيع اختراق البوابة بعددنا هذا. نحن في حاجة إلى الخمس الآخرين الذين أرسلتهم ليستكشفوا طريق الغرب. اسرع إليهم بجوادك، ولا تتوقف حتى تلقاهم، وتعود بهم جميعاً!"

- "ولكن سيدي، حتى مع الخمسة فرسان الآخرين، سيبقى عددنا قليلاً، ولن نستطيع اقتحام هذا السور العظيم!"

- "ومن قال إننا سنلجأ إلى اقتحام السور. ألم تخبرني بأن له بوابة؟"

- "صحيح سيدي القائد."

- "وإنك متأكد أن أحداً لم يَرَك من فوق برج المراقبة؟"

- "نعم، سيدي القائد، أنا على يقين من ذلك."

- "إذاً كل ما نحتاج إليه فقط هو الانتظار، من دون أن يشعر بنا أحد، إلى أن تُفتح تلك البوابة فنتسلّل إلى الداخل من خلالها."

لم يكن يسوجي يعلم ما الذي يوجد على الطرف الآخر من السور، ولكنه كان على أتم استعداد لكي يكتشف الأمر من أجل إنهاء مهمته على أكمل وجه!

13

اقتـاد المُبَخِّـرُ ياسـمي إلـى حجـرة كبيرة في القبـو، على جميع جدرانهـا أرفـف مـن العقاقيـر والأعشـاب المصفوفة فـي مجموعات يتخللها بعض الكتب المجلدة، وعلى الرغم من أن الحجرة لا يوجد بها نوافذ لتدخل منها أشعة الشمس، إلّا أنها كانت مضاءة بشكل جيد من القناديل العجيبة نفسـها التي رأتها ياسـمي متناثرة بكل مكان في المدينة وداخل القصر.

- "أخبريني، ولا تخفي عني الحقيقة إن أردتِ لنفسك النجاة." أمسك المُبَخِّر بذراعي ياسمي، ناظراً إليها بتمعن....

- "أمن أهل الكشف أنتِ؟!"

- "عـمّ تتحـدث؟!" انتزعـت ياسـمي ذراعيهـا من يـدي الرجل، مبتعدة عنه بضع خطوات للوراء.

- "أنت لستِ كباقي رفقائك...." أخذ المُبَخِّر يدور حول الحجرة، وكأنه يحدث نفسه وليس الفتاة.....

- "مسحوق المِطْواع لم يُحدث فيك الأثر المنشود، بل كشف لك الحاجـب، مـع أن فيـه قـدراً قليلاً من الوَسْـكا، إلّا أنه كان كافياً لك..... هذا أمر عجيب، حقّاً عجيب.... لا يوجد غير تفسـير واحد لهذا.... نعم، هو فقط تفسير واحد لا ثاني له."

لوهلـة شـعرت ياسـمي بـأن الرجـل الـذي أمامهـا معتـوه هـو

الآخر مثل حاكم المدينة..... "هل جئنا إلى وادٍ لا يسكنه سوى المجانين؟!"..... ثم أخذت تفكر في الذي جرى لها منذ قليل في الزنزانة، فشعرت بخوف من أن تكون هي الأخرى قد بدأ يصيبها الجنون! وإلّا ما هذا الشيء الذي رأته وتحدثت معه؟! أوهام وتهيؤات؟! "هي حتماً كذلك!"

- "اسمعيني جيداً، وافعلي كما أقول لك بالحرف.... إن عَلِم الغازي بن مسعود بحقيقتك أو حتى شك في الأمر، فسيكون مصيرك للذئاب الجائعة لكي تنهش لحمك وأنت على قيد الحياة! نعم صحيح، هي عقوبة أسوأ من القتل..... لذلك عليك أن تتظاهري بأن المِطْواع قد أحدث فيك أثره المنشود. عليك أن تتظاهري بالخضوع التام والانصياع للأوامر التي ستتلقينها من حاجبه الكريه..... لكم أكرهه ذلك اللعين!"
- "لن أنصاع لأي أحد!" قاطعته ياسمي.

أطبق المُبَخِّر على ياسمي، فأمسك بذراعيها مرة أخرى.....

- "هل وعيتِ ما قلته لك قبل قليل؟!! إن كنت ترغبين في النجاة، فعليك أن تتصرفي كما شرحتُ لك حتى أجد طريقة لكي آخذك إلى مولانا حيدر الكاشف قدس الله سره..... نعم، أظنه سيرغب في لقائك، ولعلك تجدين عنده الخلاص."

لم تفهم ياسمي عمّا كان يتحدث هذا الرجل الذي بدا الذعر واضحاً في عينيه، ولكنها شعرت بالصدق في كلامه، مما جعلها تشعر بالمزيد من القلق!

- "والآن سيأخذك الحارس لكي تنضمي إلى الآخرين. حذارِ من أن تخبري أي شخص بما دار بيننا من حديث، ولا حتى رفاقك،

فهم ليسوا الآن على سابق عهدهم، فلن تجديهم كما تركتِهم. لا تثقي بأي أحد؛ حتى أنا لا تثقي بي إن جئتك لاحقاً بقول غير الذي سمعتِه مني قبل قليل...... هل فهمتِ؟.... أجيبيني أيتها الفتاة العنيدة، هل فهمتِ؟!"

- "نعم!.... لا!.... لا أدري!..." شعرت ياسمي بحيرة شديدة تعتريها، ولوهلة لم تعلم بماذا تجيبه عن سؤاله....

- "سأفعل ما أمرتني به، ولكني أريد أن أحصل لاحقاً على شرحٍ وافٍ لهذا الجنون الذي يحدث، سواء منك أو من مولاك الكاشف!"

أومأ المُبَخِّر برأسه، ثم نادى على الحارس الذي كان ينتظر بالخارج لكي يأخذ الفتاة إلى الحاجب مع باقي رفقائها....

- "لقد كانت في حاجة إلى جرعة مضاعفة مع بعض الإضافات البسيطة للمسحوق. أخبر الحاجب بأنها الآن على أتم الاستعداد، وسيجدها ورفقاؤها في غاية الانصياع."

* * *

لم تصدق ياسمي، وهي ترى الحال الذي أصبح عليه رفقاؤها، وخاصة محمود؛ فها هو ذا الفتى العنيد المكابر، وقد أصبح هادئاً مسالماً وفي غاية الخضوع للحاجب الذي حضر لكي يرى بأم عينيه ما طرأ على الوافدين الأربع. ظلت هي صامتة، تجاري نوران ومحمود ومحمد في خضوعهم وانصياعهم المريب، كما طلب منها ذلك الرجل في المعمل الذي بالقبو، من غير أن تعي ما هذا الذي كان يحدث أمامها، ولماذا أصبح رفقاؤها على هذا الحال العجيب، في حين أنها هي كما هي، لم يتغير فيها شيء باستثناء ذلك الذي

رأته بين الدخان الكثيف في الزنزانة!

أمر الحاجب أحد الحراس بأخذ نوران إلى وصيفة القصر، وأمر حارساً آخر بأخذ محمود ومحمد إلى كبير الخدم، ثم نظر إلى ياسمي مقترباً منها، وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة رضا....

- "أما هذه الفتاة الفاتنة،" قال وهو يلامس وجنتها بأنامله....
- "فسوف آخذها بنفسي إلى جناح الحريم، لكي يُهَيِّئوها لسيدي القائم، الغازي بن مسعود."

أرادت ياسمي في تلك اللحظة التي وضع فيها الحاجب أنامله على وجهها، أن تركله بركبتها في خصيتيه، ولكنها تمالكت نفسها، حتى لا يفتضح أمرها..... تذكرت ما قاله لها المبخر، بأن مصيرها سيكون للذئاب الجائعة إن علموا أنها لم تستجب لأثر ذلك الدخان الذي أطلقوه في الزنزانة، ولم تخضع كما الحال مع رفقائها؛ ولكن في الوقت نفسه، كانت قد اتخذت قراراً بأنها لن تسمح لذلك الحاكم المعتوه بأن يطأها حتى لو كلفها ذلك حياتها! لن يكون مصيرها كمصير جدتها بورته التي انتهكها خان قبيلة المركيت! فجدتها صبرت، وتحملت لإيمانها بأن زوجها تاموجين سيأتي وينقذها، وهذا الإيمان العميق بفارسها هو الذي أبقاها حية ومتماسكة إلى أن جاءتها الفرصة وأخذت بحقها من ذلك الخان القذر! أما هي، فلا يوجد هناك فارس يبحث عنها، ولا زوجها بقادرٍ على إنقاذها، بل هو الذي في حاجة إلى من ينقذه...... لذلك اتخذت ياسمي قرارًا بأنه إن لم يأتِ ذلك الرجل الليلة كما وعدها لكي يأخذها إلى مولاه حيدر الكاشف، فليكن مصيرها الذئاب الجائعة...... "فالموت

عندي أهون من أن أكون دمية لذلك الحاكم المعتوه!"

* * *

دخل الليل بسكونه المعتاد، وخفّت الأقدام على ردهات القصر العظيم، دون يأتي المُبَخِّر كما وعد ياسمي! مع مرور الساعة تلو الأخرى، كان أملها في الخلاص من براثن شهوة الغازي بن مسعود يتقلص، حتى أصبحت على يقين بأنه لا فرار من المواجهة! لقد بلغت المهانة مداها، ولم تعد قادرة على التحمل! أرادت أن تمحو من على وجهها آثار تلك المساحيق من كحلٍ وحمرة الشفاه وألوان فاقعة تحت حاجبيها وعلى وجنتيها وضعتها جارية، في أثناء ما كانت جارية أخرى تصفف لها شعرها وجارية ثالثة تقلم أظافر أصابع كفيها وقدميها؛ كل هذا من أجل تهيئتها لسيدهن الذي يحب أن تكون محظيته في كامل زينتها، عندما يدخل عليها في الحجرة الأرجوانية المخصصة للسهر والسمر مع آخر الوافدات إلى قصره العتيق.

بدأت الجواري في الخروج من الحجرة، إلّا واحدة منهن كانت تتلكع بعض الشيء بحجة أنها فقدت حلقاً من حلقانها، فأخذت تبحث عنه؛ استمرت في بحثها هذا بين الزرابي وتحت الأرائك، حتى خرجت الأخريات، ثم فجأة انطلقت نحو ياسمي على عجل قبل أن يدخل عليها أي شخص غير مرغوب فيه، ودسّت في جيبها قنينة صغيرة بها سائل شفاف يشبه الماء......

- "يقول لك جُلّاب: ضعي محتوى هذه القنينة في شراب القائم، عندما يأتي إليك، واحذري أن يراك وإلّا لن تكون العاقبة طيبة! حينها لن يكون بمقدوره فعل أي شيء." قالت الجارية بلهفة، وهي تعاود النظر خلفها المرة تلو الأخرى.

- "جُلّاب؟" تساءلت ياسمي بوجه حائر.

- "الُمبَخَّر يا مولاتي." أجابت الجارية، ثم ركضت نحو الباب بعد أن سمعت صوت الغازي بن مسعود خارج الحجرة، فأدركت أنه على وشك الدخول.....

- "مولاي." طأطأت رأسها متظاهرة بالخجل في أثناء انصرافها إلى الخارج، بعد أن سبقها القائم وفتح الباب قبل أن تصل هي إليه.

نظر إليها باستياء لوجودها حتى الآن في حجرة محظية هذه الليلة....

- "جارية بلهاء." قال بصوت مسموع وهي تغلق الباب من خلفها، ثم اتجه إلى فريسة هذا المساء مملوءاً بالشغف بعد أن استعد قبل مجيئه بتناول خلطة الفحولة التي أعدها له طبيبه الخاص، وإن كان النظر إليها وهي في أوج زينتها داخل ثوب كاشف عن مفاتنها، كفيلاً بتحريك الساكن فيه دون الحاجة إلى أي عقار!

- "يقال إن الرجل إذا تذوق طعم المرأة المغولية، فلا تشبعه أي امرأة أخرى بعد ذلك." قال وهو يشتم رائحة شعرها الأسود الكثيف، بعد أن لفّ وصلات منه بين أنامله، مُقرِّباً إياها إلى وجهه.

رغبت ياسمي في تلك اللحظة أن تقذف بالقنينة الصغيرة في منخاره الكريه، ولكنها تماسكت، متظاهرة بالخضوع، كما نصحها جُلّاب المُبَخَّر، في انتظار اللحظة السانحة لكي تضع له السائل الشفاف في نبيذ العنب الذي أُعد خصيصاً لهذه الليلة.....

- "مولاي يرغب في تناول الشراب؟" دون انتظار الإجابة ذهبت لتسكب له النبيذ في الكوب مع محتوى القنينة الصغيرة دون أن ينتبه.

ابتسم الغازي بن مسعود، مزهوّاً لهذا الخضوع الذي أبدته حفيدة

جنكيز خان له..... تناول الكأس من يدها، وقد بلغ الشغف أشده لمفاتنها التي بدت صارخة أمامه.... شرب النبيذ في جرعة واحدة ثم ألقى بالكوب على الأرض قبل أن ينهال على محظيته الجديدة ليُفرغ فيها شهوته الجامحة.....

حاولت ياسمي الامتناع عنه متظاهرة بالتدلل لكي لا يفتضح أمرها، ما زاد من رغبة الغازي بن مسعود في النيل منها، حتى وجدت نفسها فوق الفراش منزوعة ثيابها أمام ثور هائج يوشك أن ينقضّ عليها!.... "أهذا هو مفعول السائل؟! تباً لك أيتها الجارية، أنت وذلك الأفّاق جُلّاب!!".... انتاب ياسمي شعور عميق بأنها قد خُدعت من أجل إشباع شهوات سيدهما! ولكنها لم تكن على استعداد لكي تسلم نفسها له حتى يطأها، فيكفيه ما ناله منها حتى الآن! نظرت حولها بشغف لتبحث عن شيء تستطيع استخدامه لكبح جماح القائم، وفي تلك اللحظة التي أدارت فيها وجهها للبحث، شعرت بالفراش يهتز بقوة، وكأن شيئاً ارتطم به! من دون تفكير أدارت وجهها نحو الغازي بن مسعود، وإذ به ساقط على الفراش، في سبات عميق!

* * *

فتحت ياسمي باب الحجرة على حذر، غير متأكدة مما ستجد بالخارج في انتظارها، بعد أن تركت القائم خلفها طريح الفراش. كل ما قالته لها الجارية هو أن تضع محتوى القنينة الصغيرة في شرابه، ولكن لا شيء بعد ذلك. لم تكن تعلم ياسمي إن كان من المفترض أن تبقى داخل الحجرة حتى يأتيها أحد، ولكنها شعرت بالاختناق داخل تلك الحجرة "اللعينة" فلم تحتمل البقاء فيها أكثر من ذلك. أرادت أن تبتعد عن ذلك "المعتوه" الذي حاول قبل قليل أن ينتهكها!

كان الليل قد انتصف، وأغلب من في القصر نائمون، لذلك

لم تستغرب عندما وجدت الردهة خاوية وأضواؤها خافتة. تحركت قليلاً دون أن تعلم إلى أين تسير، فقط أرادت الابتعاد عن الحجرة. شعرت بثقل في جفونها ورعشة خفيفة بدأت تتمكن من شفتها السفلى، ولوهلة تسربت دمعتان خلسة من عينيها سرعان ما أزاحتهما بكفيها قبل أن تجدا الطريق إلى وجنتيها..... "لن يتمكن مني هذا المكان ولا أي أحد فيه، فأنا ياسمي بنت جوشي بن جنكيز خان ملك ملوك الأرض! أنا زوجة محمود بن ممدود حفيد سلطان خوارزم! لن يتمكن مني هذا المكان!"..... ظلت تردد مع نفسها، مانعة دموعها من الانهمار.

بعد دقائق عدة من الدوران في الردهة الفسيحة، توقفت ياسمي بجانب نافذة تطل على حديقة القصر. أخذت تتأمل السماء والقمر الذي كان بدراً يتوسطها. لسبب ما تذكرت تلك الجارية التي أمر السلطان بقتلها في بخارى، ورؤيتها لها بعد موتها..... "حلاجة"، لن تنسى اسمها أبداً، ولا حتى تلك الأبيات التي كانت ترددها: "**أيها السائل أين منك السؤال..... أفي الدنيا تسير أم في عالم الخيال..... سهرتَ الليل كثيراً والعيون لا تنام..... تبحث عن شيء تجده منك بعيد المنال.... إن كان القلب عارفاً فما باله حيران.... وإن كان العقل باحثاً فلمَ هو عن الحق رحال؟**"

أفي الدنيا تسير أم في عالم الخيال؟ شعرت ياسمي وكأن هذا السؤال قد أخذ يطرح نفسه عليها مؤخراً أكثر من مرة، وفي كل الأحوال وجدت صعوبة كبيرة في الإجابة عنه! فالفاصل بين الواقع والخيال لم يعد واضحاً، مثله مثل المستقبل الذي لم يعد هو الآخر واضحاً لها!

* * *

- "سيدتي، من هنا." جاء صوت الجارية، التي أعطتها القنينة، منادياً بجانب ممرٍّ صغير عند آخر الردهة. لوهلة لم تنتبه ياسمي لمصدر النداء الذي بدا خافتاً بعض الشيء، ولكنها تنبهت لليد التي كانت تُلَوِّح لها من بعيد...... "يد الخلاص!"
- "لم أكن أعلم ما الذي كان يجب علي فعله بعد أن وضعت السائل في شراب القائم." قالت ياسمي بلهفة شديدة، عندما اقتربت من الجارية.
- "عذراً، كنت سأخبرك بملاقاتي هنا، لولا أني فوجئت بمجيء مولاي الغازي بن مسعود مبكراً.... لم أرَه شغوفاً بأحد كشغفه بك." ابتسمت الجارية قبل أن تكمل....
- "هيّا بنا، فجُلّاب ينتظرك."
- "مهلاً.... هل تثقين به؟" سألت ياسمي بحذر.
- "جُلّاب؟! طبعاً أثق به، فمن مثله في هذه المدينة؟ هو أطيب وأنبغ أتباع مولانا حيدر الكاشف قدس الله سره."
- "من هو هذا حيدر الكاشف الذي دائماً يذكره الجميع؟!"
- "لا وقت لكثرة الأسئلة الآن. علينا أن نذهب قبل أن يرانا أحد، فيشك في أمرنا."

تبِعت ياسمي الجارية إلى درجٍ بآخر الممر يؤدي إلى المطبخ في الطابق الأرضي، ثم إلى درجٍ آخر يؤدي إلى قبو بالجانب الآخر من القصر يفتح على نفقٍ طويل مضاء يقود إلى مدخل آخر للمعمل الذي أخذها إليه جُلّاب المُبَخِّر سابقاً، وهو نفسه الذي كان ينتظرها فيه.

- "من هنا." نادى جُلَّاب من الجانب الآخر من المعمل، عند

باب موارب...

- "مولانا ينتظر."

- "هل بإمكاني أن أذهب معكما. أريد أن أقابل مولانا، قدس الله سره، وأُقَبِّل يده المباركة." ألحَّت الجارية كما يلح الطفل على أبيه من أجل شراء قطعة من الحلوى.

- "نور!"

- "حسناً.... ولكن بَلِّغ، على الأقل، سلامي لمولانا." قالت بتغنج ثم أضافت، واضعة يدها على خده....

- "وانتبه إلى نفسك، وأنت تعيد الفتاة. سأنتظرك عند الممر حتى تأتي بها."

أخذ جُلّاب ياسمي عبر عدة دهاليز خاوية في القبو إلى درج يعلوه برج كبير. في وسط الدرج كان صندوق خشبي يتسع لثلاثة أشخاص أو أكثر، مربوط بحبال وجنازير عدة إلى الأعلى. دخل جُلَّاب فيه، ثم أشار إلى الفتاة لكي تتبعه.

- "ما هذا الشيء؟" تساءلت ياسمي وهي تسير خلفه بحذر، دون أن تتلقى إجابة منه؛ وما أن دخلت في الصندوق الخشبي، حتى بدأ يهتز صاعداً إلى الأعلى بعد أن دفع جُلَّاب بمقبضٍ فضي إلى الأمام!

ظلت ياسمي طوال رحلة الصعود التي لم تدم طويلاً، شاخصة عينيها، لا تنبس ببنت شفة، حتى وصل الصندوق إلى الأعلى فتوقف، فقفزت على الفور منه إلى الخارج.....

- "كيف فعلت هذا؟! كيف جعلت الصندوق يطير؟! أساحراً أنت

أم سيداً للجن؟!!"

- "بـل أعظـم مـن هـذا وذاك. أنا تابع مولانا حيدر الكاشـف قدس الله سـره." أجابها باعتزازٍ حرص على إظهاره لها، ثم ذهب إلى بابٍ مغلق، وقرع عليه ثلاث مرات. بعد برهة قصيرة من الوقت، جـاء صـوت من الداخل يأذن لـه بالولوج، على إثره فتح جُلّاب الباب ثم أشار لياسمي لكي تتبعه، قائلاً:

- "استعدي لمقابلة أعظم من وطئ هذه الأرض بقدميه، مولانا حيدر الكاشف، قدس الله سره!"

14

إن كان هناك للعجب عنوان، فلن يبعد كثيراً عن هذه القاعة المهولة، خماسية الأضلاع، التي دخلتها ياسمي مع جُلَّاب. لم يكن مصدر العجب محصوراً في كم الكتب والمجلدات المصفوفة على الأرفف في الحيطان، أو في الأقفاص المملوءة بعدد من الحيوانات الصغيرة والزواحف ومختلف الحشرات، أو حتى في الأجهزة الغريبة التي تناثرت حول القاعة في كل مكان، أو كمّ العقاقير والأعشاب..... أو... أو... أو... فكل هذا كان كفيلاً بإدهاش ياسمي عشرة أعمار فوق عمرها الحالي؛ ولكن منظر صاحب المكان بلحيته الكثيفة البيضاء كبياض الثلج، وهيئته المهيبة تحت القبة التي كانت تعلو القاعة، ناظراً إليها بعينيه الواسعتين يتفحصها، كما يتفحص النسر فريسته من فوق السحاب، كل هذا كان في حد ذاته باعثاً للدهشة والعجب! فلو كان من الممكن لآلهة الأساطير الذين قرأت عنهم في كتب الإغريق والرومان أن تتجسد، لتجسدت في هيئة ذلك الشيخ الذي لم تُنقصه سنوات عمره المديدة وسامة أو قوة بنيان.

- "مولانا، هذه هي الفتاة التي حدثتكم عنها." صَرَّح جُلَّاب، بعدما أقبل مسرعاً نحو شيخه مُقَبِّلاً يده اليمنى.

أشار حيدر الكاشف للفتاة المغولية بالاقتراب، ثم أومأ للمبُبَخِّر بالانصراف....

اقتربت ياسمي منه حتى أصبحت على مسافة ذراع، ودون أن

ينطق بحرف وضع الشيخ كفه على رأسها دون أن تفهم لماذا فعل هذا الفعل الغريب. في بادئ الأمر أرادت أن تزيل كفه، ولكن شيئاً ما في هيئته الوقورة وملامح وجهه الساكنة جعلها لا تفعل ذلك، بل لأول مرة منذ أن وجدت نفسها محاطة برجال القافلة عند الواحة، شعرت بشيء من الارتياح على الرغم من غرابة المكان وصاحبه الذي تنبهت فجأة عند التمعن في وجهه بأنه يحمل ملامح التمثال الضخم الذي رأته في وسط الميدان الكبير أمام القصر.

- "جُلّاب محق. أنت من أهل الكشف." قال بصوت هادئ، وكأنه كان يحدث نفسه، وليس الفتاة.

- "ماذا تقصد؟ ومن هم أهل الكشف؟!" لم تكن نبرة ياسمي بالهدوء نفسه، إذ شعرت بالشغف لمعرفة القصد من وراء هذه الصفة التي تكررت على مسمعها أكثر من مرة في يوم واحد.....

- "هذا يفسر لماذا لم تتأثر بمسحوق المِطْواع كباقي رفقائك.... ولكن قدراتك لا تزال محدودة، لا تزال في بداياتها.... لم ينقطع عنك النوم بعد." استمر حيدر الكاشف في حديثه دون الالتفات إلى سؤال الفتاة....

- "الأمر المثير للدهشة أن قدراً قليلاً من الوَسْكا في المسحوق جعلك تختلسين النظر إلى العالم المحجوب، بل وتتحدثين مع أحد سكانه."

- "ما هذا الذي تتحدث عنه؟!" سألت ياسمي مُزيحة رأسها من تحت كفه، متراجعة بضع خطوات عن صاحب القاعة الذي بادر هو بالاقتراب منها هذه المرة، مادّاً يده لمصافحتها.

- "أذكر، عندما كنت في مثل سنك منذ زمن بعيد، أني كدت أجنّ من كثرة الأسئلة التي أخذت تعصف بذهني عندما بدأت أكتشف الحياة من منظور مغاير للذي نشأت عليه. لكم أرهقتني سنوات البحث، حتى تمنيت لو كان حالي كحال العامة: راضياً بجهلي... مُرتاحاً بقلة علمي؛ ولكن أمثالنا لا يقدرون على الحياة كالخرفان، فنحـن مجبولـون علـى البحـث من أجل المعرفة؛ لا نسـتطيع أن نحيا حياة لا نفهمها، ولذلك من أجل الإجابة عن سـؤال واحد فقط، نحن مسـتعدون لكي ندفع أبهظ الأثمان.... حياتنا ليسـت بالسهلة، ولذلك لا يقدر عليها سوى خاصة الخاصة؛ وأنت أيتها الفتاة، شئت أم أبيت، من هؤلاء الخاصة."

- "الخاصـة..." ردّدت ياسـمي فـي حيـرة مـن أمرهـا، ثم ظلت صامتة برهة من الوقت متأملة الشـيخ الذي أمامها، وما قاله منذ قليـل..... هـل تصدقـه؟ أم أن كلماته كانت مجرد تُرهات شـيخ عجوز يتحدث عن أمورٍ لا وجود لها؟! ولكنها رأت بنفسها، بل رأت أكثر من مرة..... رأت هذا العالم المحجوب الذي يتحدث عنه!

- "سحر هذا أم كهانة؟"

- "لا هذا ولا ذاك." أجابها حيدر الكاشف.....

- "بـل هـو أمـر أعظـم من ذلك بكثير.... هو العلم الذي يقود إلى المعرفة."

- "معرفة ماذا؟"

- "معرفة كل ما يمكن له أن يُعْرَف."

معرفة كل ما يمكن له أن يُعْرَف؟! استوقفت ياسمي تلك العبارة وأسلوب الرجل في الحديث الذي كان أشبه بأسلوب عبدالرحمن.

- "ما زلت لا أفهم أي شيء مما تقول! فما علاقة العلم والمعرفة بهذا العالم المحجوب الذي رأيتُه؟ وأي عالم يكون هذا؟ أهو عالم الأرواح؟!"

- "لا.... ليس بعالم الأرواح، بل عالم آخر يخص الإنسان..... عالم الذي كان والذي هو كائن وكل ما يمكن له أن يكون."

هزّت ياسمي رأسها بعد أن عقدت حاجبيها من الحيرة، باعثة للشيخ الذي أمامها إشارة واضحة لم تكن في حاجة إلى التصديق باللسان، بأنها لم تعقل أي شيء مما قاله.

- "قُصِّي علي ما رأيتِه اليوم، فربما في استرجاع الحدث يتضح لك المعنى."

- "أقصّ عليك ماذا، إن كنت أنا نفسي غير متيقنة مما حدث؟!" أجابته ياسمي بنبرة شابَها الخوف والقلق.

رَبَت حيدر الكاشف على كتف الفتاة، ثم أخذ يتحرك ببطء نحو منضدة يعلوها أرفف من العقاقير....

- "كما حدثتك من قبل، عندما كنت في مثل عمرك، مررت بأيام عصيبة جعلتني أشك في نفسي وفي الكون من حولي، خاصة عندما بدأت أكتشف وجهاً آخر للحياة لم يكن مألوفاً لدي؛ ولكني سرعان ما أدركت الحقيقة التي جعلتني أشعر بالراحة والطمأنينة: أن روعة هذا الكون تكمن في غرائبه وأسراره التي هي في متناول يدِ أي إنسان، بشرط أن يكون راغبًا بصدق للتوصل إلى الحقيقة، ولا شيء غير الحقيقة، مهما كانت هذه

الحقيقـة مؤلمـة..... أنت تعلمين جيـداً ما الذي رأيتِه اليوم. قد لا تستطيعين الآن تفسيره لأنه أمر غير مألوف لدى عامة البشر. لذلك عليك بالخطوة الأولى، وهي أن تدركي أنك لستِ كعامة البشـر، وأنـك لـن تسـتطيعي أن تكونـي كعامة البشـر، حتى وإن رغبت في ذلك. عليك أن تتقبلي حقيقتك وألا تخافي أو تخجلي منها. العالم الذي نشأت فيه، وترينه من حولك، ما هو إلّا نقطة في بحر، ولكن أغلب الناس لا يرون شـيئاً سـواه، معتقدين من جهلهم أن لا شيء غيره موجود. هم يدّعون كذباً أنهم مؤمنون بوجود حياة أخرى بعد الممات وبعوالم الجن والملائكة، ولكن في حقيقة الأمر هم لا يؤمنون سـوى بشـيء واحد فقط: الحياة التـي يَحْيونهـا، لأنهـم لا يرون غيرها؛ فالإنسـان عُوِّد منذ صغره بألا يصدق إلّا ما يراه ولا شيء سواه....."

أمسك حيدر الكاشف بصندوق صغير، ثم أخرج منه عشبة جافة بنية اللون، ووضعها في إناء به ماء، ثم وضع الإناء فوق سطح معدني صغير يعلو شعلة نار تخرج من أنبوب حديدي.

- "الذي اكتشـفته عبر سـنوات بحثي أن العالم المحجوب ليس دائماً محجوباً. هناك من رآه دون أن يدرك بأنه قد رآه، في أثناء النـوم مثـلاً؛ وهنـاك فئة من البشـر تسـتطيع رؤيته متى ما شـاءت باستخدام المُسَهِّلات، وبعض هؤلاء يستطيعون الرؤية فقط وقلة قليلة منهم تستطيع التفاعل أيضاً؛ ولكن الأعظم من هؤلاء جميعاً، هم الذين ليسوا في حاجة للمُسَهِّلات من أجل الدخول إلى العالم المحجوب متى ما شـاؤوا وأينما شـاؤوا. ينتقلون إليه كما ينتقل المـرء مـن حجـرة إلى أخرى مجاورة. أنا شـخصيّاً لم التقِ أحداً من هؤلاء، وإن كنت قد سمعت عن وجودهم..... قد تتساءلين:

وما علاقتك أنتِ بكل هذا؟ أجيبك بأن المسحوق الذي استخدمه معك جُلّاب أحد مكوناته هذه العشبة التي أخرجتها من الصندوق، اسمها الوَسْكا. هذه العشبة هي المُسَهِّل الرئيس الذي يستخدم من قبل العارفين للدخول إلى العالم المحجوب، ولكن بكميات أكثر بكثير مما كان مستخدماً في مسحوق المِطواع..... وهنا يكمن اللغز المحير: كيف استطعتِ بكمّ ضئيل من الوَسْكا أن تخترقي العالم المحجوب؟"

وجّه حيدر الكاشف سؤاله إلى ياسمي، ثم اتجه نحوها بعد أن صبّ جزءاً من محتوى الإناء، بعد غليانه، في الكوب؛ ولكن الفتاة لم تستطع الإجابة عن السؤال، مكتفية فقط برفع حاجبيها في حيرة ممّا سمعته تواً من هذا الشيخ.

- "لم أتوقع منك إجابة عن السؤال، لذلك سوف نخوض أنا وأنت رحلة استكشاف من أجل معرفة الحقيقة." ناول حيدر الكاشف الكوب لياسمي ثم اتجه نحو المنضدة فصبّ ما تبقى من السائل في كوب آخر، ثم أمسك كمية من العشبة الجافة التي في الصندوق وخلطها في إناء بمسحوق آخر لزج كان بجوارها، ثم وضع ذلك الإناء على الشعلة. لم تمضِ لحظات حتى بدأ يخرج دخان كثيف ذو رائحة عطرة من الإناء. توجه حيدر الكاشف مرة أخرى نحو ياسمي وفي يده الكوب الآخر الذي يحتوي على السائل نفسه الذي ناولها إياه قبل قليل....

- "والآن لم يتبقَّ لنا إلا أن نتجرع محتوى هذا الكوب، وبعدها سنكتشف سويّاً ما خفي عنّا!"

15

ما هي إلّا لحظات.... بل لحظات قليلة، ويكتشف مراد قطز إن كان هذا الشيخ صادقاً فيما ادعاه! هل سيستطيع الدخول مع ياسمي إلـى عالمـه الكئيب؟ وهل سيسـتطيعان رؤيته والتحـدث معه؟! "أين كنـت يـا حيدر الكاشـف منذ زمن؟! لماذا لـم تكن أنت الذي التقيته عندما وجدت نفسي في هذا الحال، وليس عبدالرحمن؟!"

امتـلأ مـراد بشـحنات من الأمـل، بعدما ظن أن اليـأس هو خياره الوحيـد. هـذا العالـم الجليـل الـذي لم يسـمع به من قبـل، وكأنه ضاع بين غياهب التاريخ هو ومنجزاته العجيبة السابقة لعصرها، أصبح أحب الناس إلى قلبه بعدما بعث في نفسه الأمل من جديد...... "مولانا حيدر الكاشف عظم الله سره! ويا له من سر هذا الذي كان يحتكره!"....

لم يسـمع مراد قط عن عشـبة اسـمها الوشْـكا أو عن مسـحوق يُمكِّـن بعـض النـاس مـن أن يـروا عالمـاً محجوباً! بل لـم يكن يظن أصلاً بوجود عالم كهذا يخص الإنسان، كما وصفه حيدر الكاشف. أيختلف هذا عن عالم الأرواح؟ أم أنه الشيء نفسه ولكن باسم آخر؟ ولكن كل هذا لا يهم الآن. ما كان يهمه هو هل ستتمكن ياسمي من رؤيته مجدداً لكي تجيبه عن بعض تسـاؤلاته؟ وهل سيسـتطيع حيدر الكاشف هو الآخر رؤيته والتحدث معه كما كان يفعل عبدالرحمن؟! إن كان مـراد فـي حالتـه الراهنـة ينتمي إلى ذلـك العالم المحجوب، وهذا الشـيخ العالِم يحتكم على سرٍّ اختراقه، فالإجابة عن السـؤالين

يجب أن تكون بنعم! لحظات.... فقط لحظات، ومراد كان ينتظر. رأى الدخان الكثيف وهو يملأ القاعة، ثم السعال الشديد الذي تمكن من ياسمي، في حين ظل حيدر الكاشف واقفاً في مكانه بجوار الفتاة دون أن يحدث فيه الدخان الأثر نفسه، بل كان يستنشقه كما يستنشق المرء الهواء النقي..... لحظات، أخذ مراد يفكر، ما هي إلّا لحظات، ويتبين له كل شيء!

* * *

- "أنت!" شعرت ياسمي بالخوف، وهي ترى ذلك الشبح الذي رأته مرات عدة من قبل، آخرها في صباح هذا اليوم في الزنزانة...... ولكن ياسمي لم تكن بمفردها الآن، فشخص آخر معها كان بمقدوره أن يراه!

- "نعم أنا، مراد.... أرجوكما أنا في حاجة للمساعدة لكي أتخلص من هذا الوضع الذي وجدت نفسي فيه!"

ساد الصمت برهة من الوقت. ياسمي لم تنطق من الذهول، بسبب هذا الحال العجيب الذي وجدت نفسها عليه، وكأنها دخلت إلى عالم ليس من المفترض على الإنسان أن يدخله، في حين ظل حيدر الكاشف يمعن النظر في هذا المخلوق الذي عرّف نفسه بمراد، متأملاً كل كلمة نطق بها..... ولكن هذا الصمت لم يدم طويلاً.

- "من أين تعرفينه؟" سأل حيدر الكاشف بهدوء شديد، مخاطباً ياسمي التي بدا عليها الانزعاج بشكل واضح.

- "لا أدري..... لا أدري إن كان هو أو غيره أو.... لماذا بتّ أراه كما رأيت الجارية حلاجة؟! لماذا أصبحت تطاردني أرواح المقتولين؟!"

شعر مراد بالذهول ممّا سمعه توّاً من ياسمي....

- "أرواح المقتولين؟! أهذا هو حالي، روح شخص مقتول؟!"
- "كلّا، أنت شيء آخر ليس له وصف عندي." أجاب حيدر الكاشف عن السؤال ببرود قبل أن يلتفت مرة أخرى إلى ياسمي.....
- "أريدك أنت تخبريني عن أول مرة رأيت فيها تلك الأرواح التي تظنين أنك رأيتِها."

بدا لمراد وكأن الشيخ العالِم مهتم بالفتاة المغولية أكثر من اهتمامه به هو.... "ما هذا الهراء؟! أوليس وضعي أنا هو المثير للدهشة!!"

- "لماذا تصر على تذكيري بأمور حاولت أن أنساها طوال هذه السنين! أمور جلبت علي لعنة الكاهن تِبْتِنْكَر، وأبعدتني عن أناس كانوا في يوم من الأيام هم أهلي الذين أحببتهم وأحبوني؟!"
- "لأن في المعرفة الخلاص..... تذكري يا فتاة أن من لا يقوى على مواجهة نفسه، لا يقوى على مواجهة الحياة."

صمتت ياسمي قليلاً قبل أن تستجمع قواها لتجيب عن سؤال حيدر الكاشف.....

- "رأيته منذ سنوات في خيمة الكاهن تبتنكر. رأيته بشكله الآخر الداكن.... المُظلم، وليتني لم أرَه!"

رأته منذ سنوات، بشكله الداكن المُظلم، وفي خيمة كاهن! "عمّ تتحدث هذه الفتاة المجنونة؟!" أخذ يتساءل مراد.....

- "ولكنك لم تَرَني قبل اليوم إلا في بخارى، أمام القلعة في اليوم الذي قُبض عليك فيه مع باقي أفراد قافلة المغول." صحح مراد.

- "بل رأيتك قبل تلك المرة في بخارى، ولكن.... ولكن ليس بشكلك الحالي.... في المرة السابقة كان شيء فيك مختلفاً.... كنت تميل إلى الظُّلمة!" أصرت ياسمي.

- "عن أي شكل آخر تتحدثين؟! أنا ليس لي سوى شكل واحد!!" صرخ مراد وقد فاض به الكيل من هذا الهراء!

- "وهذا الشكل الآخر له، متى آخر مرة رأيتِه؟" سأل حيدر الكاشف محافظاً على هدوئه الوقور، متحرياً أمراً أراد التأكد منه.

ترددت ياسمي قليلاً قبل أن تجيب.....

- "أمام.... أمام قلعة بخارى أيضاً.... في الوقت نفسه الذي رأيته على هيئته هذه لأول مرة.... وكأنه.... وكأنه كان منقسماً إلى شطرين!"

ذُهل مراد ممّا سمعه توّاً! لقد كانت ياسمي تتحدث عن ذلك المخلوق الداكن الذي حاول القضاء عليه، وكاد يفعل لولا تدخل عبدالرحمن! الذي قتل قائد قافلة المغول بلمس صدره وهم على مشارف أترار!...... "مستحيل!"..... فجأة تذكر أمراً كان قد حيّره عندما رأى ذلك المخلوق الداكن لأول مرة في القافلة. لقد أظهر له وجهه في أثناء قتل الفارس المغولي، وبدا له ذلك الوجه مألوفاً! بل مألوفاً أكثر ممّا ينبغي!

* * *

قص مراد لحيدر الكاشف وياسمي ما جرى له من أحداث أدت للحال الذي أصبح عليه. لم يترك شيئاً أسعفته ذاكرته إلّا رواه لهما، مع الكثير من الشرح لبعض المصطلحات التي لم تفهما ياسمي

على الأخص. ولكن بَقِيَت مشكلة الذاكرة التي لم تذهب بعيداً إلى الماضي، حيث توقفت عند ذلك اليوم المشؤوم الذي حضر فيه فجراً إلى المستشفى ("البامیرستان"، اضطر مراد لأن يشرح) الجامعة ("مكان يدرس فيه طلبة العلوم والمعارف بمختلف أنواعها") بجدة ("ميناء مدينة مكة الذي سيصبح مركزا تجاريّاً مهمّاً في دولة لم تنشأ بعد") والتقى هديل في مكتبه قبل أن يدخل عليهما زوج أختها وجيه ذكري، وما أعقب ذلك من أحداث أرغمته على الاستقالة من الجامعة...... لم تفهم ياسمي كثيراً مما قاله؛ فعلى الرغم من ذكائها الحاد، إلّا أن تفاصيل حياة يومية تجري بعد ثمانية قرون، فاق قدرتها على الاستيعاب...... صندوق حديدي بعجلات يدخله الناس ويسير من غير دابة تجُرّه! وآخر صغير بحجم الكف يُمَكِّن صاحبه من محادثة أناس ومشاهدتهم يبعدون عنه بآلاف الأميال! طائر حديدي يحمل مئات البشر فوق السحاب باستطاعته أن يقطع المسافة بين أترار وبخارى في ساعات قليلة! فبالرغم من فطنتها، إلّا أنها لم تستطع استيعاب هذا الذي حكى عنه مراد، فما وصَفه كان أقرب إلى السحر وعالم المعجزات..... ولكن حيدر الكاشف بخلاف الفتاة المغولية، لم يكن دَهِشاً ممّا سمع، بل حافظ على رزانته وهدوئه ولم يبدُ عليه أي أثر للتعجب، حتى إن مراد شك في أن الشيخ العالم لربما شاهد هذه الأشياء من قبل، ولكنه تساءل مع نفسه: هل شاهدها من خلال تجواله في العالم المحجوب باستخدام هذا المسحوق المصنوع من الوَسْكا، أم أنه هو الآخر ينتمي إلى ذلك الزمان مثله ومثل عبدالرحمن؟!

ثلاثة أمور أثارت اهتمام حيدر الكاشف من كل الذي سمعه: ذلك الرجل الذي يُدْعى عبدالرحمن؛ وعدم قدرة مراد على الرجوع

بذاكرتـه إلـى مـا قبل حادثة الجامعة، باسـتثناء ما رآه في أثناء وجوده فـي سـجن قلعـة بخـارى من أحداثٍ كانـت إلى تلـك اللحظة مغيبة عـن ذاكرتـه، جمعتـه صغيـراً مـع أبيـه؛ وأخيـراً، رؤية ياسـمي له مع ذلـك المخلـوق الآخر من غير مسـهلات أمـام قلعة بخارى للحظات قليلـة..... هـذه الأمور الثلاثة ظل يسـأل عنها تفصيلاً دون الإفصاح عن السـبب، وإن اكتفى فقط بالقول إن هناك رابطاً ما يجمع ما بين هذه الأمور الثلاثة، ولكنه غير متأكدٍ منه بعد.

- "حتـى يكتمـل المشـهد لا بد من اسـتكمال الذاكـرة." ظل حيدر الكاشف يكرر.

ولكـن مـا الـذي كان يجب عليه أن يفعله لكي يتذكر؟! أراد أن يسـأل مـراد، فالأمـر لم يكـن بيده! فكم من مرة حاول ولم يسـتطع. حتى الكيفية التي اسـتطاع بها أن يرى ذلك الماضي البعيد مع أبيه، لـم تكن معلومة لديه. هي حدثت هكذا من غير سبب، أو على الأقل من غير سـبب يعلمه، حالها كحال أمور كثيرة أخرى جرت دون أن يدرك لها سبباً.

- "لـن يقـدر المـرء علـى فهـم الكون من حوله إن لم يسـتطع فهم نفسه أولاً." قال حيدر الكاشف وكأنه فطن لسؤال مراد دون أن يسمعه، فأجاب عنه.

- "ومن قال إنني لا أفهم نفسي؟!" صرخ مراد، وقد سئم من سماع مثل هذه العبارات التي ظل يرددها عبدالرحمن في السـابق قبل أن يختفي.....

- "لعـل المشـكلة تكمـن فـي هذه العبارات التي تُـردد من غير أن يكـون لهـا أي معنـى واضـح، وكأنهـا ألغاز! بل لعـل قائل هذه

العبارات هو أول من لا يدرك معانيها، ولكنه يتشدق على الآخرين بترديدها ليُظهر حكمته!..... حسبتك غير عبدالرحمن! حسبتك قادراً على مساعدتي، ولكنك مثله لا تزيدني إلّا حيرة!"

- "حدثني عن هذه العبارات التي تقول إنها لا تحمل أي معنى. لقد قلتَ قبل قليل وأنتَ تقُص علينا ما جرى لك: إنك سمعت صوتاً، بدا لك مألوفاً، ينطق بعبارة عجيبة في أثناء سقوطك من ذلك المبنى. هل تذكر تلك العبارة؟" خاطب الشيخ مرادًا بشكل تلقائي دون أن يكترث كثيراً لهيجانه، وكأنه تنبه فجأة لأمر كان قد فاته.

- "لا أذكرها على وجه التحديد." أجاب بعد لحظة صمت لم تدم طويلاً، شعر خلالها بعبثية هذا الحوار....

- "هي عبارة لا تحمل أي معنى، مجرد كلمات. لعلي توهمتها، ولعلي لم أتوهمها.... لم أعد أدري إن كان هناك فارق بين الأمرين!"

- "حاول أن تتذكر، ولا تستهن بقدرة الكلمة على إحداث العجائب! فهذا الكون قد نشأ من كلمة." أصّر حيدر الكاشف.

- "على أي حال كانت العبارة تتعلق بما سيكون، وبما سيزول....."

- "ما من شيء سيكون إلّا وقد كان. ما من شيء سيزول إلاّ وقد زال..." قاطعت ياسمي شاخصة عينيها، مرددةً العبارة التي تعرف إليها مراد على الفور!

- "نعم هي! ولكن كيف عرفتِ؟!"

- "لقد شاهدتُ تلك العبارة في خيمة الكاهن تبتنكر في ذلك

اليـوم الـذي رأيـت فيه وجهك الآخر! وشـعرت بهـا الآن وأنت تشير إليها!"

لم يفهم مراد قصد ياسمي.....

- "كيف يمكن للكلمات أن تُشاهد؟ هي فقط تُسمع!"

- "ولكني شاهدتها! لا أعرف كيف، ولكن هذا ما جرى، عندما اكتملت العبارة: ما من شـيء سـيكون إلّا وقد كان. ما من شـيء سـيزول إلّا وقـد زال. كأن اليـوم قد جـاء بالأمس، وكأن الأمس سيجيء غداً...."

مـا مـن قائمـة للعجائـب يمكن لها أن تحتوي على شـيء كهذا الذي كان يشاهده مراد مشدوهًا في تلك اللحظة! شيء يفوق الوصف هذا الذي كان يحدث أمامه.... كلمات تتجسـد من حوله! تتشـكل كقطع متجانسة لتتخذ لها شكلاً يستطيع رؤيته، ومعنى يستطيع فهمه! كل ما كان عليه أن يفعل هو فقط أن يختار...... أن يختار رؤية ما حُجب عنه طوال السنين الماضية..... كان عليه أن يختار إما طريق العلم الذي يقود إلى المعرفة، أو أن يظل في جهله راكناً، يتخبط بين أسـوار الظـلام.... كان عليـه أن يختار، ويتحمـل نتيجة اختياره مهما كانـت هـذه النتيجة قاسـية ومؤلمة..... كان عليـه أن يختار، وكذلك فعـل! فـي تلـك اللحظـة قرر مراد قطز أن يختار، فتجسـد أمامه ذلك الاختيار.......

16

تحول المشهد لمنزل صغير من طابقين بحي السلامة في مدينة جدة. في غرفة نوم متواضعة بالطابق الأول كان راقداً فتى في أوائل سنوات المراهقة، وبجانبه على طرف السرير جلس رجل ثلاثيني يطالع ميزان الحرارة الذي أزاله من فم الفتى..... تعرف مراد قطز على نفسه صغيراً وعلى أبيه، لا لأن مخزون ذاكرته كان يحتوي على هذا المشهد القديم، بل لأنه سبق وشاهدهما في رؤيته السابقة التي أخذته إلى أوزبكستان بعد سقوط الاتحاد السوفيتي، عندما كان الفتى وأبوه في زيارة لأهلهما الذين بقوا في بخارى، ولمقام قطز بجنوب مدينة أترار أو ما تبقى منها.

- "ثمانية وثلاثون ونصف..... الحمد لله، بدأت الحرارة تنخفض." قال طارق قطز مخاطباً ابنه، قبل أن يضع ميزان الحرارة على الطاولة الجانبية.

- "كان نفسي أحضر ندوتك الليلة." تمنى الفتى مراد، مُظهراً خيبة الأمل.

- "ولا يِهِمَّك. بُكره أَسَوّيلك ندوة خاصة هنا في البيت، ولو أني ما أعتقد بأنه في شيء جديد حتسمعه مختلفاً عمّ أردده دائماً، بعدين الأهم من الندوة هو أنك تتعافى علشان تجهز لاختبار السات بعد كم يوم. الجامعات اللي زَيّ هارفارد وبرنستون

بتطلب درجات كبيرة يا بطل."

- "اختبار السات هاده لعب عيال."

- "يا واد ياللي واثق من نفسه." نغز طارق قطز ابنه ثم أضاف مبتسماً:

- "الثقة الزايدة هادي ترى ممكن تضرّك. أنت مانْتَ العبقري الوحيد في العالم، ماهو بس عشانك أصغر طالب يتخرج من الثانوية الأمريكية في جدة، تقوم تِكَبِّر رأسك علينا."

استمر الأب في مشاكسة ابنه حتى لا يشعر بالحسرة على عدم حضور الندوة التي ظل يُحَضّر لها طوال الأسبوع لأهميتها. كانت أول مرة في إثنينية الخواجة يتم استضافته كمتحدث رسمي، فكانت فرصة هائلة لكي يتحدث عن كتابه الذي سيصدر قريباً حول الفيلسوف المسلم الذي اكتشفه عبر مراجعة العديد من المخطوطات القديمة، التي لم يسبق لأي أحد غيره من قبل أن نقَّحها، في أثناء تحضيره للدكتوراة بجامعة هارفارد.

- "أنا خارجة الآن. احتمال أتأخر...... كيف حرارة مراد؟"

ظهرتْ على عجلٍ عند الباب، دون أن تدخل الغرفة، امرأة سمراء ذات ملامح جميلة وقوام رشيق. بدت في كامل زينتها أصغر من عمرها الحقيقي الذي تجاوز الثلاثين بقليل. أخذت تسند يداً على هيكل الباب، وبيدها الأخرى حاولت تعديل حذائها ذي الكعب الطويل، حول قدمها.

- "على فين؟" سأل طارق زوجتَه دَهِشاً.

- "مواعدة صحباتي..... قلت لك الصباح إني مرتبطة الليلة. شكلك نسيت." أجابت وهي تعافر مع الفردة الأخرى للحذاء.

- "ومراد ابنك؟! مين حيجلس معاه ينتبه له؟"

- "ليش أنت فين رايح؟"

- "منال! عندي الندوة الليلة!"

- "آه.... نسيت.... صحيح قلت لي أمس. على أي حال الشغّالة موجودة، وبعدين مراد كبير ما هو صغير، يقدر يأخذ باله من نفسه..... أوكِ باي، اتأخرت."

وكما ظهرت منال على عجل، انطلقت على عجل......

* * *

استيقظ طارق قطز على صراخ قادم من غرفة مراد. لم تكن هذه المرة الأولى التي يستيقظ فيها على صراخ ابنه في منتصف الليل، وإن كان الحدث قد أخذ يتكرر كثيراً في الآونة الأخيرة..... ذهب طارق إلى غرفة نوم مراد، وبعده بقليل تبعته منال صاعدة من الطابق الأرضي حيث كانت تتحدث على الهاتف عندما سمعت صراخ ابنها، فاضطّرت إلى قطع المكالمة على مضض.....

- "من يوم ما جيتوا من الرحلة المشؤومة لأوزبكستان وهو على هذا الحال!"

- "إيش علاقة هذه بهذه."

فتح طارق باب غرفة النوم، ليجد مراداً واقفاً بقرب سريره، شاخصاً عينيه نحو الحائط.....

- "مراد.... إيش فيه حبيبي، سلامات ليش الصراخ؟!"

- "صوتك جاب لآخر الشارع! أزعجت الجيران!"

- "منال،" قاطع طارق زوجته.....

- "ليش ما تروحي حبيبتي ترتاحي، وأنا حأتولى هذه المسألة."

اقترب طارق من مراد بعد مغادرة منال للمكان، ثم وضع ذراعه حول كتفه.....

- "نفس الكابوس؟"

أومأ مراد بنعم، إجابة عن سؤال أبيه، ثم أضاف:

- "كأني كنت موجوداً هناك.... ما كأنه مجرد حلم. الغرفة هذه للحظة تحولت لمكان آخر."

- "ارتاح حبيبي، واستعذ من الشيطان.... خليني أروح أجبلك مويَه تشربها."

استلقى مراد على سريره، وقبل أن يأتي والده بالماء، كان قد استغرق في النوم مرة أخرى من شدة التعب، وكأنه كان في رحلة شاقة، فأراد أن يرتاح بعدها.

* * *

لم تكن منال بعيدة عن الحق، عندما ربطت الكوابيس التي بدأ ابنها يعانيها، بزيارته لأوزبكستان مع أبيه. ولكن ما لم تكن تعلمه، أن هذه الكوابيس بدأت تحديداً بعد زيارة مقام قطز في شرق البلاد. حتى زوجها طارق، لم يلتفت إلى تلك الجزئية إلى أن نبّهته أمه ذات يوم، عندما أخبرها بمآل ابنه مع النوم، عندما زارها في بيتها بمكة مع مراد، ولاحظت هي بفطنتها آثار النوم المتقطع على جفون حفيدها المتراخية، والهالات السود التي بدأت تظهر تحتها. لم تكن مثل هذه الملاحظات الدقيقة بأمر جديد على آلاء قطز، فقد اشتهرت منذ صغرها بذكائها الحاد الذي كان يفوق ذكاء جميع أقرانها، حتى إنها أصبحت حديث مدينة مكة، بعدما حفظت القرآن كاملاً وهي

لاتـزال ابنـة السـبعة أعـوام؛ وعلى الرغم مـن أن آلاء لم تحظَ بتعليم جامعي أو حتى مدرسـي متقدم، لعدم توافره للنسـاء في تلك الحقبة من الزمن، إلّا أنها كانت شديدة الحرص على تلقي العلم مباشرة من جدها أحمد، أول من هاجر إلى مكة من عائلة قطز، فكانت هي أنبغ من تتلمذ على يدي العالم الجليل، ولولا جِنسها لحُمِّلت لواء عِلمه وطريقته التي شـارفت على الاندثار مع مرور السـنين، لقلة الطالبين للعلم من الطلبة الأكِفّاء.

- "أخبرني عمّا تراه في تلك الأحلام يا مراد."
- "لا أدري كيف أصفها لك يا جدتي.... مشاهد كثيرة تتنقل بي من مكان لآخر وكأني في سيمْيوليتَر."
- "في ماذا؟!"
- "هذه يا أمي عبارة عن جهاز محاكاة يدخله الشخص، فَتُعَيِّشها في واقع افتراضي.... هذا الذي قصده مراد." قاطع طارق موضحاً معنى الكلمة التي لم تفهمها أمه.
- "آه.... أنتم شـباب هذه الأيام، تتحدثون بلغة لا أفقهها..... على أي حال، أكمل ما كنت تقوله لي يا مراد."
- "القصد يا جدتي أني كل مرة أشعر، وكأني موجود فعلاً في المـكان، ولكـن مـن غير ما يسـتطيع أي أحد أنه يشـوفني.... ما أعـرف كيـف أصـف لك بشـكل أفضل، بس ما كأنـه حلم؛ كأنه واقع ولكن بشكل مختلف."

تنهدت الجدة، وهي تضع يدها اليمنى على رأس مراد....

- "لا تنسَ قراءة المعوذات وآية الكرسي كل ليلة قبل أن تنام، وإن

شاء الله ربنا يحفظك يا حبيبي." صمتت قليلاً، ثم أدارت وجهها نحو طارق لتسأله عن حاله وعن منال.....

- "وكيفها مراتك؟ لم أرَها منذ مدة."
- "بخير.... بتسلم عليك. معلش ما قدرت تجي اليوم معانا؛ تعبانة شُوَيّا." أجابها، شاعراً بشيء من الخجل.
- "سلمات ليها. ما تشوف شر..... بالمناسبة، كيف كتابك اللي حدثتني عنه، متى سيصدر؟"
- "قريباً إن شاء الله؛ الآن في مرحلة التنقيح النهائي."
- "والله يا ابني، أنا خايفة عليك من موضوع هذا الكتاب. يعني لم تجد غير واصل بن غيلان المتهم بالزندقة؟ أنا خائفة أن تتهم بمحاولة الترويج للمعتزلة ولأفكارهم. أنت عارف كيف علماؤنا ينظرون لهذه النوعية من الأفكار."
- "يا أمي، هذا كتاب علمي، وليس الهدف منه الترويج لأي فكر، وبعدين المعتزلة في نهاية المطاف هم فرقة مسلمة لهم إيجابياتهم ولهم سلبياتهم، ومع ذلك واصل بن غيلان لم يكن منتمياً لهم أو لغيرهم من الفرق، هو كان فيلسوفاً مستقلاً بأرائه؛ يبحث عن الحقيقة أينما كانت، ولعلمك هو اختلف مع المعتزلة في أحد أهم أصولهم الخمسة: فيما يخص مرتكب الكبيرة، هو لا يراه كما يراه المعتزلة بأنه يقع في منزلة بين الكفر والإيمان. طب إيش رأيك يا أمي أنه في هذه المسألة يتفق مع رأي السلفيين بأن الإيمان يزيد وينقص. يزيد بالطاعات وينقص بالمعاصي." تحمس طارق في حديثه، فليس دائماً تأتيه الفرصة لنقاش موضوع كتابه، خاصة

أن زوجته منال ليس لها أدنى اهتمام بهذه الموضوعات....

- "وللمعلومية مسألة اتهامه بالزندقة هذه تهمة لُفِّقت له لأسباب سياسية بحتة، كما كان الحال مع الكثير من الشخصيات من قبله ومن بعده. وفي حالته هو، تم تلفيق هذه التهمة لأنه كان يقول إن الإنسان هو من يختار قدره، وبالتالي من حقه أن يختار من يحكمه وليس الأمر كما كان يُرَوَّج منذ زمن الأمويين بأن الإنسان مجبر على حاله، وليس من حقه الاعتراض وإلّا فهو يعترض على مشيئة الله. واصل بن غيلان كان يرى أن هذا الفكر هو من ترويج المستبدين لكي يبرروا استبدادهم، وهو يتنافى مع العدل الإلهي. طبعاً هذا الكلام لم يعجب حكام ذلك الزمان، فتم تلفيق له التهم: أنه يؤلب الناس ضد السلطان والعلماء، وأنه يخالف قول السلف الصالح، وأنه يستهزئ بالدين، وأنه يقول بأقوال الفرق الضالة، وأنه زنديق خارج عن الدين..... والعامة يا أمي مع الأسف تصدق كل ما يشاع."

- "الناس يا ولدي، في بلاد المسلمين لديهم وازع ديني بالفطرة؛ لا تلمهم."

- "بل ألومهم، لأن الوازع الديني المخلوط بالجهل يُؤَدي إلى الكوارث!" ما إن فرغ طارق من جملته بحماسته المعهودة، كلما تحدث في هذا الموضوع، حتى سمع ما لم يخطر على باله من ابنه....

- "شفت واصل بن غيلان وهو يُصلب، وكمان شفت تلميذه محمد الطوسي عندما بكى عليه."

لم يستوعب طارق في بادئ الأمر ما قاله ابنه؛ فكيف علم مراد

بأمر محمد الطوسي؟! هذه المعلومة لم تكن معروفة، بل هي أحد أهم مكتشفاته من مراجعة مخطوطات مكتبة جامعة هارفارد، وكان ينوي الكشف عنها لأول مرة في كتابه، لتكون المفاجأة في الأروقة العلمية بأن آخر تلامذة واصل بن غيلان هو الفيلسوف والعالم المشهور محمد بن محمد الطوسي، الملقب من قبل محبيه بنصير الدين! كيف علم مراد بهذا الأمر، ولم يطلعه لا هو ولا أي أحد غيره بهذا الاكتشاف؟!

- "مراد أنت فتحت لابتوبي من ورائي؟" كان السؤال المنطقي الذي لم يجد طارق له بديلاً.
- "لا طبعاً يا بابا؛ لابتوبك عليه باسوورد، وأنت دائماً تغيره."
- "إذاً كيف عرفت أن محمد الطوسي كان تلميذ واصل بن غيلان؟"
- "من الحلم."

صمت طارق، وأخذ يتأمل ما قاله ابنه، ثم بعد برهة طلب منه أن يُحضر له ماءً من المطبخ.....

- "المسألة ليست مجرد كوابيس." قال طارق مخاطباً أمه، بعد خروج مراد من المجلس.
- "ماذا تقصد؟" تساءلت آلاء قطز، في حيرة ممّا سمعته من حوار قبل قليل بين ابنها وحفيدها.
- "لا أدري.... ولكن المسألة ليست مجرد كوابيس أو أحلام. مراد ليس على ما يرام!"

* * *

بدأ طارق يهتم بتفاصيل رؤى ابنه؛ يدونها كما يقصها عليه، حتى

أصبح مع الأيام يمتلك صفحات من الأحداث التي تجوب المكان والزمان. الأمر كان مدهشاً بكل ما تحمله الكلمة من معنى. كمّ التفاصيل ودقتها، أمر لم يستطع أن يجد له تعليلاً منطقيّاً! فمن غير الممكن أن يكون قد قرأ عن كل هذه الأمور في الكتب أو شاهدها في التلفاز، إلّا إذا كان يفعل هذا على مدار الساعة كل يوم في الأسبوع، وهو ما لم يكن يحصل في الواقع. بل بعض تلك التفاصيل التي ذكرها مراد لم تكن حتى موجودة في الكتب والمراجع التاريخية، فكيف عرفها هو؟! هل كان يختلقها بمخيلته؟! ولكنه لم يختلق أمر محمد الطوسي، وأخذه العلم عن واصل بن غيلان! هل شاهد إذاً هذه الأحداث بطريقة ما عجيبة؟! ولكن كيف؟! فمثل هذه الأمور مستحيلة!

أخذ طارق يبحث عن تفسير لما كان يحدث لمراد، ما جعله ينشغل أكثر عن زوجته التي كانت هي بدورها قد بدأت تنشغل عنه وعن ابنهما بحياتها الاجتماعية التي كانت تجد فيها متعة تفتقدها في بيتها وتعوضها عن الجفاء الذي أخذت تشعر به منذ سنوات، بعدما عادت من أمريكا التي قضت فيها ما يقرب من السبع سنوات مع طارق في أثناء تحضيره الماجستير ثم الدكتوراة، درست هي في أثنائها تصميم الأزياء. لم يكن زوجها سعيداً بهذا التخصص الذي اختارته، ولكن هذا هو ما أرادته؛ فقد كان حلمها منذ الصغر أن تصبح مصممة أزياء شهيرة، مثل كوكو شانيل وكارولينا هيريرا. كانت منال على قناعة بأنه لكي يتحقق حلمها هذا، لا بد من دخول أروقة سيدات المجتمع الجدّاوي، فلا شيء يُعَوِّض في السعودية عن العلاقات الاجتماعية من أجل تحقيق النجاح السريع والكبير في المشروعات التجارية، وخاصة تلك التي تتعلق بجمال المرأة وأناقتها؛ وكانت أيضاً في حاجة إلى شريك يمتلك المال الذي تفتقده هي،

من أجل إنشاء مشغل مرموق تمارس فيه عملها بشكل احترافي، وهذا ما وجدته في شخص سوسن ذكري، سليلة الأسرة الجدّاوية العريقة ذات المال الوفير، التي أصبحت شريكتها وإحدى أعز صديقاتها.....

* * *

لم يحرص مراد على السلام على سوسن عندما دخل إلى المنزل، ولمحها مع أمه في غرفة المعيشة. لم يكن معجباً بها، بل كان يشعر دائماً بعدم الارتياح لها؛ ربما كان يشعر بالغيرة منها، ومن علاقتها الوطيدة بأمه؛ تلك العلاقة التي جعلته يشعر في أحيان كثيرة بأنها أقوى من علاقته هو بها..... وربما الخلافات الآخذة في الازدياد في الآونة الأخيرة بين أبيه وأمه، وربطه إيّاها بدخول سوسن في حياتهم، جعلته يحمل في نفسه من صديقة أمه الثرية. أيّاً كان السبب، فلم يشعر مراد بالارتياح لتلك المرأة المتعجرفة، التي كانت لا تتوانى في انتقاد أي شيء لا يتماشى مع مفهومها هي للحياة السعيدة التي يجب أن تحياها صديقتها منال....

- "مراد! كِدَه تعدي من غير ما تسلم عليّا؟!" نادت سوسن بعد أن لمحت ابن صديقتها وهو يصعد الدرج.

أقبل مراد على مضض، مادّاً يده للمصافحة، ولكنه وجد نفسه وقد اجتُذب إلى الأريكة، وبشكل مباغت طُبِعت قبلةٌ على خده.....

- "مبروك القبول في جامعة برنستون. يا عيني على الوسامة والعبقرية، أنا ما شفت كده!"

لم يجبها مراد، واكتفى بابتسامة مصطنعة.

- "الناس إيش يقولوا لمّا أحد يبارك لهم؟!" نظرت إليه منال شاخصة عينيها.

- "الله يبارك فيك يا أبلة سوسن." غصب مراد نفسه على القول.
- "إيش أبلة هذه؟! أنت كام فاكر عمري؟! سوسن بس، من غير أبلة." قالت بتغنج مصطنع، ثم سرعان ما انتبهت إلى أمر جعلها تضيف على الفور، مخاطبة صديقتها:
- "يعني كان لازم تتجوزي وتخلفي بدري كده؟! اللي يشوف مراد يقول عليه أخوك مش ابنك."
- "الله يسامحه بابا، حب يتخلص مني بدري علشان يِفْضاله البيت مع زوجته الجديدة، بعدما طلق ماما. الظاهر أني كنت ثقيلة على قلبه وقلبها."

مسَّدت سوسن بأناملها على وجه منال، وهي تقول لها بنبرة مشفقة:

- "حبيبتي، أنت لا يمكن تكوني ثقيلة على قلب أحد أبداً. هو اللي ما له في الطيب نصيب."
- "الله يخليك لي ولا يحرمني منك." أجابتها منال وقد ارتسمت على وجهها ابتسامة رضا.

لم يعد مراد قادراً على تحمل هذا المشهد الفظ الذي كان يجري أمامه، فاستأذن لكي ينصرف، ولكن سوسن أمسكت به من ذراعه.....

- "على فين كده بدري. لسه أحتاجك في شغله." أخذت تداعب شعره الأسود الكثيف بأناملها....
- "أنا عارفه إن مصاريف الجامعة والحياة في أمريكا غالية، وخصوصاً أنك رايح جامعة تعتبر من أغلى جامعات أمريكا،

والبِعَث الحكومية متوقفة حالياً بسبب الأوضاع الاقتصادية وسعر البترول الواطي؛ فَإيش رأيك لو أبتعثك أنا على حسابي؟ أنا عرضت الفكرة على منال وهي موافقة."

انتفض مراد، وهبّ من جانب سوسن ذكري....

- "بابا قال إنه حيتكفَّل بكل المصاريف لغاية ما أحَصِّل بعثة."

نظرت منال إلى مراد بعين غاضبة لتصرفه الأهوج الذي خشيت أن يكون قد أحرج أو أغضب صديقتها.....

- "هذا بدل ما تقول لسوسن شكراً؟!.... صحيح أبوك ما عرف يربيك! بعدين حضرتك فاكر أنه بسلامته حيقدر على مصاريف برنستون؟! إذا ما كان قادر يصرف على بيته!"

- "بابا ربّاني وصرف علي كِوَيِّس، على الأقل ما علمني أتكلم على الناس بالسوء من وراء ظهورهم وقُدام أصحابي!" صرخ مراد دون أن يعلم كيف أتته الجرأة لمواجهة أمه بهذا الشكل! ولكن هذه المواجهة لم تنتهِ عند هذا الحد، إذ قامت منال على الفور من موضعها، ثم أخذت تنهال بكل ما أوتيت من قوة على مراد، صفعة تلو الأخرى....

- "بِتْرُدّ علي يا كلب يا ابن الكلب!" بعض هذه الصفعات وقعت على الهواء، ما زادها حُنقاً وجعلها أكثر تصميماً على أن تجد من الكلمات ما يعوض عن سوء تسديد الصفعات.

- "منال خلاص! حرام عليك الولد!" أخذت سوسن تصرخ في محاولة منها لتهدئة الحال وإيقاف هذه المعركة غير المتكافئة؛ أمسكت بذراعي صديقتها، ثم قرَّبتها منها، واحتضنتها، بعدما

أومأت لمراد بالانصراف.

- "مهما أسوي له هذا الولد، لا حمد ولا شكر!" أخذت منال تبكي في حضن صديقتها.....

- "طالع لأبوه.... ما يقدر تَعَبي وبس يدافع عنه، وكأني أنا العدوة!"

- "خلاص حبيبتي.....ششششش، خلاص، أعصابك بعدين تنهار، حرام عليك!" استمرت سوسن في محاولتها لتهدئة منال، ما زاد من نحيبها.

- "أنا خلاص ماني قادرة..... ماني قادرة! طفشت من هذه الحياة، أروح أنتحر أحسن وأرتاح!"

وهكذا استمر الحال من الأخذ والرد بين الصديقتين بضع دقائق، حتى تم تناسي الأمر برمته، ثم عادتا إلى ما كانتا عليه قبل مجيء مراد، من الحديث عن آخر أخبار المجتمع في مدينة جدة.....

* * *

لم تكن هذه هي المرة الأولى التي يتلقى فيها مراد الصغير الإهانة والصفعات من أمه، سواء أمام الغير أو بمفردهما. في بادئ الأمر كانت هذه الوقائع تجعله يلجأ إلى غرفته في حالة من البكاء والرغبة في الانطواء عن العالم بأكمله؛ وما كان يزيد الأمر ألماً أن أباه دائماً ما يأخذ صف أمه، ويخطئه على سوء تصرف قد يبدر منه نتيجة عدم قدرته على المضي في تحمل سيل إهانات أمه، ولا يخطئ الطرف الآخر الأقوى والأكثر نفوذاً على إساءة تصرف هذا النفوذ الذي مُنَح له لأسباب "بيولوجية"! ولكن مع مرور الوقت أصبحت مثل هذه الوقائع جزءاً من حياته المعتادة التي تعود عليها، وما عادت

تُبكيه؛ فقد عود نفسه على أن يُخَزِّن مثل هذه التجارب وغيرها في مكان بعيد من ذاكرته، فيتجاوزها، وكأنها لم تحدث، ولم تكن.....

- "مراد! كده تِزَعَّل منك أمك، وتحرجها أمام صاحبتها؟!"

كالعادة حكت منال لزوجها عمّا جرى من تجاوزات ابنهما، فور عودته إلى المنزل؛ وكالعادة ذهب طارق لكي يُقَرِّع مراد على هذه التجاوزات.

- "أنا آسف."

تعلم مراد مع الوقت أن الأخذ والرد، ومحاولة شرح وجهة نظره، وتبيان ما جرى من أحداث كما وقعت بالفعل وليس كما صَوَّرتها أمه لأبيه، أن كل هذا لا يجديه نفعاً، بل كان يزيد من التعنيف الذي يتلقاه من أبيه، ويجعل أمه تحنق عليه أكثر وعلى زوجها الذي "لم يحسن تربية ابنه" حتى بات "يتطاول" عليها!

- "روح الآن واعتذر لها، وكمان بُكْرَة لمّا تجي سوسن، تعتذر لها مرة ثانية في وجودها!"

- "حاضر."

ولكن طارق كان دائماً ما يأتي في المساء، قبيل الخلود إلى النوم بعدما يهدأ، لكي يُطَيِّب خاطر ابنه، وكأنه يعترف له دون أن يبوح، بإدراكه أنه ليس المذنب الوحيد فيما جرى، حتى وإن أخذ صف زوجته وانحاز لها بشكل كامل.

كان مراد يتظاهر دائماً بأنه متفهم لموقف أبيه، وإن كان في قرارة نفسه دائماً ما يتعجب من هذا الخضوع التام الذي كان يبديه تجاهها وتحمله لتذمرها المستمر من العيش معه، بل وحتى لإهاناتها التي طالته هو أيضاً أمام ابنه وفي أحيان أخرى أمام صديقاتها، إلى

درجة الظن في بعض اللحظات اليائسة أن أمه ربما قد سحرت أباه!

* * *

- "أي سحر هذا الذي يمكِّن المرأة من امتطاء الرجل بهذا الشكل؟!" تساءل مراد قطز في أثناء مشاهدته لهذا المشهد الذي من المفترض أن يكون لفترة صباه، والذي لم يزده إلّا حيرة وألماً!
- "إنه سحر قديم، بقدم الإنسان...." أجابه حيدر الكاشف بهدوئه المعتاد.....
- "اسمه العشق."

* * *

اعتاد مراد الصغير مع مرور الأيام على الرؤى التي كان يراها في أثناء نومه، ولم يعد يقوم في منتصف الليل صارخاً كما كان يحدث في السابق؛ بل أصبحت هذه الرؤى جزءاً مهمّاً من حياته..... جانباً لا يريد الاستغناء عنه، يجعله يشاهد أماكن وأزمنة ما كان ليتسنى له أن يراها بغير هذا الشكل العجيب الذي لم يجد له تفسيراً حتى الآن! كانت أغلب مشاهداته لأحداث عامة جرت في الماضي، وإن كان كل مدة وأخرى يرى أحداثاً معاصرة بشكل مفصل، وكأنه في قلب الحدث، كرؤيته لليوم الذي تلقى فيه حاكم ولاية أركنساس المغمور بيل كلنتون خبر فوزه في الانتخابات الرئاسية الأمريكية على غريمه الرئيس الحالي جورج بوش! لم يعلم مراد لماذا شاهد هذا الحدث خاصة، ربما لأن العالم كله كان يتابعه، أو ربما لأن أباه كان متسمراً أمام التلفاز طوال الليل لكي يعرف النتيجة، وكأنه كان يتابع مباراة بطولة بين فريقي الأهلي والاتحاد!

وعلى الرغم من واقعية هذه الرؤى التي باتت تزداد مع الأيام، إلّا أنه كان دائماً مجرد مشاهد لها، دون أن تكون له أدنى قدرة على التفاعل أو حتى اختيار المشهد الذي يَوَدّ رؤيته. أصبح النوم بالنسبة إليه بمنزلة البوابة إلى صالة عرض خاصة يشاهد من خلالها ما لا يتسنى لغيره.... عالمه الخاص الذي لا يستطيع أي أحدٍ فيه أن يؤذيه، أو أي أحدٍ من خارجه أن يشاركه إيّاه.

- "مراد، أعتقد أني وجدت بداية الخيط." أخبر طارق ابنه يوماً ما، منفرداً به في مكتبته الخاصة بالمنزل. كان طارق قد كرس جزءاً غير يسير من وقته لمحاولة فهم هذا الذي كان يحدث لمراد؛ وأخذ يبحث في الأمر دون أن يثير انتباه أحد، حتى زوجته، لكي لا يصبح ابنه حديثاً للمجالس أو نميمة على كل لسان.

- "صحيح؟! بس كيف؟!" امتلأ مراد بالحماس....

- "وأنا في هارفارد، فاكر أني مرّيت على مخطوطة غريبة، وقتها ما أعرتها أي اهتمام، لشخصية عمري ما سمعت عنها اسمها جُلّاب المُبَخِّر. المخطوطة كانت عن حاجات غريبة لها علاقة باستخراج الأفيون من زهرة الخشخاش ودمجها مع الحشيش من شجيرة القُنَّب مع أعشاب تانية غريبة، كل هذا علشان الدخول في حالة عجيبة..... صراحة وقتها حسيت أنه كلام مساطيل! لكن كان في حاجة حبيت أتأكد منها، فاكر أنها وردت في المخطوطة، وعلشان كده طلبت من صديق لي في هارفارد أن يرسلّي صورة من المخطوطة بالفاكس، واليوم وصلت؛ وبالفعل كان شكي في محله. المخطوطة بتتكلم عن ناس مِسَمّيهم جُلَّاب أهل الكشف، وأنهم أصحاب طبقات مختلفة من القدرات، منها قدرتهم على

رؤية الواقع في الأحلام وأشياء ثانية غير واضحة. مع الأسف المخطوطة قديمة ومهترئة. الشاهد أنه ذكر أسماء بعض الشخصيات اللّي هو عاصرهم وكانوا من كبار أهل الكشف، ولفت انتباهي اسم مرّ علي من قبل: أم الوفا." توقف طارق عن حديثه قليلاً ليمسك بكتاب على مكتبه، كان قد أعدّه ليريه ابنه...

- "فاكر لما ذهبنا أنا وأنت إلى مقام قطز في أوزبكستان من سنتين؟"
- "أيوه فاكر، وقلت لي إنه مقام بُني تخليداً لذكرى جدنا مؤسس الأسرة." أجابه مراد بحماس.
- "طب فاكر الأبيات اللي كانت منقوشة على المقام؟"
- "لا صراحة، ماني فاكر."
- "أنا فاكرها طَيِّب: **أيها السائل أين منك السؤال.... أفي الدنيا تسير أم في عالم الخيال.... سهرتَ الليل كثيراً والعيون لا تنام.... تبحث عن شيء تجده منك بعيد المنال.... إن كان القلب عارفاً فما باله حيران.... وإن كان العقل باحثاً فلمَ هو عن الحق رحّال؟**" صمت طارق قليلاً قبل أن يكمل.....
- "هذه الأبيات استوقفتني وقتها، لأنها بدت لي مألوفة بطريقة ما، لكن وقتها ما قدرت أفهم كيف، لغاية ما قرأت اسم أم الوفا اليوم في المخطوطة، وسبحان الله كأن باباً في ذاكرتي انفتح." ناول طارق الكتاب الذي كان بيده لمراد، مفتوحاً على صفحة مُحددة....

- "شوف إيش المكتوب هنا"

أخذ مراد يقرأ، ثم فجأةً نظر إلى أبيه مشدوهاً....

- "هذه نفس الأبيات اللي مكتوبة على المقام!"

- "هذا الكتاب فاكر أني قرأته أيام الجامعة؛ كتاب ما هو معروف، عن أقطاب الصوفية المجهولين. من ضمن اللي ذكرهم أم الوفا هذه.... لو تلاحظ ما هو كاتب عنها غير يا دوبَك صفحة واحدة، لكن من ضمن اللي مكتوب نَفْس أبيات الشعر الموجودة على المقام..... طلعت من تأليفها!" بلغ الحماس ذروته مع طارق.....

- "شايف يا مراد، لا يمكن تكون كل هذه مجرد مصادفات. أكيد في رابط ما يجمع بين زيارتنا للمقام، وهذه الأبيات لأم الوفا، وأحلامك العجيبة اللي بدأت بعد زيارتنا للمقام! في رابط ولا بد أننا نكتشفه!"

- "بس كيف؟!" انتقل الحماس لمراد كالعدوى.

- "لسه ماني متأكد.... حأحاول أبحث أكثر عن أم الوفا في المراجع القديمة، ومين عارف جائز ألاقي شيء، ولو أني أشك في كده. الشيء الثاني هو أني أسافر لبوسطن في الصيف وأبحث أكثر في مخطوطات مكتبة جامعة هارفارد، ويمكن أجد أشياء تساعدنا."

- "بابا، ممكن أجي معاك؟ كده كده أنا أحتاج أروح أمريكا قبل ما تبدأ الدراسة في برنستون علشان أرتب أموري هناك!"

- "ليش لا." أجاب طارق مبتسماً على طلب مراد، وشعور بالفخر يملؤه لأنه استطاع أن يتوصل إلى أول الطريق الذي سيمكنه من

مساعدة ابنه في فهم ما كان يحدث له.....

- "إيش هذا ما شاء الله؟!" قاطعت منال خلوتهما، وقد بدت في كامل زينتها استعداداً للخروج.....
- "لسه ما جهزتوا؟!"
- "نجهز لإيش؟" سأل طارق مستغرباً.
- "يا سلام عليك! نسيت إيش قُلْتَلَّك أمس؟!"

عقد طارق حاجبيه، غير مدركٍ إلى ماذا كانت تشير زوجته.

- "عزومة سوسن في استراحة أهلها في أُبْحُر!"

* * *

وَصْف استراحة كان قليلاً على هذا المكان، في شمال مدينة جدة، الأشبه بمنتجع بحري خمسة نجوم في إحدى جزر البحر الكاريبي..... فيلا كبيرة من طابقين، محاطة بحديقة استوائية، تطل على البحر الأحمر بشاطئها الخاص الممتد على نحو ألف متر حتى يصل إلى مرسى خاص به يخت وحيد متوسط الحجم مساحته تفوق مساحة منزل طارق قطز في وسط جدة، الذي يدفع فيه ما يقارب ثلث دخله السنوي ثمناً لاكترائه.

- "أخيراً وصلتم." قالت سوسن ذكري مرحبة بصديقتها التي حضرت توّاً مع ابنها الوسيم الذي بدا أكبر وأنضج من عمره الذي لم يتجاوز خمسة عشر عاماً، وزوجها أستاذ الفلسفة الذي لم تستظرفه قط.
- "مَعَليه ضِعْنا." أجابت منال ثم أومأت برأسها نحو زوجها....
- "طارق من زمان ما راح أُبْحُر."

- "ولا يهمك، ما فاتكم كثير. الناس تَوّها واصلة.... ها يامراد، قُلّي، عجبك المكان؟ أنا كل ويك إند أجي هنا من يوم ما بابا اشترى الاستراحة من رجل أعمال صديقه اسمه غانم الساعدي. على فكرة في هنا كبائن منفصلة عن الفيلا الرئيسية. يعني لو حبيت تجي، وتجيب معاك منال أو أصحابك أو...." نغزت سوسن الفتى قبل أن تكمل....

- "حتى الجَوْ، كله ماشي هنا."

ضحكت سوسن ضاربة كفها بكف صديقتها، في حين اكتفى مراد بابتسامة مصطنعة إرضاءً لأمه.

- "يبدو الشاطئ هنا نظيفاً جدّاً." قاطع طارق، مشاركاً الحديث.

- "وِحْياتك أنظف من كل شواطئ جدة."

- "اليَخْت اللي هناك هذا تبعكم؟!" سألت منال بنبرة لا تخلو من الإعجاب والانبهار.

- "عجبك؟ وجيه أخويا لسه مستلمه من إيطاليا، وجاء به من هناك..... آه جبنا في سيرة القُط جاء ينُط!"

اقترب من سوسن شاب أنيق، يكبرها بقليل، ملامحه الوسيمة لا تختلف كثيراً عن ملامحها ما عكس صلة قربه بها، على الرغم من فارق الطول بينهما.

عانقته سوسن بحرارة قبل أن تقدمه لضيوفها.....

- "وهذا هو وجيه مَلك البحار." قالت مازحة قبل أن تضيف....

- "شكلك تَوّك صاحي. الظاهر السهرة أمس كانت صبّاحي."

- "لا والله، بس كنت تعبان شوَيّا؛ أمس طَوّلت في الجيم."

- "خليني أعرفك بأعز صديقاتي منال."

- "أهلاً." قالت منال برقة شديدة، مصافحة إياه باستحياء غير معتاد.

- "وهذا الشاب الوسيم هو ابنها مراد."

- "لا مش معقول!" قاطعها وجيه.....

- "أنا أول لمّا شفته حسبته أخوها."

- "ثانكس." ردت عليه منال، محمرة الوجنتين.

- "آه... كنت حأنسى.... هذا طارق قطز زوجها."

حاول وجيه أن يبقي على ابتسامته، وهو يصافح زوج صديقة أخته، ثم بنبرة شابها شيء من الاستهزاء سأله.....

- "قطز؟ اسم غريب. عندك فكرة إيش معناه؟"

حاول طارق أن يجيبه، ولكن سوسن لم تتح له المجال، سابقة إياه بالحديث....

- "على فكرة يا وجيه، منال جدّاً معجبة باليَخت."

- "صحيح؟! طيب إيش رأيكم لو آخذكم عليه كروز الآن؟" أجاب أخته بحماسة.

- "ما أظن حينفع." قاطعته منال، ثم أومأت برأسها مرة أخرى نحو زوجها.....

- "طارق يجيه دوار من البحر."

- "مو مشكلة، روحي أنت مع مراد، وأنا أنتظركم هنا. بالمرة أكون اتعرفت على بعض الموجودين." ردّ عليها طارق، مُدركاً مدى

شغف زوجته لركوب اليَخت.

- "صراحة أنا كمان مالي نفس أركب اليَخت." جاء الاعتراض من مراد على أمل أن تستشعر أمه الحرج وتبقى هي الأخرى معهما، خاصة بعدما شعر بعدم الراحة للغطرسة التي كان يتحدث بها وجيه ذكري، وكأن العالم رهن يديه! ولكن الرياح أتت بما لا تشتهيه سفن الفتى.

- "خلاص يسير نروح احنا، وأنتما انتظرونا لغاية ما نرجع. حنحاول ما نتأخر عليكم." حسمت سوسن الأمر، مقتادة صديقتها مع أخيها نحو اليخت الذي كان في انتظارهم عند المرسى في آخر الشاطئ.....

* * *

بدأ قرص الشمس البرتقالي في هبوطه المعتاد خلف البحر، ليتوارى عن الأنظار بعد أن أضاء للناس الطريق ليتمكنوا من رؤية مصائرهم، وهم يسيرون عليه، ولِيُنْذر بقرب مجيء ظلام الليل الكفيل بمداراة جميع العيوب الظاهرة التي يصعب إخفاؤها بالنهار.....

ظل مراد يترقب البحر، منتظراً قدوم اليخت الذي يحمل عليه أمه. شيء ما بداخله كان يحدثه بأن هذه الرحلة البحرية سيمتد أثرها إلى زمن بعيد. تمنى لو أنه ذهب معها ولم يتركها تسير بعيداً عنه وعن أبيه، ولكنه تذكر أنها لم تكن حريصة على وجوده من الأساس، بل إن سوسن صديقتها كانت أشد حرصاً منها على أن يأتي معهم..... سيره على الشاطئ بمفرده، وسماعه لصوت الأمواج وهي تعانق الرمال البيضاء، جعله يتأمل حياته القصيرة، ويتساءل: إلى أين يسير؟ هل محتوم عليه أن يمضي في الحياة وحيداً كما هو حاله الآن؟

ذكاؤه الحاد جعله مختلفاً عن أقرانه، فباعد بينه وبينهم؛ بُغْض أمه لحياتها مع أبيه جعلها دائمة التوتر في وجوده لأنه الرابط الوحيد الذي كان يربطها بزوجها الذي لم تعد تريده. هل هو الوحيد الذي كان يرى هذه الحقيقة؟ هل خفي الأمر عن أبيه، أم أنه كان يعيش في حالة من الإنكار؟ بِغَض النظر عن الجواب، فالنتيجة واحدة: عاجلاً أم آجلاً ستزداد وحدته!.... "الشعور بالوحدة شعور بغيض،" أخذ يتأمل الفتى؛ فالإنسان لم يخلق لكي يكون وحيداً، وإلّا لما خلق الله حواء لآدم لكي تؤانسه؛ ولكن ماذا عساه أن يفعل إن كان الذي يُمَيِّزه هو سبب وحدته؟ ماذا عساه أن يفعل إن كان يفكر لا كما يفكر الآخرون؟ وإن كان يرى ما لا يراه الآخرون؟ وإن أصبح يسير في طريق لا يقوى عليه سوى القليلين؟ كان أبوه مثالاً حياً أمامه لمآل من يسير في طريق البحث والمعرفة.... القليل من الأصدقاء، الكثير من الخصوم، وزوجة لم تعد راغبة فيه. هل هذا هو المصير الذي ينتظره هو الآخر، إضافة إلى أُمٍّ لا تحبه؟

لم يرغب مراد في الإجابة عن أي من هذه التساؤلات، ربما لأنه في قرارة نفسه كان يدرك أنه لن يقدر على تحمل الإجابة، سواءً لصغر سنه، أم لمرارة الإجابة. مهما كان السبب، اكتفى الفتى فقط بطرح تساؤلاته لقرص الشمس المتضخم الذي كاد يتوارى عنه في الأفق. لعله عندما يظهر مع شروق يوم جديد، يحمل له الإجابة التي ترضيه، فتزيل عنه حيرته؛ ولكن إلى أن تشرق شمس ذلك اليوم، سيظل يتساءل، وهو يودع القرص البرتقالي الدافئ، مع لحظات الغروب.... سيظل يتساءل إلى أن يعود اليخت، وتنزل أمّه من عليه بصحبة سوسن وأخيها المتغطرس وجيه ذكري.

* * *

يومًا من بعد يوم، والخلافات آخذة في الازدياد ما بين منال وطارق. لم تكن الزوجة راضية بأي شيء في حياتها مع زوجها، لا المنزل الصغير، ولا الحي البسيط ولا الحياة الراكدة الخالية من الإثارة. لم تعد قادرة على تحمل حياة فُرضت عليها في الصغر ولم تخترها هي، حتى أصبحت رافضة لكل شيء متعلق بها، بما فيه ابنها الوحيد من تلك الزيجة المشؤومة؛ ولم تتوانَ عن التعبير بصريح العبارة عن شعورها هذا. لم يفهم الزوج سبب هذه الثورة الجامحة التي كانت تزداد شراستها مع مضي الأيام، ولكن الابن اللَمّاح كان أكثر فهماً لمجريات الأمور، وإن حاول الإنكار مع نفسه. الطريق الذي كانت تسير عليه تلك المجريات كان واضحاً لمن أراد أن يرى؛ وكان الابن يرى جيداً، وإن لم يرغب في تلك الرؤية، على عكس حال الزوج الذي رغب في الرؤية ولم يستطع.....

بالكاد استطاع طارق قطز أن يفرغ من تأليف كتابه حول واصل بن غيلان، بعد أن انغمس في تكملته هرباً من حياته التي أصبحت أشبه بالجحيم. لم يستطع طباعته في السعودية، حيث لم يحصل على الفسح المطلوب من وزارة الإعلام لما كان يحتويه الكتاب من أمور "تخالف الثوابت" على حد زعم المسؤول في إدارة الفسح، ممّا جعله يلجأ إلى دار نشر لبنانية عُرفت بطباعتها لأي كتاب يحمل في طيّاته احتمالية إثارة الجدل في المجتمع. فهذا كان يعني أن الكتاب سيبيع، لأن الناس دائماً ما تبحث عن كل ما يثير الجدل، سواءً فهموه أم لا! والقراءة الأولى لكتاب طارق قطز، جعلت الناشر اللبناني يدرك أنه سيثير الكثير من الجدل، وأن مصادرته المحتومة في السعودية ستزيد من مبيعاته، وهذا هو المطلوب في نهاية المطاف.....

ولكن كما أدرك من قبل الابن أن الرياح لا تأتي دائماً بما تشتهيه

السفن، أخذ الأب يدرك هذه الحقيقة التي لسببٍ ما غابت عنه.... فقد طُبع الكتاب، وأثار اللغط المطلوب كما راهن الناشر، وأصبحت مبيعاته تفوق كل التوقعات، ولكن مع كل هذا أتت رياح مُغْبرة لم يشتهها طارق؛ رياح التفسيق والتخوين التي سرعان ما تحولت إلى عاصفة من التكفير! وكأي عاصفة جارفة عندما تصيب قرية هادئة لم تعتد على مثل هذه العواصف، فقد خَلّفت من ورائها كثيراً من الحُطام، ولم يتبقَّ من ثناياها إلّا الأحزانِ والآلام.....

في البداية كان التوبيخ من رئيس القسم، ثم جاء الاستدعاء من مدير الجامعة. تبعه الإيقاف عن العمل، ثم التحقيق من قبل هيئة التحقيق والادعاء العام التي أمرت بسجن المتهم لحين انتهاء التحقيق..... التهم الموجهة: الإخلال بالنظام العام، ومحاولة زرع الفتنة والانقسام في المجتمع، وتعبئة الرأي العام على المؤسسات الدينية وعلى كبار العلماء والتشكيك في نزاهتهم؛ ولكن التهمة الأهم والأكبر التي كانت كفيلة بالقضاء عليه نهائيّاً: الارتداد عن الدين الإسلامي!

وهذه التهمة الأخيرة هي التي كانت تبحث عنها منال من أجل القيام بما كان يجب فعله منذ زمن بعيد..... طلب الخُلع.... حجة الدعوى: الخشية على دينها من زوج متهم بالردة!

جاء الحكم بتطليق الزوجة من زوجها، وكان هذا أسرع حكم ينطق به القاضي الشيخ إبراهيم الصندوق في مسيرته القضائية الحافلة التي أنهاها بعد ذلك بسنوات، عندما انتشرت الفضائيات الدينية، وكانت في أمس الحاجة لنجوم يملؤونها وَهَجاً.....

فرحت الزوجة بحريتها التي نالتها عن استحقاق، خاصة بعدما وجدت لنفسها البديل الذي ظلت طوال حياتها تحلم به؛ وما إن

انقضت شهور العدة، حتى وثبت إلى عالمها الجديد مع "فارسها النبيل" الذي زُفّت إليه في قاعة لَيْلَتي للأفراح، بعد أن ألقت وراء ظهرها كل ما كان يربطها بالماضي المشؤوم، بما فيه ابنها الوحيد الذي فُرض عليها، كما فُرض الزوج الكريه من قبله!

* * *

أُفرج عن طارق قطز بعد إيقاف دام أكثر من ثلاثة أشهر بقليل، وقد سقطت عنه جميع التهم الموجهة إليه. ارتحل إلى بيته بحي السلامة في الليلة نفسها التي سافرت فيها منال إلى مدينة كان الفرنسية بصحبة زوجها الجديد وجيه ذكري، على متن اليخت الجميل نفسه الذي أينع فيه حبهما "الطاهر الشريف" كما أصبحت دائماً تصفه.....

لم يعد طارق هو نفسه الرجل الذي يعرفه مراد، بل الذي رآه أمامه كان مجرد حطام رجل عرفه في يوم من الأيام. الذي كان أمام الفتى رجل آخر كُسِرت نفسه بعدما طُرد من وظيفته، وشُوِّهت سمعته، وطُلِّق من زوجته، وبُعْثِرت كرامته؛ رجل أصبح طريح الفراش، لا لِعلة أصابت جسده فتركته وهِناً، بل لِعلة أصابت نفسه فتركتها جريحةً تدمي بؤساً وأسى.....

ولم يكن طارق هو الوحيد الذي تغير، بل أن ما أصاب الابن من تحولات سريعة في مدة وجيزة جعل منه شيئًا آخر غير مفهوم للذين من حوله، وكأن طفرة نمو أصابته، فاختزلت السنوات. هل الحزن على أبيه هو الذي جعله يبدو أكبر من سنه، أم أنها مجرد هرمونات النمو، وقد نشطت بشكل ملحوظ؟! لكن الظاهر كان يخفي من ورائه باطناً أشد إثارة وأكثر غرابة! فَرُؤى المنام لم تعد مرهونة على النوم فقط، بل تجاوزته لتأخذ شكلاً آخر. فأصبح بمقدور مراد أن يرى ما لا يراه الآخرون من أحداث حدثت ولم تحدث في الوقت

نفسه! في بادئ الأمر لم يفهم، ولكن مثل هذه القدرة التي إن أصابت صاحبها، فعادة لا ينتج عنها سوى الجنون، كانت في حاجة إلى عقل يستوعبها، فيستطيع التحكم فيها؛ وكأنها وجدت ضالتها في عقل هذا الفتى البخاري سليل عائلة قطز! وكنَبْتة أينعت مَرْوية بنار الغضب، أصبح آكلها شعلة لا رغبة لها سوى إحراق كل من خاصمها! وأهم الخصوم كانت منال التي لم تعد له أُمّاً، بعد أن قطعت كل رابط يربطها بحياتها القديمة التي تقيأتها كما تتقيأ بعض النساء الطعام لا لفساده، ولكن للحفاظ على قوامهن ومظهرهن الرشيق أمام الناس! ثم هناك رأس الأفعى التي يجب أن تُقطع، صديقتها سوسن؛ وهناك أيضاً جسد الأفعى الذي يجب أن يدهس، عشيقها الذي أصبح زوجها..... وجيه ذكري!

استطاع مراد أن يرى القدر الذي يجب أن يختاره من ضمن سلسلة من الأقدار المحتملة، فظن أن الطريق قد أصبح له واضح المعالم، وليس في حاجة إلى تأويل؛ بل كل ما كان يحتاجه هو أن يرى كل قطعة من قطع الدومينو على حقيقتها التي أصبحت عليها، وأن يختار القطعة التي سيبدأ بالإطاحة بها...... منال متزوجة من وجيه ذكري ابن العائلة الغنية المرموقة في المجتمع الجدّاوي.... وجيه ذكري هو ولي عهد أبيه والوريث المستقبلي لهذه المملكة التجارية الضخمة، وسوسن هي أخته الوحيدة.... القطعة الأولى من الدومينو!

قراءة البشر هي سر التحكم فيهم، وقراءة سوسن لم تكن عصية على مراد، فلم يكن في حاجة لأن يبذل أي مجهود كبير؛ كان عليه فقط أن يغذي شهوتها الجامحة بهيئته الجديدة التي وإن جعلته أكثر شراسة، إلّا أنها لم تُنقصه أي مقدار من الوسامة، بل جعلته أشبه

بالفاكهـة المحرمـة التـي يرغبهـا كل من يراها علـى الرغم من إدراكه لعواقب قطفها! سلسلة من الأحداث المتوالية ستنتج عن هذا الحدث الأول: التمكن منها!

ستهرب ابنة الأسرة العريقة إلى أمريكا مع عشيقها الذي يصغرها سناً.... ستَصرِف عليه وعلى دراسته.... ستعيش معه من غير زواج في منزل واحد، لكي تُشبع ظمأ الشـهوة الذي لن يرويه إلّا رحيقه، حتى إن كلفها ذلك أهلها وجميع معارفها! المال لن يشـكل لها أي معضلـة، فهـي تمتلـك منه ما يكفيهما ويزيد.... في الوقت نفسـه في جـدة، سـتُصبح فضيحـة آل ذكـري هي حديث المجتمـع: ابنة العائلة الكريمـة التـي هربـت مع ابن زوجـة أخيها! وهنا يقع المحك! فحتى إن تناسـت منال أنه ابنها، فلن ينسـى الناس، وسـيظلون يهمسـون من وراء ظهرهـا وظهـر زوجهـا. رؤيتهم لها وله سـتغذي من النميمة في المجتمـع، ولـن تقـدر أصابـع الزمـن على محو ذلك الأثـر طالما أن أم الفتى المعشـوق لا تزال على ذمة شـقيق المرأة العاشـقة. تسـاقط الأحـداث سـيؤدي إلـى طـلاقٍ حتمي بين وجيه ومنـال. عائلة ذكري ستلفظها، كما لفظت هي عائلتها من قبل. ستنهار حياتها الجديدة مع الأحلام التي بنتها عليها! لن تستطيع المُضي إلى الأمام، ولن تستطيع العـودة إلـى الـوراء. فلن يتقبلها أي أحـد في جدة، حفاظاً على مودة آل ذكري ومجاملة لهم. سـتصبح منال منبوذة من الجميع، كما يُنْبذ المجـذوم حتـى مـن أقـرب الناس إليه؛ ومثلها لن يكون أمامه سـوى خيـار واحـد.... خيـار تقود إليه قطـع الدومينو المتسـاقطة الواحدة تلـو الأخـرى؛ ولأنهـا مثلهـا مثل عامة الناس مـن حولها أضعف من أن تمتلـك القـدرة، التـي أصبح يمتلكها مـراد، على التحكم في قطع الدومينو، فستقع فريسة سهلة لليأس ولتبعاته التي ستقودها إلى نهايتها

البائسة المحتومة، كما خطط لها ابنها الذي لفظته، عِقاباً لها عمّا فعلته!

* * *

صعد مراد إلى الطابق العلوي من العمارة المطلة على البحر. قرع الجرس، وهو يدرك جيداً من الذي سيفتح له الباب..... طَلّت عليه سوسن دون أن تستعجب مجيئه، فكانت تدرك أن هذا اليوم سيأتي إن عاجلاً أم آجلاً. كان أمامها في تلك اللحظة أحد أمرين: إما أن تغلق الباب في وجهه، فتغلق بذلك على نفسها باباً كانت تعلم جيداً أنه لن يأتي من ورائه سوى الخراب، أو أن تُبقي الباب مفتوحاً لتستقبل القارع عليه في حياتها...... من دقات قلبها المتسارعة التي ظهر أثرها على شريانٍ في صدغها، ومن بُؤبُأي عينيها الخضراوين المتوسعتين، ومن شهقة غير إرادية تنم عن رغبة دفينة تحرقها من الداخل بدرت منها فور رؤيتها له....... أدرك مراد أنه تمكن منها، حتى من قبل أن يتمكن منها، لتسقط بذلك أول قطعة من الدومينو لهذه السلسلة من الأقدار!

ما لم يدركه مراد الشاب بسبب قلة خبرته حينئذٍ، أن قطعة الدومينو هذه كانت متصلة أيضاً بحدث آني عابر يبعد عنه بعدد من الكيلومترات، لم يكن بمقدوره رؤيته في تلك اللحظة، وإن كان سيكتشف أثره بعد ساعات قليلة، عندما يعود إلى منزله، ممتلئاً بنشوة الانتصار، فيذهب إلى غرفة أبيه من أجل الاطمئنان عليه، ليجده قد فارق الحياة، بعد أن تلفظ أنفاسه الأخيرة في اللحظة نفسها التي سقطت فيها تلك القطعة الأولى من تلك السلسلة لدومينو الأقدار.....

17

تحول المشهد إلى ما كان عليه في قاعة حيدر الكاشف الفسيحة الساكنة. لم تتخيل ياسمي أن تجربة كهذه التي مرت بها مع مراد قطز والشيخ العالم، هي من باب الممكنات! ولم تعلم أيهما أدعى للدهشة؟ ما شاهدته من مستقبل مليء بالعجائب التي سيصل إليها الإنسان، أم هذه العلاقة المأساوية بين الفتى وأبيه وأمه؟ لسبب ما شعرت أيضاً بالحزن والرأفة لكلتا الحالتين؛ شعرت بالحزن لأن الإنسان مع كل التقدم الذي سيحرزه إلّا أنه سيبقى على حاله من قهر الآخرين والتسلط عليهم بما يمتلكه من نفوذ وقوة، وشعرت بالرأفة لأن تقدم الإنسان لن يزيده إلّا حيرة وأسى..... كما شعرت بالحزن والرأفة على مراد قطز الذي اضطر إلى أن يعيش تلك التجربة المريرة مرة أخرى بعد أن نسيها، أو تناساها على ما بدا لها. أرادت أن تتحدث معه، أن تحاول مواساته في مصابه الذي حدث له في زمن هو بالنسبة إليها يشكل المستقبل البعيد. ذلك المستقبل الذي لن تعيشه وإن تمكنت من رؤيته متجسداً أمامها في قاعة حيدر الكاشف، الذي فجأة دون مقدمات انقطع؛ لم تعلم ياسمي إن كان هذا بسبب ذهاب مفعول الوَسْكا التي أعدها حيدر الكاشف، ومكّنتها من رؤية هذه العوالم المحجوبة؟ أم أن مراداً أراد أن يختلي بنفسه بعيداً عن أعين المراقبين؟

- "المآسي هي نسيج الحياة الذي يحيك به المرء الرداء الذي

يُمَيزه عن باقي المخلوقات. يبدو لي وكأن مراداً يرغب في خلع ردائـه." قـال حيـدر الكاشـف، وكأنه قرأ مـا كان يدور في خاطر ياسمي.

- "هل باستطاعتك مساعدته؟" سألته ياسمي بعفوية عكست مدى تأثرها بما شاهدته قبل قليل.

- "كيف أساعده، وأنا لا أعلم ماذا يكون."

تعجبت ياسـمي من جملة حيدر الكاشـف، فكيف لا يعلم ماذا يكـون، وهـو العالـم الجليـل الـذي يشـهد على قدرته كل شـيء من حوله؟!

- "ولكن الطريق إليه بات معلوماً لدي، ولعلي مع الوقت اكتشف سره وسرّك."

- "سِرّي؟!" سألت باستعجاب.

- "وهل تظنين غير ذلك؟ العالِم الجيد هو من يكتشف الإجابة عن سـؤال طُرح، ولكن العالِم الفذ هو أول من يسـأل ذلك السـؤال؛ ولكن حتى يسـأل فعليه أولاً أن يدرك ما الذي يجب أن يُسـأل عنه."

لسـبب مـا شـعرت ياسـمي بالريبـة ممـا كان يشـير إليـه حيـدر الكاشف، بل شعرت بالخوف وهي تنظر إلى الأقفاص من حولها.... مـن أن تكـون نظرتـه لها ولذلك المخلوق الذي يُدعى مراد قطز هي كنظرته لساكني تلك الأقفاص من المخلوقات.

- "ولكن الوقت المتاح قد لا يكون كثيراً، فأنا ورفقائي الثلاثة علينـا المضـي فـي طريقنـا إلـى غزنـة.... أنـا شـاكرة لك على

المساعدة."

نظر حيدر الكاشف إليها نظرة لا تخلو من الاستغراب والحيرة، وكأنه لم يفهم مقصدها....

- "تودين الخروج من وادي القُنَّب بعد أن دخلتِه؟ ترغبين في الحياة مع الهمج الذين يجوبون الأرض على دوابهم، شاهرين سلاحهم، وتتركين حياة البحث والمعرفة التي يمكنك الحصول عليها معي هنا في هذا المكان؟ لو لم أتيقن بنفسي أنك من أهل الكشف، لحسبتك من العامة الدهماء."

ازداد قلق ياسمي بعد أن تأكدت مخاوفها.... "هذا الشيخ لا ينوي تركنا نغادر!"

- "وكيف تحسبني أن أبقى هنا، وحاكم المدينة يريدني سَبِيّة ينتهكها وقتما يشاء؟!"

- "الغازي بن مسعود ليس بحاكم لهذا المكان، ما هو إلّا بمنزلة الكلب الذي يحمي الخرفان من الذئاب؛ ولكن الذي يرعى هذه الخرفان، ويأتمر له هذا الكلب، فهو أنا."

- "ولكنه كلب نجس لا يستحق عطف مولاه!"

- "لو لم يكن نجساً لأكلته الذئاب، ولما هابته الخرفان."

- "لا أفهم كيف يمكن لشخص في مثل علمك أن يكون في حاجة إلى جلاد مثله. أهالي المدينة، كما تلمستُ، يقدسونك؛ فلِمَ الحاجة إليه؟!"

لامست شفتي حيدر الكاشف ابتسامة سرعان ما اختفت، قبل أن يدير ظهره لياسمي مُتَّجهاً نحو مجموعة من الأرفف في الجهة

المقابلـة مـن القاعـة، بقرب نافذة تطل علي السـاحة الكبيرة التي يقع عليها القصر....

- "منذ زمن بعيد كنت مثلك أحسـب أن العلم والحكمة وحدهما كافيان للارتقاء بالإنسان فوق مصاف الحيوان، حتى اكتشفت أن الحقيقـة بخـلاف ذلـك...... علم في غير موضعـه قد يقود إلى المزيد من الجهل....... جملة سـمعتها وأنا في ريعان الشـباب من رجل لم التقِه سوى مرة واحدة في حياتي. جملة لم أفهمها حتـى حاولـت أن أغيـر بعلمي سـكان هذا الـوادي الذي ما كان حينهـا إلّا قريـة صغيـرة تقع بين الجبال، وليـس المدينة العظيمة التي ترينها الآن. ولكن علمي نُعت بالسحر، وكاد يفقدني حياتي لولا أني استطعت الهروب. لم يكن حالي في باقي البلاد بأفضل مـن حالـي فـي بـلادي، فالمرء عدو مـا يجهل؛ ينظـر إلى البرق فيحسـبه غضباً من الله، دون أن يدرك أنه هو نفسـه ذلك الشـيء الذي ينتج ما بين الأنامل التي حكّت الصوف والسطح المعدني إذا لامسـته. عندمـا حاولـت شـرح الكهرباء التـي عرفها الإغريق قبـل قـرون مـن الزمـان، حسـبوني معتوهاً يهـذي؛ وعندما بدأت فيمـا لـم يسـبقني إليه أحد من اسـتخدام قوة الكهربـاء، اتهموني بأنـي أحـاول مضاهـاة قـدرة الله! طُـردت مـن مدينة تلـو المدينة حتـى صادفـت رجلاً بسـيطاً عنـد قرية بالقرب من خرسـان ابنته كانـت تعاني الحمّى الشـديدة والهذيـان، مع صعوبة في التنفس. عرضتُ على الرجل المساعدة حيث إني أجيد فن الطب، فوافق. كانت الفتاة تعاني تضخماً وتَقَيُّحاً في اللوزتين، فأخبرت أباها بأنه يلـزم عـلاج الحمّى بالدواء، ثم اسـتئصال لوزتيها المتضخمتين. نظر إلي الرجل باستنكار، ثم عنَّفني لأني أريد قطع ما خلقه الله

وهو أحسن الخالقين. عبثاً حاولت أن أشرح له أن هذا داء مثل أي داءٍ قد يصيب الإنسان، وعلاجه هو ما أخبرته، وأن ليس في الأمر أي تعدٍّ على قدرة الله ولا إنكار لحسن خلقه. رفض الرجل ما قلته، وأخذ ابنته إلى شيخ لكي يرقيها، ولكنها ماتت بعد يومين..... نعم، لقد ماتت الفتاة لأن أباها اعتقد خطأً أن علاجها كان يقتضي ارتكاب مُحرم! هل تظنين أنه بعد مصابه هذا قد أدرك جهله، وندم على سوء تدبيره؟ الإجابة لا، ولأن الجهل داء مستفحل في البشر، فلقد وضع الأب اللوم علي أنا لعدم استجابة ابنته لرقية شيخ القرية الفاضل الذي لا يرد الله له رقية، والحُجة أني تجرأت على الله! وكغيرها من القرى، طُردت من هذه القرية بعد أن كاد أهلها يفتكون بي.... بعد زمن ليس بطويل، عند قرية أخرى بالقرب من مراغة، صادفت صبياً كان يعاني من الداء نفسه، ولكني هذه المرة كنت قد قررت أن الجَهلة لا ينبغي أن يُخاطبوا إلّا بلغة يفهمونها؛ فأخبرت الأب بأن ابنه يعاني سحراً خطيراً وُضع عن طريق الجن في حلقه، وأنه لا يوجد حل سوى استخراج هذا السحر عن طريق فم الصبي. لم أدهش عندما صدّقني الأب ووافق على الفور، فقمت باستئصال اللوزتين، وعاش الصبي بعد أن تعافى، فأصبحت أنا بين عشية وضُحاها حديث القرية وجميع القرى التي بجوارها! أصبح الكل يتهافت على هذا الرجل الصالح الذي استطاع اكتشاف السحر الذي وُضع للصبي، فأبطله!" أمسك حيدر الكاشف بقنينة من على الرف، ثم أخذ يسير نحو ياسمي.....

- "عندما رجعت إلى وادي القُنَّب بعد عقدين من الغياب، كنت قد أصبحت قطب الأقطاب حيدر الكاشف صاحب الكرامات.

حينها فقط استطعت أن أُحَوِّل قرية صغيرة نائية إلى مدينة لم يشهد العالم لها مثيلاً، مع الاستعانة أيضاً ببعض المساحيق والعقاقير التي ساعدتني على ترويض الأهالي، حتى ينصاعوا تماماً لخرافاتهم التي حاكوها هم بأنفسهم.... هل فهمت الآن معنى تلك المقولة: علم في غير موضعه، قد يقود إلى المزيد من الجهل؟ لقد فهمتها أنا حينما أدركت أن عامة البشر ليسوا إلّا كقطيع الماشية، هم في حاجة إلى من يرعاهم، وليس إلى من يُعَلّمهم. العلم لا ينبغي له أن يُعَلَّم إلّا للخاصة من أمثالك."

ناول حيدر الكاشف لياسمي قنينة بها سائل أصفر اللون ذو رائحة غريبة، هي نفسها التي أخذها من على الرف المقابل للنافذة.....

- "ضعي نقطة منه كل يوم على وجهك، ولن يرغب فيك الغازي بن مسعود، ولا أي أحد غيره."

- "وما عساه أن يكون هذا العطر الغريب؟" سألت ياسمي بعد أن شمَّته، غير راغبة في أن تضع على جسدها سائلاً غريباً، لا تعلم عنه شيئاً.

- "خلطة من تأليفي، وضعتها بعد دراسة طويلة لسلوك الحيوان قبل التزاوج وبعده وفي أثنائه. استطعت أن أستخلص مادة تفرزها ذكور القطط في بولها، عندما تمزج ببعض الأعشاب، التي سأعلمها لك لاحقاً، ينتج عنها هذا العطر الذي بين يديك، والذي يجعل الرجال يعافون المرأة التي تضعه."

عطر مصنوع من بول القطط! تذكرت ياسمي كيف كان بعض نساء المغول يضعن بول الخيل على أجسادهن قبل الاستحمام، ولكن من أجل نضارة بشرتهن وليس من أجل إبعاد الرجال عنهن!

- "أيها العالم الفاضل، أرجو أن تتم جميلك، وتسمح لنا بمغادرة هذه المدينة الرائعة، بعد أن تم اقتيادنا لها عُنوة من قبل أتباعك. فمثلك لا يقبل أن يعامل الأحرار هكذا."

أمعن حيدر الكاشف النظر في الفتاة التي عرض عليها ما لا يحلم به أحد من أتباعه، بأن تبقى في هذه المدينة التي ليس لها مثيل بين كل مدن الأرض، فتنهل من علمه الواسع، ولكنها ترفض عرضه السخي من أجل الذهاب مع رفقائها إلى عالم متخلف لكي تكون نعجة وسط مجموعة من الخرفان!

- "يبدو أن نشأتك بين العوام جعلتك تفكرين مثلهم، فهذا الحديث الذي سمعته منك الآن لا يقول به شخص من أهل الكشف."

- "ومن قال لكَ إني راغبة في أن أكون من أهل الكشف؟! فبرب السماء، هذا العالم المحجوب الذي أستطيع رؤيته دون أن أعرف كيف، لم يجلب لي سوى المتاعب! بحق هذا العلم الذي تؤمن به أنت، وبحق كل شيء عزيز عليك، دعني ومن معي نذهب في أمان، ولن يأتيك من طرفنا ما يضايقك أو يكدر عليك خاطراً!"

- "شيء مؤسف يا فتاة. لقد خيبتِ ظني فيك، كما خيب جُلَّاب ظني فيه بادعائه ما أنت لستِ أهلاً له."

نادى حيدر الكاشف جُلَّاباً الذي كان ينتظر بالخارج استدعاء سيده له. دخل المُبَخِّر إلى القاعة بلهفة ملحوظة، شاعراً بالزهو لأنه أتى بفتاة ينطبق عليها الوصف الذي طالما تلقنه من سيده ومعلمه الشيخ العالم، لمن كان يصلح للانضمام إلى دائرة حيدر الكاشف الصغرى.... فهذه الفتاة لديها القدرة والعقل، بجانب أنها لا تزال يافعة والمستقبل أمامها لكي تنهل من علمه العظيم، بل ولعلها تضيف

هي شيئاً لهذا العلم!

- "عُد بالفتاة. فلا حاجة لي بها." أمره حيدر الكاشف، ثم أدار ظهره لهما، وهمّ بالانصراف.

شعر جُلّاب بذهول شديد مما سمع! يريده أن يعيد ياسمي إلى الغازي بن مسعود؟!

- "مولاي! حتى لا أكون قد أسأت الفهم.... أعيدها إلى أين؟"

توقف حيدر الكاشف عن مشيه، ودون أن يدير ظهره أجاب:

- "إن كنت بحق لا تعلم الإجابة عن سؤالك، فأنت لست بالرجل الذي ظننته."

ثم انصرف من القاعة أمام ذهول كل من جُلّاب المُبَخِّر والفتاة المغولية ياسمي بنت جوشي بن جنكيز خان!

* * *

- "ما الذي حدث؟!" تساءل جُلّاب بصوت يعتريه القلق، وهو يقود ياسمي عبر دهاليز القصر إلى نور الجارية لتأخذها إلى جناح الغازي بن مسعود.....

- "لماذا أغضبتِه؟! لقد أضعت على نفسك فرصة لن تُعَوّض أيتها الفتاة الحمقاء!"

- "لم أحاول إغضابه! كل ما طلبته منه هو أن يتركني ورفاقي لكي نغادر في أمان."

- "ويحك أيتها فتاة، ويحك! حسبتك أفطن من هذا..... لا أحد يغادر وادي القُنَّب بعد دخوله، إلّا رجال القافلة فقط؛ حتى أهاليهم غير مسموح لهم بالمغادرة!" ردد جُلّاب، وقد زاد من

توتره ما سمعه من ياسمي، حتى كاد ينسى الطريق الذي جاء منه.

- "هل نحن أسرى إذاً في هذا المكان؟!" صرخت ياسمي، دون أدنى اكتراث لمن قد يسمعها من حرس القصر....
- "تدّعون أنكم أهل علم ومعرفة، وتتصرفون كقُطّاع الطرق!"
- "اصمتي! أستحلفك بالذي خلقك!.... آذان مولانا في كل مكان." توقف جُلّاب عن سيره، ملتفتاً نحو ياسمي.....
- "أردت إنقاذك من براثن ذلك الوغد." قال هامساً.....
- "مولانا حيدر الكاشف، هو الوحيد القادر على السيطرة عليه. لو أنه اتخذك حوارية له، لأصبحت محصنة من الغازي بن مسعود وغيره؛ ولكن الآن، أيتها الفتاة التعيسة، فلا شيء يحميك من شهوة القائم!"
- "ولكنه أعطاني هذا." ناولته قنينة العطر التي أعطاها إياها حيدر الكاشف.
- "ما هذا؟" تساءل جُلّاب، وهو يفتح القنينة ويشم مَحتواها، وما كاد يفعل حتى عُقد حاجباه وقد اعترته الدهشة....
- "هذا عطر الفُراق! مولانا أعطاك إياه؟!" لم ينتظر الإجابة....
- "لعل الأمر ليس بالسوء الذي حسبته. على الأقل لن يضايقك أحد، ولكن هذا لا يعني بأنك ستغادرين المكان. فكما قلت لك: لا أحد يغادر وادي القُنَّب إلّا رجال القافلة، وأنت لست من رجال القافلة.... هذا هو قدرك أيتها الفتاة، وعليك أن تتقبليه..... عليك أن تنسي كل شيء خارج أسوار هذه المدينة."

- "وماذا عن زوجي وباقي رفاقي؟!"

- "هم ليسوا من أهل الكشف. لقد وقعوا تحت تأثير مسحوق المِطْواع كسائر أهالي وادي القُنَّب. عليك أن تنسي أمرهم أيضاً، لأنهم قد نسوا هم أمرك."

أعـاد جُـلّاب قنينـة العطر لياسـمي، فأخذتها منـه دون أن تنطق بحرف تعليقاً على ما سمعته تواً منه، وقد أدركت حجم الكارثة التي وقعت فيها بهذا المكان المستتر بين الجبال، المسمى وادي القُنَّب!

18

وكأن القدر كان يتآمر معه، أم أن المسيح قد استجاب لدعائه؟! أيّاً كان السبب، لم يهتم يسوجي كثيراً إلا بأن الظروف قد أصبحت ملائمة لكي يخترق هذا السور العظيم! فما إن اكتمل عدد فرسانه العشر بعد أيام عدة من الانتظار، حتى ساد المكان ضباب كثيف، جعل المرء لا يستطيع رؤية ذراعه الممتد أمامه.... كل ما كان على قائد الفرسان المغولي أن يفعل، هو أن ينتظر قافلة من القوافل التي كانت تدخل بشكل يومي عبر ذلك السور، ثم يتسلل إليها هو وفرسانه دون أن يراه أحد وسط هذا الضباب الساتر، حتى يتخطوا البوابة، فيصبحون على الطرف الآخر منها!

عشرة فرسان من المغول ومعهم قائدهم، بسيوفهم وأقواسهم وأسهمهم في مواجهة قافلة من مئة رجل أو يزيد بجانب من كان على الطرف الآخر للسور من الحراس. الأمر سيكون في غاية الصعوبة لولا أن يسوجي وفرسانه يملكون ما هو أهم من الشجاعة والسلاح: عنصر المفاجأة!

تسلل يسوجي ورجاله، بعد أن عبروا البوابة دون عناء، إلى برج المراقبة الواقع في أعلى السور، دون أن يراهم أحد. لم يكن في البرج سوى رجلين؛ ما إن تنبها للأجساد الغريبة الوافدة عليهما، حتى خرّا على الأرض صريعين من أثر الطعنات المباغتة لسيف يسوجي.

اتخذ كل فارس موضعه على البرج، مصوباً سهمه في اتجاه

القناديـل المحمولـة من قبل رجال القافلة والحراس الذين بجوارهم. في وسط الضباب الكثيف لم يكن من الممكن رؤية الأهداف، ولكن القناديل فضحت مواقع حامليها، ما سـهل من مهمة فرسـان المغول؛ ومـا إن أعطـى يسـوجي الإشـارة حتـى انهـال وابل من السـهام على الرجال أسفل البرج! سهام لم يعلم الحراس من أين كان مصدرها؟ ومن هم مُطلقوها؟ وكأن أشباحاً قد غزتهم بعد أن اخترقت سورهم المنيع!

تهاوت الجثث الواحدة تلو الأخرى، ومن لم تقتله سهام المغول، كانت السيوف المسلولة التي أخذت تتخبط يمنة ويسرة، كفيلة بتأدية تلك المهمة! مضت دقائق عدة قبل أن تهوي آخر جثة على الأرض، لتُنذر بانتهاء تلك المعركة التي خاضها يسوجي وفرسانه من غير أن يفقـد رجـلاً واحـداً! حينها هبطوا جميعاً مـن على البرج ليتفقدوا أثر صنيعهم..... ما يزيد على المئة قتيل!

ابتسم يسوجي فرحاً لهذا الانتصار السريع، وإن كان يدرك جيداً أن الأمر لن ينتهي عند هذا الحد، وعليه الآن التصرف سريعاً قبل أن يتم اكتشـاف أمر هذه المجزرة من قبل الآخرين من سـكان الوادي؛ ولكن البحث في وسـط هذا الضباب الكثيف عن ياسـمي هو شـبه مستحيل، خاصة أنه لا يعلم أي شيء عن المكان..... الضباب الذي كان قبل قليل حليفاً له، قد أصبح الآن عائقاً أمامه، ولا بد أن ينتظر زواله، حتى إن طال هذا الأمر.....

- "تبـاً، فليـس هنـاك وقـت!" أخذ يحدث نفسـه في أثناء تجوله الحذر، ليستكشف ما يستطيع رؤيته من المكان الذي بدا له أكبر بكثير مما توقعه.

- "سيدي القائد!" جاء صوت أحد الفرسان منادياً على مسافة ليست ببعيدة من يسوجي، ثم جاء صاحب الصوت ممسكاً برَجلٍ مكسورة ذراعه من أثر رفسة خيل من جرّاء المعْمَعة التي حدثت قبل قليل.....

- "وجدته مختبئاً عند حظيرة بالقرب من هنا."

اقترب يسوجي من الرجل المصاب، شاهراً خنجره في وجهه.....

- "من أنت؟ وماذا يكون هذا المكان؟"

تلعثم الرجل، وقد شعر بالخوف من هؤلاء الذين ظهروا فجأة، وأسقطوا رفقاءه الواحد تلو الآخر بكل يسرٍ ودون عناء!

- "إن كنت باقياً على عينيك، فأجبني!"

- "أنا.... أنا سايس الحظيرة تلك." أجاب الرجل مرتعدةً فرائصه.

- "وأين نحن؟!" صرخ يسوجي في وجهه.

- "نحن في .... في وادي القُنَّب يا مولاي!"

- "أين باقي الأهالي؟ وأين المنازل؟ لا أرى سوى هذه الحقول من حولي!"

- "الناس يا مولاي في المدينة عبر النفق في آخر ذلك الطريق."

لم يكن باستطاعة يسوجي تبيان معالم الطريق الذي أشار إليه الرجل، على الرغم من أن الضباب قد بدأت حدته تخف.....

- "ما عدد سكان المدينة؟ وما عدد حراسها؟"

تردد الرجل مرة أخرى، قبل أن يضغط يسوجي بخنجره تحت

جفنه الأيسر ليُطلق لسانه....

- "عدد الحرررراس يُققارب الألف، أما السسسكان ففهم أكثر ببيكثير!"

ألف حارس، والآلاف من السكان! لم يتوقع يسوجي هذا العدد الكبير!

- "أخبرنـي.... هـل مَـرَّت من هنا فتاة مغوليـة ومعها رجل يرتدي عمامة خضراء؟" أراد أن يتأكد من وجود ياسمي في هذا المكان قبل أن يُقبل على مخاطرة قد لا تُحْمد عُقباها.

- "نعم، يا مممممولاي.... لقد.... لقد اقتيدت فتاة.... بدت عليهـا ملامـح مممممغوليـة إلى هنا قبل أيـام عدة، ووولكني لم أرررَ رجلاً بعمامة خضراء." أجاب الرجل ممتقع الوجه، وقد كاد يغشى عليه من شدة الخوف.

- "حسناً... لقد أبليت بلاءً حسناً." طمأن يسوجي الرجل، مزيحاً الخنجـر من تحت عينه، ليغرسـه بسـرعة خاطفـة في قلبه فأزهق روحـه وغـاب عـن الحيـاة، ثم رفسـه بقدمه إلـى الأرض، وكأنه يرفس كلباً أجربَ.

- "مولاي القائد، كيف سنواجه هذه الآلاف؟!" سأل أحد الفرسان، مبدياً شيئاً من القلق.

أشار يسوجي إلى الحقول المليئة بالشجيرات التي أخذت تلوح له مع انقشاع الضباب....

- "سنشعل هذا المكان... سنحوله إلى قطعة من الجحيم، ونحرق جميع من فيه!"

19

أن يتذكر الإنسان مآسيه، فذلك أمر مؤلم؛ ولكن أن يراها متجسدة أمامه، بكامل تفاصيلها، فذلك أمر لا يحتمل! والأسوأ من ذلك، أن تكون تلك المشاهد مألوفة وفي الوقت نفسه لا يمكن تصديقها، لأنها تخالف كل ما بات يعتقده ويؤمن به.

أراد مراد أن ينفرد بنفسه، بعيداً عن ياسمي وحيدر الكاشف؛ ولأول مرة شعر بقيمة هذه الحالة التي هو عليها التي تمكنه من الانفراد بنفسه بعيداً عن كل الأعين. أراد أن يراجع كل شيء في حياته، وكل ما كان يعلمه عن نفسه. أراد أن يتأكد إن كان ما رآه هو نفسه وتلك كانت حياته. ولكن من هي سوسن ذكري؟ فهو لا يحمل أي ذكرى لعلاقة كانت تربطها به. بل حتى أبيه وأمه فبجانب معرفة اسمهما، لم يكن يحمل أي صورة ذهنية لهما. ذكريات شبابه كانت مجرد رتوش خالية من التفاصيل، ولم يكن في تلك الرتوش أي شيء مما يوحي بفظاعة تلك الذكريات التي شاهدها حية أمامه! ولكن العجيب في الأمر أنه في الوقت نفسه كان مدركاً أن تلك المشاهد كانت حقيقية، وأنها جرت بالفعل! كان على يقين من ذلك، دون أن يفهم كيف! وعلى الرغم من هذا اليقين بأن ما شهده قد حدث، إلّا أن المُحَيِّر في الأمر أن تلك الأحداث لا تتماشى مع الذكريات المفصلة التي كان يحملها عن سنوات حياته الأخيرة في جدة والرياض. فكيف لم يتعرف إلى وجيه ذكري، عندما أراد خطبة

هديل، وهو زوج أختها؟ كيف لم يربط بينه وبين من سرق أمه من أبيه؟ إلّا إذا لم يكن قد التقى هديل من قبل، ومن ثم لم يلتقِ وجيه من بعد ما تزوج أمه؛ وهذا ما كان يتماشى مع إنكار هديل معرفتها بـه، عندمـا التقاهـا في قصر غانم السـاعدي..... فهل كان يحمل إذاً ذكريـات مصطنعـة، لا وجـود لأحداثهـا علـى أرض الواقع؟! ولكن كيف؟! ولماذا؟!

بعـد أيـام مـن الانفـراد بنفسـه.... أياماً لم يشـعر بهـا أو يدرك عددهـا.... شـعر برغبـة ملحـة فـي معرفـة المزيـد. أراد أن يعلـم ما الذي حدث له بعد ذلك، كما أراد أن يفهم ما الذي حدث له عندما زار ذلـك المقـام مـع أبيـه، وجعله بعد ذلك يكتسـب تلـك القدرات العجيبـة التـي لـم يكـن يعلم أنـه يمتلكهـا، أو كان يمتلكها! في تلك المشاهد التي رآها مراد، كان أبوه قد وضعه على أول الطريق. تلك المخطوطـة التـي ذكرهـا والّتي ألّفها جُلّاب عن أهل الكشـف، وذكر فيها أم الوفا..... فهل مؤلفها هو نفسـه الرجل الذي حاول مسـاعدة ياسمي؟! لا يمكن أن تكون تلك مجرد مصادفة! ولا يمكن أن تكون الأبيات التي نُقشت على المقام، والّتي هي في الوقت نفسه من نظم أم الوفا، مجرد مصادفة! ولا يمكن أن يكون سـماع ياسـمي للأبيات نفسـها فـي رؤيتهـا مجـر د مصادفـة! الأمر أعقد من ذلـك بكثير؛ فهو متصل ببعضه البعض بشكل ما، أخذ مراد يفكر. وجوده في هذه الحالة التي هو عليها في هذا الزمن ومع ياسمي حتماً له معنى، وإن كان لا يدركه بعد..... لأول مرة تمنى مراد لو أن عبدالرحمن لم يختفِ، فهو الوحيـد القـادر علـى التحدث معه في أي وقت من دون الحاجة إلى تلـك المسـاحيق والعقاقيـر؛ وعلـى الرغم مـن أن أحاديثه كانت كلها ألغازاً، إلّا أن ألغازه كانت أفضل من لا شـيء على الإطلاق! فعلى

أقل تقدير كانت تجعله ينظر إلى الأمور بمنظارٍ آخر عمّا تعود عليه؛ ولكن أين هو عبدالرحمن عندما تريده؟!

* * *

وجد مراد ياسمي في منزلٍ شبه خالٍ ليس ببعيدٍ عن القصر، كانت تقيم فيه وحدها، وبين الفينة والأخرى يمر عليها جُلّاب، جالباً معه بعض حوائجها. لم يستطع مراد التواصل مع الفتاة، إذ لم يكن بمقدورها رؤيته من غير مسحوق حيدر الكاشف، ولكن هذا الأمر لم يثنِه عن البقاء في محيطها، فلعل الشيخ العالم يستدعيها مرة أخرى، ويستخدم معها ذلك المسحوق؛ ولكن مع مرور الأيام، كان ذلك الاحتمال يتضاءل، خاصة أن جُلّاب لم يكن يحمل معه أي أخبار مطمئنة على هذا الصعيد، فمن الواضح أن حيدر الكاشف لم يعد راغباً في لقائها، وإن كان قد ساعدها على التخلص من شهوة الغازي بن مسعود ورجاله من خلال ذلك العطر الذي أعطاها إياه، فتيسر لها الخروج من القصر بعد أن وافق القائم على طلب المُبَخِّر بأن يأخذها جارية عنده؛ وذلك مكّنها أيضاً من الإفلات من أعين الحاجب ورجاله، وبذلك لا ينكشف لهم أنها لم تقع تحت تأثير مسحوق المِطْواع كباقي رفقائها الذين كانوا في حالة مزرية من الخضوع التام لرجالات القصر، حتى إن ياسمي، عندما تقابلت خلسة مع نوران، قبل أن تذهب إلى بيت جُلَّاب، وجدتها تخدم في القصر من دون كلل أو ملل كأي خادمة متمرسة في هذا العمل دون أن تبدي أي امتعاض، بل على العكس من ذلك كانت في غاية السعادة، ولا تريد مغادرة المكان!

لم يكن حال محمود بن ممدود، وكذلك محمد الطوسي مختلفاً كثيراً عن حال نوران؛ فقد علمت ياسمي أن زوجها لقوة بنيانه قد

أُخـذ إلـى درك القصـر لتهيئتـه لكي يكون جـزءاً من فيلقه؛ أما محمد الطوسـي فكان مصيره العمل مع مُزارع القصر مسـاعداً له؛ وكلاهما كانـا سـعيدين بمـا يقومان بـه من مهام في خدمة مدينـة وادي القُنَّب وأميرها "مولانا حيدر الكاشف قدس الله سره"!

حاولت ياسـمي أن تفهم من راعيها الجديد، سـر هذا الخضوع التـام لرفقائها، وإن كان بوسـعها مسـاعدتهم علـى أي نحو للتخلص ممّا هم فيه من ذلّ وهوان....

- "دعيهم وشـأنهم، فهم على الأقل سـعداء بحالهم، غير مدركين لمصابهم؛ أما أنت أيتها المسـكينة، فسـتضطرين إلى العيش هنا واعيـة لمـا جـرى لـك ولرفقائك، ولكـن متظاهرة بعـدم الوعي، هذا إن أردت ألا ينكشف أمرك أمام الغازي بن مسعود وحاجبه اللعين!" قال جُلّاب مخاطباً ياسـمي بعد أن اسـتطاع أن يقتادها إلى بيته خارج القصر قبل أن تفضح نفسها برعونتها.

- "ولكن هذا الحال الذي أحدثتموه فيهم، أهو دائم؟" تساءلت ياسمي بشغف ملحوظ.

- "لا يوجد مفعول دائم من صنع الإنسان. هذا ما اكتشفته من خـلال مرافقتـي لمولانـا حيدر الكاشـف. لذلك يُوضـع لهم مع الطعـام والشـراب القليـل مـن المِطـواع مـن أجـل إبقائهـم على حالهـم؛ ولكـن صدّقيني أيتهاالفتـاة، هذا أفضل لهم، وليتك أنت أيضـاً لـم تكوني من أهل الكشـف، فعلـى الأقل حينها لن يكون عقلك هو سبب شقائك."

- "تباً لهذا المكان!" صرخت ياسمي.....

- "لا أفهم كيف يمكن لمدينة بهذا الرقي الظاهر أن يكون باطنها هو عين الظلم والقهر!"

- "ستتأقلمين، كما تأقلمنا جميعنا، إن عاجلاً أم آجلاً؛ الإنسان لديه قدرة عجيبة على التأقلم مهما كانت الظروف غير ملائمة له، بل وفي أحلكها.... كنت أتمنى أن تكون ظروفك أنت أفضل من هذا، لهذا قدّمتك لمولانا حيدر الكاشف، فأنت من أهل الكشف، ومكانتك...."

- "أهل الكشف.... أهل الكشف! لقد سئمت من هذا الوصف الذي إلى الآن لا أفهم له معنى!" قاطعته ياسمي بامتعاض شديد، ثم ذهبت إلى النافذة المطلة على الخارج، مديرة له ظهرها، لكي لا يرى دمعة طارفة تمكنت منها على غير رضاها.

- "لا ينبغي للمرء أن ينكر حقيقته، مهما كانت هذه الحقيقة مؤلمة وجالبة للمصاعب. أنت هو من أنت، ولا يمكن لك أن تغيري هذه الحقيقة البسيطة مهما فعلت."

- "ولكني لا أعلم من أكون وماذا أريد!" هنا لم تتمالك ياسمي نفسها، وتركت العنان لدموعها لكي تنهمر دون أدنى حذر، وقد شعرت بالإعياء من كثرة المقاومة، فلم تعد تمتلك القوة نفسها التي تسلحت بها من قبل.

لم يسعَ جُلّاب للرد عليها، بل آثر الخروج من المنزل، ليتركها على حالها، مدركاً أن الاختلاء بالنفس في أحيان كثيرة قد يكون هو المطلب الأنفع للإنسان....

على مدى أيام تلت، ظل يمر عليها جُلّاب بين الفينة والأخرى من أجل جلب بعض احتياجاتها من طعام وشراب..... استمر على

هذا الحال حتى ظن ذات يوم غائم أن الوقت قد حان لكي يتحدث مع الفتاة ذات القدرة الفريدة، حتى يجيبها عن بعض تساؤلاتها، ولكنه آثـر أن يكـون الحديـث خـارج المنـزل الذي ظلت أياماً عدة حبيسـة لحيطانه، وفي الهواء الطلق بين شـوارع المدينة التي غمرها الضباب قبل ساعات.....

- "أعشق السير في طرقات المدينة عندما يكسوها الضباب. لسببٍ ما لا أزال أجهله، أشـعر وكأني أراها بشـكل أوضح وهي على هذا الحال." بادر جُلّاب بالحديث.

- "هل ولدت هنا، أم جيء بك عنوة مثلنا؟" لم يكن سؤال ياسمي بريئـاً، بـل أرادت أن تبيـن له أنها لا تزال تشـعر بالأسـر في هذا المكان، على الرغم من حسن معاملته لها.

- "نعـم، ولـدت فـي وادي القُنَّـب، ونشـأت فيه، وأظنني سـأموت هنا أيضاً؛ حالي كحال كل أهالي المدينة من غير رجال القافلة. مولانا حيدر الكاشف بعد طول تجوال بين أصقاع الأرض على مـدى سـنوات عمـره المديدة، قد ارتـأى أن العامة من الناس إن تركـت وحدهـا مـن غيـر من يرشـدها، فسـتضل الطريـق وتلحق بنفسها الأذى والويل؛ فالإنسان بطبعه كائن فاسد مُفسد، ذو نزعة شهوانية لا يشبعه شيء ولا يملأ عينه إلّا التراب."

- "أهكذا الإنسان فعلاً؟ بهذا السوء؟!" لم يكن السؤال بغرض الاستفسار بقدر ما كان لغرض الإنكار.

- "ليس جميعهم. فأهل الكشف من أمثالك هم الاستثناء من هذه القاعدة. لذلك أنت لست كباقي الناس."

- "ومـا الـذي يجعلنـي أتميز عن باقي البشـر؟ كوني أرى عالماً مـن الأشـباح عندمـا أتعـرض لذلك المسـحوق الذي يسـتخدمه مولاك؟!"

- "العالـم المحجـوب ليـس بعالم أشـباح، بـل هو لا يقل واقعاً عن هذا العالم الذي نسير فيه الآن؛ ولكن الأمر أبعد من كونك تستطيعين الاطلاع على ذلك العالم، بل يتعداه إلى ما هو أبعد من ذلك. هل تعلمين السـر وراء عدم اسـتجابتك لمسحوق المطواع كما اسـتجاب له رفاقك؟ بل إني أسـتطيع القول إنه في عشـرين سنة من التبخير، لم أصادف شخصاً واحداً استطاع مقاومته مثلك أنت!"

- "لأني من أهل الكشف!" أجابته ياسمي بتهكم.

- "لأنك تمتلكين عقلاً يرشده قلب، وقلباً يحكمه عقل..... هذا ما أخبرني به مولانا حيدر الكاشـف، عندما سـألته عنك، ولهذا استخسـرك على الغازي بن مسـعود، ولم يتركك له، حتى بعدما أغضبتِه."

- "كيـف يصفنـي وهـو لا يعرفنـي؟! أنـا لم التقِه سـوى مرة واحدة فقط."

- "مولانا، قدس الله سـره، يكفيه لقاء واحد، لمعرفة جوهر الذي يقف أمامه." قال مَزْهواً بشيخه ومعلمه.

- "مـولاك فقـد صوابـه، إذ يظـن أنه من حقه بما أوتي من علم وفير، أن يتحكم في مصائر الناس! لقد نصَّب نفسـه إلهاً، وأنتم ناصرتموه على ذلك."

هالَ جلّاب ما سمعه من الفتاة.... فكيف تجرأت على الحديث هكذا عن مولاه الشيخ العالم؟! توقف عن سيره مُلتفتاً نحو ياسمي شاخصاً عينيه، وما كاد ينطق معترضاً على ما قالته بشدة، حتى وجد صوته قد ضاع وسط أصوات العربات المحملة بالعسس التي مرت مسرعة أمامه في اتجاه النفق المؤدي إلى الجانب الآخر من وادي القُنَّب، خارج المدينة، حيث بدأت تلوح له، مع زوال الضباب الكثيف الذي غمر الوادي، آثار نيران ملتهبة دلّ عليها الدخان الأسود المتصاعد، وكأن بركاناً لا أحد يعلم عنه قد انفجر، بعد أن ظل طوال السنين الماضية متوارياً عن الأنظار!

20

ما إن عبرت العربات النفق، حتى تبين للعسس الحريق الهائل الذي اجتاح مساحات كبيرة من حقول القُنَّب والخشخاش. لم يشهد أحد منهم حريقاً هائلاً كهذا من قبل.... نعم، كانت تحدث بين الفينة والأخرى بعض الحرائق بسبب العواصف الرعدية، أو سقوط قنديلٍ بالخطأ في الحظيرة، ولكن سرعان ما كان يتم إطفاؤها من قبل حراس السور أو العاملين في الحظيرة والحانة الملحقة بها؛ أما أن يصل الحريق إلى هذا الحد المهول، فكان أمراً غير مسبوق.....

- "اذهب أنت يا أفضل إلى المدينة وأحضر عدداً أكبر من الرجال، فسنحتاج إلى المزيد من السواعد للسيطرة على هذه النيران!"

أمر قائد العسس أحد جنوده، ثم بدأ بالتوجه مع باقي رجاله إلى البئر الواقعة بجانب الحظيرة الكبيرة بالقرب من سور الوادي نحو الشمال. كان الدخان المنبعث من النيران كثيفاً وحاجباً للرؤية، ومع ذلك استطاع القائد أن يرى عدداً من الخيول القادمة نحوهم عدواً من بعيد..... في بادئ الأمر ظن أنهم قد يكونون بعض رجال القافلة أو حراس السور القادمين للمساعدة على كبح جماح النيران، ولكن مع تزايد عدد الخيول الذي بلغ العشرات ومع اقترابهم، أخذ يتبين له ما لم يرد على الخاطر أو يكن على البال!

- "سيدي إنهم متوجهون نحونا حاملين الرماح!" صرخ أحد العسس مدركاً، كما أدرك باقي رفقائه، سبب هذه النيران! فقد

حدث المستحيل! حدث ما لم يتخيل أحد من سكان وادي القُنَّب أنه بالإمكان! لقد تم اختراق السور العظيم من قبل غزاة!

* * *

ما لم يدركه أي من رجال العسس، بسبب الدخان الحاجب للرؤية الجيدة، وكذلك بسبب هول المفاجأة، أن هذه الخيول كانت تحمل أجساداً متصلبة لا تكاد تتحرك إلا بسبب اهتزازات الخيول وهي تعدو؛ وأن هذه الأجساد كانت ملطخة بالدماء، وسواعدها مربوطة بحبالٍ إلى السروج! مسرحية تعلمها يسوجي من جنكيز خان ليوهم أعداءه بأعدادٍ من المقاتلين أكثر بكثير مما كانت موجودة على أرض الواقع. ولأن الناس بطبعهم ينظرون دون أن يروا، ويُصَدِّقون قبل أن يعوا، كانت هذه الخطة غالباً ما تنجح في إحداث المنشود منها: زرع الرعب في نفوس الخصوم من أعدادٍ لا قبل لهم بمواجهتها!

عمّت الفوضى بين رجال العسس، خاصة بعدما اخترقت الخيول صفوفهم، وجرحت الرماح كثيراً منهم. حاول القائد أن يوجه الرجال بقدر الإمكان إلى أن خرّ صريعاً نتيجة سهمٍ أُطلق من بعيد اخترق صدره، ما زاد من ذعر رجاله، إذ ظنوا أن للجيش المُهاجم بقية كبيرة لا تزال مستترة خلف الدخان! كان يسوجي ورجاله يلتقطون العسس الواحد تلو الآخر بالسهام من مواقعهم البعيدة، كما فعلوا مع رجال القافلة وحرس السور، ولكنهم حرصوا على الإبقاء على حياة عددٍ قليلٍ منهم، حتى يذهبوا إلى المدينة مذعورين، فيخبروا الأهالي بنبأ هذا الهجوم المُباغت من قبل "جيشٍ جرارٍ للغزاة"، فتعم بذلك الفوضى أرجاء المدينة؛ والفوضى عادة ما يُصاحبها الأخطاء، وبسبب الأخطاء تزداد الفوضى، وعلى هذا تستمر وتيرة الأحداث إلى أن تُشلّ المدينة بأكملها، فتصبح لقمة سائغة لعشرة فرسان من المغول، ومعهم قائدهم!

21

انتشـر خبر الغزاة في المدينة كانتشـار النار في حقل شـجيرات القُنَّب بالطرف الآخر للوادي! لم يصدق بعضهم أن هذا الأمر الذي لم يحدث من قبل، هو حادث الآن..... "مستحيل؟! فكيف استطاعوا اجتيـاز السـور؟! وبهـذه السـرعة؟!!"... الأمـر برمتـه كان بلا معنى، وغيـر مفهـوم، مـا زاد من ذعر الأهالي، فأمسـوا يتخبطون من الهلع، غيـر مدركيـن مـا الذي يجب فعله! بعضهم ذهبوا إلى التمثال العظيم لحيدر الكاشف في وسط الساحة، وأخذوا يبتهلون أمامه طالبين من شيخهم العالم بخبايا الأمور أن ينقذهم من هذا البلاء العظيم! آخرون ذهبوا إلى بيوتهم، وأغلقوا على أنفسهم الأبواب. قلة قليلة هي التي ذهبـت وحملـت السـلاح من أجل الدفاع عـن مدينتهم، ولكن هؤلاء سرعان ما سقطوا صرعى لِنِصال سيوف فرسان المغول الذين عبروا النفق، آخذين معهم جنودهم الأموات من أجل إيهام سـكان المدينة بأعدادهم الغفيرة، مشـعلين النيران في عدد من المباني حتى يزرعوا المزيد من الهلع في نفوس الناس، ولكي يداري الدخان المنبعث من الحرائق حقيقة أعداد الغزاة!

* * *

- "اذهبـي إلـى المنـزل الآن، وأغلقـي الباب عليك حتى أعود!" صـرخ جُـلّاب عـن بعد مخاطباً ياسـمي، بعد أن عاد مهرولاً من آخر الشـارع الذي ذهب إليه قبل قليل، ليستكشـف سـبب الربكة

المفاجئة التي عمّت المدينة.

- "ما الخطب؟" تساءلت ياسمي غير مدركة ما الذي كان يحدث.

- "غُـزاة دخلـوا وادي القُنَّـب! انطلقي الآن إلـى المنزل، فلا وقت هناك لكثرة الأسئلة!" أمر جُلّاب الفتاة ثم أخذ يتجه نحو القصر.

- "وماذا عنك أنت؟ لماذا لا تأتي معي؟!"

- "سأعود بعد الاطمئنان على مولاي حيدر الكاشف!"

لم ينتظر هذه المرة لسماع أي رد من الفتاة، واستمر نحو القصر الكبير.....

الفوضى في المدينة كانت تزداد مع كل دقيقة تمرّ، خاصة بعدما أخـذت النيـران تقفـز مـن مبنى إلى آخر بجـواره..... "من هم هؤلاء الغزاة؟!" أخذ جُلّاب يتسـاءل مع نفسـه، ثم سـمع عدداً من الأهالي، وهـم يصرخـون هلعـاً بأنهـم المغـول، بقيادة جنكيز خـان، قد علموا بطريقة ما عن وادي القُنَّب، فجاؤوا بعدما أسقطوا بخارى....

- "من المؤكد أنهم سمعوا عن خيرات هذا المكان...." قال أحد العسس مخاطباً زميله.

- "ربما تتبعت الكشافة إحدى القوافل القادمة إلى هنا، ثم أخبرت باقي الجيش بموقع الوادي!" أجابه رجل آخر.

ظل جُلّاب يحاور نفسه في محاولة منه لوضع تفسير لما حدث، حتى وصل إلى بوابة القصر في اللحظة التي ظهر فيها الحاجب من الداخـل ليعطـي أوامـره بإغلاق جميع المنافذ.... دقيقة واحدة، وما كان بإمكانه دخول القصر!

- "سيدي الحاجب! ما الذي يحدث؟!"

لـم يهتـم الحاجـب بالإجابة عن سـؤال المُبخِّر، فـأدار له ظهره بعدما اطمأن أن البوابة الرئيسـة للقصر قد أُغلقت، وانطلق في اتجاه قاعة القائم الغازي بن مسعود.....

حاول جُلّاب أن يستفسر من أحد حراس القصر، ولكن جميعهم كانوا في حالة من العجلة للتأكد أن جميع النوافذ والأبواب مصفدة.

- "إن اسـتطاعوا اقتحام سـور الوادي العظيم، فلن يعجزوا عن اقتحام هذا القصر!" سمع أحد الحراس يخاطب رفيقه في حالة من الهلع.

- "سـمعت من أحد العسـس الذين شـاهدوا الاقتحام أنه جيش المغول بقيادة جنكيز خان!"

- "هل تعلم كم تعدادهم؟!"

- "عشـرات الآلاف علـى أقـل تقديـر! جيـش جـرار لا قبـل لنا بمواجتهم، لذلك أمر الحاجب بإغلاق جميع منافذ القصر لشراء بعض الوقت، حتى يتمكنوا من الهروب عبر النفق السري."

"هل هذا ما ينوون فعله؟!" أخذ جُلّاب يتساءل، بعدما اختلس السمع للحوار الذي دار قبل قليل بين حُرّاس القصر..... "ولكن ماذا عن أهالي المدينة؟! ماذا سيكون مصيرهم؟!"..... انطلق على الفور إلى البرج الجنوبي للقصر، حيث قاعة حيدر الكاشف.... "لا شك أن مولانـا قـد عَلِـم بما جرى".... فلو كان لأحدٍ أن يوقف هذا الزحف المغولي، ظَنّ جُلّاب المُبخِّر، فلن يكون غير مولاه قدس الله سره!

22

- "وأين كانت عيوننا؟! كيف استطاع جيش جنكيز خان الوصول إلـى وادي القُنَّـب دون أن نعلـم؟!!" صـرخ الغازي بن مسـعود، موجهاً أسـئلته لمن تبقى من حاشـيته الذين تمكنوا من البقاء في القصر عندما أغلقت أبوابه.

- "مـولاي..... إنهـم ليسـوا مـن البشـر! هـم أشـبه بالجن! لقد خرجـوا علينـا مـن وراء النيـران وكأنهـم خُلقوا منهـا، فلا يمكن لها أن تمسهم بالأذى!" قال أحد رجال العسس الذين استطاعوا الفرار.

- "تباً لهؤلاء المغول! إنهم أسوأ من الطاعون، ويتكاثرون كالفئران! مـا كان ينبغـي لنـا أخذ حفيدة خانهـم.... حتماً جاء لكي يبحث عنهـا." صمـت الغازي بن مسـعود قليلاً، متأمـلاً الجملة الأخيرة التي نطق بها، ثم فجأة وثب نحو وزيره.....

- "ماذا لو سلمناها له؟ لعله يتركنا وشأننا!"

- "مولاي.... لقد فات أوان ذلك. إنهم يحرقون المدينة بعد أن حرقـوا الحقـول! جنكيـز خان لم يأتِ بهـذا الجيش الجرار فقط لكي يسـترجع حفيدته. إنه ينوي فعل ما فعله مع بخارى وأترار مـن قبلهـا..... تسـوية المدينة علـى الأرض، والقضاء علينا عن بكرة أبينا!" أجابه الوزير مرتجفاً.

- "إذاً ما الحل؟! ألا يمكننا الصمود هنا في القصر؟" تساءل موجاً نظره إلى الحاجب الذي ظل متماسكاً إلى تلك اللحظة، بخلاف باقي الموجودين.

- "أبواب القصر لن تقف عائقاً أمامهم لمدة طويلة. إن تحركنا الآن، نستطيع الفرار عبر النفق السري إلى الحظيرة الخارجية على الجانب الآخر من الجبال، وحينها نكون قد فلتنا منهم، ولن يكون بإمكانهم تعقبنا."

- "وماذا عن مولانا حيدر الكاشف؟ لعله يستطيع إنقاذنا من هذا البلاء دون الحاجة إلى الفرار!" قاطع الوزير الحاجب الذي اكتفى بنظرة باردة وجَّهها إليه دون أن يكترث كثيراً للرد عليه.

- "لو كان باستطاعة مولانا فعل أي شيء لفعله...... على أي حال، لكي نذهب إلى النفق لا بد من المرور عبر قاعته الخاصة، وحينها سنلتقيه ونرى إن كان بوسعه فعل أي شيء." أجابه الغازي بن مسعود ببرود.

- "ولكن هذا لا يمنع يا مولاي، أن نحزم أمتعتنا، ونأخذ ما نستطيع حمله من الغالي والثمين من باب الحيطة؛ فالوقت يداهمنا وأخشى أننا لن نستطيع العودة مرة ثانية إلى هنا بعد الذهاب إلى قاعة حيدر الكاشف."

وافق الغازي بن مسعود على اقتراح حاجبه، مدركاً في قرارة نفسه أنه لا مفر من الهروب بعد أن أُقْتُحِمَت المدينة، خاصة أنها غير مهيأة لمواجهة ذلك الاقتحام من قبل جيشٍ جرار؛ كذلك لم يكن على ثقة بأن حيدر الكاشف بكل ما أوتي من علم ومعرفة، قادر على مواجهة طوفان المغول تحت قيادة جنكيز خان!

23

كان حيدر الكاشف واقفاً أمام النافذة المطلة على الساحة الكبيرة، عندما دخل عليه جُلّاب، يطالع من خلالها مدينته التي كانت تشتعل فيها النيران، وتبتلعها من كل جانب. لم يحرك الشيخ العالِم ساكناً، بل ظل يراقب المشهد كباحث يرصد وقائع لا تمت له بصلة! لم يفهم جُلّاب سبب هذه الحالة من عدم الاكتراث التي بدا عليها شيخه..... فهل كان على ثقة بأن الغزاة سينهزمون؟ هل حضَّر لهم بعلمه الواسع مفاجأة ستسحقهم وتردّ كيدهم في نحورهم؟! أخذ المُبَخِّر يتساءل مع نفسه في أثناء اقترابه من شيخه العالِم، حتى أصبح على مسافة ذراعٍ منه. ظل صامتاً غير راغبٍ في كسر تأملات الشيخ، على أمل أن يلتفت هو إليه وقتما شعر برغبة في الحديث معه؛ ولكن بعد مرور دقائق عدة على هذا الحال دون أن يلتفت إليه مولاه حيدر الكاشف، شعر جُلّاب بأنه ربما من الأوجب أن يُبادر هو بالحديث.....

- "مولاي.... المدينة تحترق، والناس تتخبط من الهلع بعد أن عمّت الفوضى في أرجاء وادي القُنَّب تحت وطأة هجوم الغزاة! يبدو أن الجند قد قُتل منهم أعداد كبيرة، حتى أن الحاجِب أمر بإغلاق أبواب القصر!"

لم يردّ حيدر الكاشف على ما قاله جُلّاب، وظل على حاله يطالع من النافذة....

- "مولاي.... عفواً يا مولاي.... أرجو ألا تؤاخذني على هذا

السؤال، ولكن..." تردد قليلاً قبل أن يكمل:

- "ألن تفعل شيئاً؟"

أدار حيدر الكاشف وجهه نحو تابعه، ودون أن يظهر أي قلقٍ لما سمعه تواً، قال بصوته الهادئ:

- "خُذها وارحل، ودع الحلقة تكتمل."

لم يفهم جُلّاب القصد من مقولة شيخه، وما كاد ينطق مستفسراً عمّا سمعه، حتى فُتح باب القاعة بقوة، ليدخل منه الغازي بن مسعود على عجل، وحاشيته من ورائه يتبعونه.....

- "مولانا يجب علينا الرحيل الآن!" صرخ الغازي بن مسعود، مندفعاً نحو حيدر الكاشف.....

- "لقد تمكن المغول بقيادة جنكيز خان من اختراق الوادي والمدينة! ما هي إلى مسألة وقت حتى يتمكنوا من اقتحام القصر!" ثم أضاف هامساً في أذنه:

- "جمعت قدراً كبيراً من الماس والأحجار الكريمة لنأخذها معنا... بها وبعلمك الواسع، ستتمكن من إنشاء مدينة أخرى مثل هذه وأعظم."

تجاهل الشيخ العالم محدثه... لم يلتفت له، مكتفياً فقط بالنظر نحو ما تبقى من الساحة الكبيرة التي أتت عليها النيران، وحجب دخانها الأسود الكثيف ما تبقى من بنايات المدينة.

- "مولانا! ينبغي علينا أن نتحرك الآن قبل فوات الأوان!" كرر الغازي بن مسعود ولكن دون جدوى..... أومأ برأسه لحاجبه لكي يقترب منه، ثم همس في أذنه:

- "هل توجد لديك نسخة أخرى من مفتاح السرداب الذي يقود إلى النفق؟"

- "كلّا، لا توجـد سـوى النسـخة الوحيـدة التـي يحملهـا حيـدر الكاشف."

أدار الغازي بن مسعود رأسه نحو الشيخ الذي بدا له غير راغبٍ إلا في الوقوف أمام النافذة ليتأمل المدينة وهي تحترق!

- "إن لم ترغب في الفرار معنا، فأعطني المفتاح حتى نتمكن نحن من الفرار."

لم يتلقَّ أي رد، ما زاد من حنقه. التفت نحو المُبخِّر الذي كان واقفاً على يسار الشيخ، ثم سأله بنبرة لم تخفِ غضباً:

- "هل تعلم أنت أين مفتاح السرداب؟"

هز جُلّاب رأسه بالنفي، ثم قال مضيفاً:

- "مولانا هو فقط من يعلم مكانه."

نفد صبر الغازي بن مسعود؛ مستشعراً الخطر الذي كاد يداهمه، وجـد نفسـه دون أن يشـعر قابضـاً ذراع حيـدر الكاشـف ويصرخ في وجهه:

- "أعطني المفتاح الآن، وإلّا!"

انتفض جُلّاب على الفور مما رآه يحدث لشيخه، وما كاد يتدخل حتى وجد نفسـه وقد دُفع إلى الأرض من قِبَل الحاجب الذي احتل مكانه على يسار حيدر الكاشف، ممسكاً بذراعه الآخر، ثم أخذ يفتشه!

- "ويلكـم! هـل جننتـم؟! كيف تفعلون هذا مع مولانا؟!" صرخ جُلّاب، دون أن يلتفت إليه الحاجب أو سيده.

- "ها هو ذا!" صرَّح الحاجب ممسكاً بمفتاح صغير داخل جيب حيدر الكاشف؛ وما كاد يفعل حتى خرجت منه صرخة ألمٍ مدوية أشعرت جميع من كانوا في القاعة بالهلع! إذ أمسك الشيخ العجوز بمعصم الحاجب، مانعاً إياه من أخذ المفتاح. حاول الحاجب أن يفلت من قبضة حيدر الكاشف، ولكن دون جدوى، فما كان منه إلّا أن يسقط على ركبتيه من الألم الشديد الذي كاد يفقده وعيه!

بدأ الآخرون في التراجع لهول المشهد الذي كان يحدث أمامهم، إلّا الغازي بن مسعود.... التراجع بالنسبة إليه كان يعني الموت المحتم على أيادي المغول! لم يكن أمامه سوى خيار واحد.... كان عليه أن يتصرف في الحال إن أراد أن يفلت من بطش المغول وقبضة حيدر الكاشف!

لم يصدق جُلّاب ما كان يحدث أمامه. لقد رآه بأم عينيه وهو يُخرج الخنجر من غمده! أراد أن يصرخ محذراً شيخه، ولكن صوته خانه.... لسبب ما لم يستطع إخراجه من حنجرته! ربما لهول المشهد الذي لم يتخيل في يوم من الأيام أنه ممكن الحدوث، أو ربما لأنه لوهلة قصيرة شعر بالفزع الشديد! أيّاً كان السبب، النتيجة كانت واحدة.... شاهد شيخه العالِم ونصل الخنجر يخترق أحشاءه "الشريفة"! شاهد الدماء وهي تُلَطِّخ ملابسه "الكريمة"! شاهد حيدر الكاشف وهو يسقط على الأرض التي كانت قبل قليل تحت قدميه يسير عليها، دون أن يبدي أي مقاومة، وكأنه أراد لهذا الفعل أن يكون! ثم شاهده أخيراً وهو ينطق بكلمات لم يسمعها أحد غيره، قبل أن تفارق نفسه "العطرة" جسده "الشريف"، وكأنه كان يقول له:

- "خذها وارحل.... دع الحلقة تكتمل....."

24

الأمر بدا لمراد في غاية الجنون! وكأنها مسرحية هزلية أبطالها مـن المخابيـل! مـا هذا الذي كان يحدث أمامه؟! فكيف يمكن لأحد عشر رجلاً أن يغزوا مدينة ويدمروها بعد القضاء على حراسها البالغين أضعاف عددهم؟! وأي مدينة كانت هذه؟! فهي على درجة من التقدم والتطـور مـا يفـوق باقي المدن في زمانها؛ مدينة سـابقة لعصرها بكل ما تحتويه هاتان الكلمتان من معنى!

ظـل مـراد قطـز يراقـب المشـاهد المتمثلة أمامـه دون أن يكون بمقدوره فعل أي شيء؛ فمن غير ذلك المسحوق المسمى بالوسْكا، لم يكن باستطاعة ياسمي أن تراه وتخاطبه. أما حيدر الكاشف، فمنذ ذلك اللقاء الوحيد معه في قاعته بحضور ياسمي، لم يستطع الوصول إليـه مجـدداً، وكأن الشـيخ العالِم قد وضـع حاجزاً بينهما حتى يمنعه من الاقتراب منه. شيء عجيب هذا الذي كان يحدث، وإن كان مراد قد بدأ يعتاد على كل ما هو غريب وعجيب! خطرت قصة على باله، لـم يتذكـر أيـن سـمعها أو قرأها، ولكن تحت وطـأة الظروف الراهنة التـي كان يشـهدها، ألحّـت بنفسـها عليـه مـن غير أن يبـذل أي عناء لاستحضارها. القصة كانت تحكي عن ذئبٍ دخل مزرعة بها المئات مـن الخرفـان، فأخـذ ينهش الخروف تلـو الآخر على مرأى من رفاقه الذين ظلوا متسمرين في أماكنهم دون أن يحاولوا الدفاع عن أنفسهم أو حتـى الهـروب. قضـى الذئب علـى نصف الخرفان قبل أن يرحل.

جاء عصفور كان يراقب المشهد من بعيد إلى أحد الخراف الناجية، وسـألـه: لمـاذا لـم تحـاول أنت ورفاقك فعل أي شـيء وأنتم تفوقونه عدداً؟ فأجابه بأنه خشي لو تحرك أو فعل أي شيء، أن يترك الذئب الخـروفَ الـذي انقـض عليـه، ويلتهمـه هو بدلاً منه! سـأل العصفور باقي الخراف ذات السؤال، فتلقى منهم جميعاً الإجابة نفسها. تعجب العصفور ممّا سـمع، فقرر أن يذهب إلى الذئب، ويستفسـر منه عن أمـرٍ، فسـأله: لمـاذا لم تقضِ على جميـع الخرفان، ألـم تكن تعلم أنه كان بإمكانك فعل ذلك؟ فأجابه بأنه تعمد ذلك حتى تقُص الخِراف الناجية للأجيال اللاحقة عن بطشـه وجبروته، فيزرعون في نفوسـهم الخوف منه، فتبقى أسطورة الذئب الوحيد الذي باستطاعته أن ينقضّ على عشيرة من الخرفان بمفرده، فيقتل منها من يشاء، ويترك حيّاً من يشاء!

"لكـن لمـاذا هجمـت الذئاب على هذه المدينـة تحديداً؟" أخذ مـراد يتسـاءل.... "هـل كانـت هذه حملة أرسـلها جنكيـز خان لغزو وادي القُنَّب؟ ولكن من غير المعقول أن يتم إرسال أحد عشر رجلاً فقـط مـن أجـل مهمـة كهذه! إذاً لماذا هم هنا؟ مـا الذي يريدونه من هذه المدينة؟" ما كاد مراد يطرح على نفسه تلك الأسئلة حتى وجد جُلّاباً أمامه حاملاً جرابه، ويجري إلى منزله، حيث طلب من ياسمي أن تذهب.... "ياسـمي! حتماً هم هنا من أجلها! كيف لم أتنبه لهذا الأمـر؟! ولكـن هـل يـا تـرى تعلم أن فرسـاناً من المغـول هم الذين أحدثوا كل هذه الفوضى؟"....

كانـت ملامـح جُـلّاب تحمل مزيجاً غريباً من الحزن والغضب، وهـو يجـري دون كلـل، وكأن أمـراً جللاً قد اسـتجد بعـد ذهابه إلى القصـر. الرجـل لـم يتوقـف حتى من أجـل التقاط الأنفـاس، وما إن

وصل إلى ياسـمي حتى سَـحبها من يدها على الفور، دون أن ينتظر قليلاً لكي يشرح لها ما الخطب، واكتفى فقط بإخبارها بأنه قد حان وقت الرحيل!

- "ماذا عن رفاقي؟! لن أذهب وأتركهم!" أصرّت ياسمي.
- "لا وقت لدينا! يجب أن نتحرك الآن حتى يمكنني اللحاق بالقتلة قبل أن يصلوا إلى الحظيرة فيفروا!" صرخ جُلّاب فاقداً صبره.
- "قتلة؟!" تساءلت ياسمي بدهشة.
- "لولا أني قطعت له عهداً قبل أن...." صمت قليلاً وكأنه غير قادرٍ على إكمال الجملة....
- ".... قبل أن يقتلوه، لتركتك، وذهبت خلفهم وحدي، حتى أنتقم لمولاي!"
- "حيدر الكاشف قُتل؟! من الذي قتله؟ الغزاة؟!" فُجعت ياسمي لسـماع الخبر. لم تتخيل أن رجلاً مثله، وفي شـموخه، كان من الممكن أن يُقتل من قبل أي شخص مهما كان!
- "بل الخونة! الأنذال! قلت لك يجب أن نتحرك الآن، فلا وقت هناك للمماطلة!"
- "وأنا قلت لك لن أذهب وأترك زوجي وباقي رفاقي!" تحدثت بإصرارٍ لم يدع أي مجالٍ للشك بأنها تعني ما تقول.
- "حسناً!" أجابها جُلّاب على مضض، بعدما تيقن أنه لا مفر من الإذعان لطلب تلك الفتاة المغولية العنيدة!

* * *

ركضت ياسمي خلف جُلّاب الذي عدا نحو زقاق ضيق، بين بنايات قديمة مهجورة، قاده إلى ساحة صغيرة متصلة بممر يقود إلى نفق طويل في آخره باب حديدي مغلق. قرع جُلّاب على الباب ثلاث مرات متتالية، ثم توقف قليلاً قبل أن يعاود الكرة، ولكن هذه المرة اكتفى فقط بطرقتين؛ ما كاد ينتهي حتى فُتح الباب الحديدي من الداخل.....

- "لماذا تأخرت؟! أقلقتني عليك. لقد انتابني هاجس بأن المغول أمسكوا بك!" ألقت نور الجارية بذراعيها حول جُلّاب، ولكن خليلها لم يكن راغباً في تلك اللحظة بمبادلتها العاطفة الجياشة نفسها، إذ كان باله مشغولاً بأمر آخر.

- "المغول؟!" ردّدت ياسمي باستعجاب..... فما الذي أتى بهم إلى هذا المكان؟ وكيف علموا بوجوده؟!

- "نور، هل تعلمين أين توجد تلك المرأة الخوارزمية التي اقتيدت إلى هنا مع ياسمي؟"

- "تقصد نوران؟ نعم، أعلم مكانها." أجابته بعد أن أزاحت ذراعيها من حوله، شاعرة بشيء من الخجل لاندفاعها الذي لم يلقَ التجاوب المأمول.

- "إذاً اذهبي مع ياسمي على الفور، وأحضريها إلى مدخل السرداب الذي وصفته لك، وأنا سأذهب لكي أجلب الفتيَيْن."

- "أي فتيَيْن؟ هل هناك وقت لكل هذا؟! لقد سمعت من أحد الخدم أن المغول على وشك اقتحام القصر!"

- "افعلي ما طلبته منك! فلا وقت هناك للنقاش!" أجابها جُلّاب

بحـزم، ثـم انطلـق علـى عجـلٍ متجهاً نحو ممر جانبـي، دون أن يلتفـت خلفـه، تـاركاً إياهـا فاغرة فاها من الدهشـة بجانب الفتاة المغولية!

* * *

انطلقت نور ومعها ياسـمي إلى الدور العلوي، حيث وصيفات القصر يقبعن، وسط حالة الفوضى التي عمّت القصر ومن فيه، خاصة بعدمـا تواتـر خبـر هروب الغازي بن مسـعود وكبار حاشـيته بعد قتله لحيدر الكاشف! كان وقع الخبر كالصاعقة على كل من سمعه! فلم يتخيل أحد أن الشيخ العظيم صاحب الكرامات، الذي لا تفوته فائتة ولا تشوبه شائبة، سيكون مآله خنجر غدرٍ من قبل أحد أخص أتباعه! أخـذت النسـاء تُوَلْـول، والرجـال بين الممرات تُهَـرْول في كل اتجاه دون أدنى إدراك، حتى احتدم اليأس لدى بعضهم، فانطلقوا نحو باب القصر الكبير لكي يفتحوه للغزاة، ويعلنوا لهم استسلامهم التام، فلعل في ذلك يكون الخلاص!

لـم تجد نور صعوبة في الوصول إلى المرأة الخوارزمية، ولكن الصعوبة كانت في إقناعها بالمجيء معها وياسمي من غير أن تحصل على موافقة رئيسة الخدم، التي كانت قد فرّت بجلدها، وتركتها لتلقى مصيرهـا أيّـاً كان! ظـل مفعـول مسـحوق المِطواع يجـري في عروق نوران، حتى إن ياسـمي هي الأخرى فشـلت في ثنيها عن البقاء في حجـرة الوصيفـات، حيـث ظلـت تنتظر أوامر سـادتها، فـي حالة من الخضوع التام.

- "علينا أن نذهب ونتركها، إن أردنا لنفسنا النجاة!" قالت نور بنبرة سادها التوتر بعد أن نفد صبرها.

- "لا! لـن أفعـل هـذا!" أجابـت ياسـمي بحزم، ثـم ظلت تدور حول الحجرة تفكر فيما يمكن فعله مع نوران خاتون. هل تربطها وتقتادها غصباً عنها؟ أم تحاول استجداءها مرة أخرى لكي تأتي معها طواعية؟ ثم فجأة خطرت على بالها فكرة!

- "نوران!" صرخت فيها بحزم شديد.....

- "مولاي الغازي بن مسعود يبحث عنك، ويأمرك بأن تأتيه الآن!"

- "الأمر لمولاي القائم، الغازي بن مسعود." أجابت نوران على الفور، مبدية كامل الانصياع لياسمي، تلبية لأمر مولاها القائم!

25

تحرك يسوجي نحو باب القصر الذي فُتح توّاً، ومن خلفه فرسانه شاهرون سيوفهم، دون أي مقاومة تذكر. لم يتخيل أن تكون غالبية سكان هذه المدينة العجيبة التي لم يرَ مثلها من قبل، بهذا الضعف والخنوع. من حسن الحظ أن القلة القليلة التي أبدت المقاومة وحملت السلاح، لم تكن تجيد فن القتال، فكان ذبحهم السريع بسيوف فرسانه، خير حافز للبقية للاستسلام التام دون إبداء أي مقاومة؛ كما حرص يسوجي أن يكون الذبح بشكل مُرَوِّع يبعث الرعب في النفوس، لذلك أعطى الأوامر بأن تُضرب الأعناق وتُرمى الرؤوس المفصولة بعيداً عن أجسادها ليراها الناس...... "إن نجحتَ في إحداث الرعب في قلوب أعدائك، فثق بأنكَ قد هزمتهم"...... هكذا تعلم من ملك ملوك الأرض، جنكيز خان. فلم يكن الخان الأعظم ينتصر بالأعداد والقوة بقدر ما كان ينتصر بإحداث الهزيمة في النفوس من قَبل أن تبدأ المعركة، لإدراكه أن الإنسان مهما بلغ من الرقي، ومهما بلغ من شدة البأس، يبقى كائناً كُنهه الخوف وسهلاً خداعه.....

ألقى من تبقى من حراس الردهة الخارجية للقصر بأسلحتهم أمام طليعة جيش المغول كما حسبوا، بل إن كبيرهم قَبَّل الأرض بين قدمي يسوجي يحسبه جنكيز خان. استمر القائد المغولي في سيره إلى داخل القصر دون أن يحاول تصحيح هذا الخطأ الذي أخذ ينتشر بين كل الموجودين، حتى لمح مشهداً أثار انتباهه؛ كان يجري نحو

طرف القصر رجل ملامحه لا تختلف كثيراً عن ملامح باقي سكان المدينة، ممسكاً بذراع شاب طويل القامة، قوي البنيان، ذي ملامح تركية..... "تكاد تكون نفس مواصفات ذلك الفتى الخوارزمي الذي تزوجته ياسمي".....

- "تتبع ذلك الفتى التركي دون أن يراك. إن كان هو من نبحث عنه، فسيقودنا إلى الباقين." أعطى يسوجي أوامره لأحد فرسانه، ثم كلف الآخرين بالبحث في جنبات باقي القصر، رأساً على عقب.....
- "أريد الإمساك بهم اليوم! اسْتَجْوِبوا جميع الخدم إن لزم الأمر أو حتى عذبوهم، وإيّاكم أن يفلتوا مِنّا هذه المرّة!"

26

انطلـق جُـلّاب بأسـرع مـا عنـده فـي النفـق خلف قتلة شـيخه، ومن خلفه نور وياسـمي يحاولان اللحاق به ومعهما نوران ومحمود ومحمـد منقـادون فـي حالة من الانصياع التام التي لا تزال تتملكهم. أراد المُبخِّر أن يصل إلى الغازي بن مسعود وحاشيته قبل أن يجهزوا الخيـول وينطلقـوا بهـا هاربين من الحظيـرة الخارجية التي يتصل بها النفـق؛ فلـو فعلـوا، لن يسـتطيع اللحاق بهم، ولـن يتمكن من الأخذ بثأر مولاه حيدر الكاشـف المغدور به! لقد تأخر بعض شـيء بسـبب رفاق ياسمي. جَلْبهم استغرق بعض الوقت؛ ولكن لم يكن لديه خيار، فعناد الفتاة وإصرارها على مصاحبتهم لها، كان قد حسم الأمر؛ فإما أن يجلبهـم جميعـاً، أو يرحل دونها مخالفاً وصية معلمه..... "خذها وارحـل. دع الحلقـة تكتمـل"..... عن أي حلقة كان يتحدث؟! مات حيدر الكاشـف دون أن يشـرح له أو يفصل، فكان عليه أن يضع هو النقـاط علـى الحـروف! وعلى الرغم من ثقل الحمل الذي حمّله إياه على كاهله، إلّا أن الأولوية الآن كانت للقصاص من هؤلاء "الأوغاد"!

- "سيقتلونك كما قتلوه!" حذرته ياسمي عندما علمت بمقصده، ولكنـه لـم يأبه لتحذيرها؛ فكان قد حسـم أمـره منذ اللحظة التي رأى فيهـا الشـيخ العالِـم وهـو يهـوى علـى الأرض ودمـاؤه من حوله تسـيل، على إثر تلك الطعنة الغادرة! سـينتقم منهم جميعاً!

سيقتلهم، حتى إن كلفه ذلك حياته!

* * *

ظهر الضوء في نهاية النفق، واقتربت ساعة اللقاء..... اللقاء الذي سيضع الغدر في مواجهة الوفاء، والقوة في مواجهة المعرفة!..... هكذا حسِب جُلّاب وهو يخرج إلى الحظيرة من النفق المظلم. كانت هذه معركته هو.... هو وحده، وليست معركة نور وياسمي والباقين؛ لذلك طلب منهم الانتظار عند المخرج حتى يتواروا عن الغازي بن مسعود وحاشيته. كان قد عزم أمره على مواجهتهم بمفرده، بعد أن تسلح بما يحتاج إليه من عتاد. لم تكن هذه معركة سيوف أو رماح، بل شيء آخر أكثر فظاعة! أي دارس للعلم يدرك أنه لا يوجد من هو أخطر في هذا العَالَم من عالِمٍ غاضب! فالعالِم كلما ازداد علمه، ازدادت قدرته على إحداث الشرور! واليوم هذا العالِم الذي تلقى علمه على يدي أحد أعظم علماء عصره، مليء بالغضب!.....

- "الناس تظن أن السحر شيء بشع! هم لم يروا العِلم عندما يُوَظَّف من أجل الانتقام!" قال جُلّاب لياسمي، مباشرة قبل أن ينطلق لمواجهة خصومه الألداء!

اقترب من حظيرة الخيول بعد أن أخرج من جرابه ما يحتاج إليه. ظهر له الغازي بن مسعود واقفاً بجانب وزيره وحاجبه، في أثناء ما كان باقي الرجال يُجهزون الخيول التي سيستخدمونها لمغادرة المكان مع أمتعتهم. فرَّغ محتوى قنينة صغيرة في جوفه، ثم لثَّم وجهه للمزيد من الحيطة، قبل أن يصل إلى المسافة الكافية التي أرادها.

- "أنت؟! ما الذي أتى بك إلى هنا؟!" صرخ الحاجب مخاطباً المُبخِّر المجنون الذي لحق بهم....

- "ارجع من حيث جئت وإلا...." لم يكن في حاجة إلى إكمال الجملة، فسيفه الذي سَلَّه تواً، كان كفيلاً بالإفصاح عن الغرض!

- "لو لم أكن على عجلة من أمري لذبحته كما ذبحت شيخه." قال الغازي بن مسعود ممازحاً وزيره، ثم أطلق ضحكة رعناء قبل أن يدير وجهه نحو رجاله من أجل استعجالهم، غير آبه لذلك "المعتوه" الذي سيتكفل به حاجبه.

لم يكلف جُلّاب نفسه عناء الرد على ما سمع؛ فلم يكن الوقتُ وقتَ الكلام، بل الفعل..... على الفور رمى بقنينة متوسطة الحجم نحو الغازي بن مسعود ووزيره وحاجبه؛ فما إن ارتطمت بالأرض حتى كُسرت وانبعث منها دخان أبيض كثيف جعل ثلاثتهم يدخلون في حالة سعال عنيف. شاهد هذا المنظر باقي رجال الحاشية من على بعد، ما جعلهم يتركون الخيول ويسرعون نحو سيدهم للأخذ بيده. أحدهم شهر سيفه وتوجه إلى جُلّاب الذي كان مستعدّاً لمثل هذه الخطوة، فأخرج عصا صغيرة مفرغة، أشبه بالناى، ثم نفخ فيها في اتجاهه، ليقذف منها بإبرة حادة ما إن استقرت في عنق الرجل حتى أفلت السيف من يده، ثم سقط على الأرض دون أن يفقد وعيه، تاركاً إياه لمفعول الدخان الأبيض!

* * *

لم تسمع ياسمي في حياتها صراخاً كذلك الذي سمعته قادماً من ناحية الحظيرة! لوهلة ظنت أنه ربما يكون صراخ جُلّاب، بعدما أمسكوا به، ثم عذبوه! ولكن سرعان ما تبين لها أن الأمر أبعد من ذلك بكثير؛ فلم يكن الصراخ منشأه رجل واحد، بل مجموعة من الرجال أخذت تهدد تارة وتستجدي تارة أخرى، ثم سمعت صوت أنصال السيوف، وهي تقع على بعضها، وكأن معركة كانت تجري.

استمر هذا الحال لدقائق، حتى أخذت تتخافت الأصوات إلى أن عم الهدوء. شعرت ياسمي برغبة في الخروج من النفق وتبيان ما قد حدث، ولكنها آثرت الانتظار كما طُلِب منها؛ ولم تمضِ لحظات أخرى قليلة، حتى سمعت صوت جُلّاب منادياً لها بعد أن أصبح المكان آمناً لها وللباقين.....

اقتربت من جُلّاب الذي كان واقفاً بجوار الحظيرة، وقد ملأها الفضول لمعرفة ما الذي قد حدث، وكيف استطاع ذلك الرجل النحيل الوديع أن يتغلب على هؤلاء "الحثالة" بأعدادهم وعُتادهم! ما كادت تقترب حتى هالها ما شاهدته على الأرض من جثث مُلقاة، على بعضها كانت بها آثار للطعنات، وإن كانت جميعها جاحظة عيونها وفاغرة أفواهها وكأنها ماتت من الخوف وليس من طعنات السيوف!

- "ما الذي حدث لهم؟!" تساءلت ياسمي بدهشة لم تَفُقْها سوى دهشة نور الجارية التي اكتفت بشهقة عميقة قبل أن تُمسك بذراع الفتاة المغولية بعد أن اختل توازنها!

- "لعنة مولاي وقد حلّت...." قطع جُلّاب جُملتَه فجأة، شاخصاً عينيه إلى ما بدأ يلوح له وراء نور وياسمي ورفاقها، حيث أدرك لدهشته أنهم لم يكونوا الوحيدين الذين عبروا النفق خلف الغازي بن مسعود وحاشيته!

التفتت ياسمي هي الأخرى إلى حيث كان ينظر جُلّاب.... إلى أحد عشر مغولياً شاهرين سيوفهم؛ مقبلين نحوهم لغرض واحد لم تخفِه معالم وجوههم العابسة!

27

اقتحــم غيــاث الديــن حجــرة جدته من غير اســتئذان، بادياً عليه العجـل، فوجدهـا مسـتلقية على فراشـها الوثير ومـن حولها جواريها يدلكـن جسـدها النحيـل الهـرم. لـم تسـمح الظـروف الطارئـة لابـن السلطان الأصغر باتباع المراسم السلطانية المتعارفة مع جدته، فالأمر كان جللاً والوقت يداهم الجميع!

أمر غياث الدين الجواري بالانصراف، ولكنهن لم ينصعن حتى تلقين الإشـارة من سـيدتهن التي بدت مسـتاءة من هذا التطفل الذي لم تفهم له سبباً من قبل حفيدها!

- "ماذا دهاك؟! كيف تدخل علي هكذا من غير استئذان؟!" صرخت تركان خاتون بامتعاض.

- "المعـذرة، ولكـن لا وقـت هناك للاسـتئذان، أبـي اتخذ قراراً بمغادرة سمرقند! سنرحل بعد منتصف الليل!"

- "سنغادر سمرقند؟! ويحك أنت وأبوك، فإن تركناها فستسقط كما سقطت بخارى!"

قامـت تـركان مـن على الفراش بعد أن تدثرت بالمنشـف الذي كان بجوارها.

- "وإن بقينا فستسقط أيضاً ولكننا سنسقط معها!" أجابها غياث الدين بصوت لم يستطع إخفاء القلق الذي يعتريه.

- "حصـون المدينـة قوية وحراسـها يتجاوزون عشـرات الآلاف، ولدينا من المؤن ما يكفينا عاماً من الزمان، فلِمَ تسقط سمرقند؟! مـا علينـا إلا أن نصمـد وسـيرحل المغـول بعـد أن يملـوا؛ كمـا تستطيع جيوشنا المترامية حول المملكة أن تباغت جيش جنكيز خان المحاصِر، بين الفينة والأخرى، فتنهكهم."

- "القول أسهل من الفعل يا جدتي! جيوش جنكيز خان تتكاثر علينا كتكاثر النمل الأسود في فصل الربيع! لا أدري من أين يأتي بكل هذه الأعداد، ولكن حصاره لسمرقند يزداد ضراوة يوماً بعد يوم كمن ينوي البقاء ولو دهراً من الزمان! الآن فرصتنا الوحيدة للهروب، فما زالت هناك بعض الثغرات التي يمكننا النفاذ منها، ولكن هذه الفرصة لن تدوم إن تلكأنا."

- "وإلى أين سَنَفرّ هذه المرة؟!" لم تحاول تركان إخفاء غضبها وهي تسأل حفيدها السؤال الذي أرادت أن تسأله لابنها السلطان.

- "سنتجه غرباً إلى نيسابور أو خرسان، وسننتظر هناك حتى يأتينا المدد من الخليفة ببغداد وباقي ملوك العراق والشام."

أطلقت تركان ضحكة سـمجة ردّاً على جملة حفيدها الأخيرة، ثم قالت وهي تجزّ على أسنانها:

- "هل أصابكما الخبل أنت وأبوك؟! أي مددٍ هذا الذي سيأتيكم؟! إن أرسل الخليفة العباسي بجيش، فسيكون من أجل القضاء على أبيـك، عـدوه الذي حاول غـزو بلاده من أجل إزاحته عن عرش الخلافة! أمّا باقي ملوك العراق والشام فطلب الرجاء منهم أشبه باستجداء الماء من رمال الصحراء، لن يأتيك من ناحيتهم سوى السراب..... إن كان يجب علينا أن نرحل من سمرقند، فينبغي أن

تكون وجهتنا في اتجاه الشـمال، إلى إقليم خوارزم حيث تقطن عشيرتنا الكانكالي."

- "هذا الأمر يمكننا حسـمه لاحقاً، أمّا الآن فعليكِ أن تجهزي من أجل الرحيل؛ فلم يتبقَّ على منتصف الليل سـوى سـويعات قليلة."

28

في جنح الليل تسـلل السـلطان علاء الدين وأهله وحرسـه من إحـدى بوابـات سـمرقند بعـد أن تلقـى الإشـارة مـن الكشـافة الذين أرسـلهم للتأكد من سـلامة الطريق وخلوه من جيش المغول. سـارت كتيبة من الفرسـان أولًا ثم تبعها السـلطان وحاشـيته متبوعين بكتيبة أخرى من أمهر فرسان المملكة. الطريق المتَّبع كان نحو الشمال إلى إقليم خوارزم، حيث لم يكتمل بعد الحصار، فكانت هذه هي أضعف نقطة لجيش المغول يمكن المرور من خلالها. مخاطرة كان السلطان عـلاء الديـن محمـد قد حسـم أمره عليها، فمهما بلغـت خطورة هذا التسلل، فهو لا يزال أهون من البقاء في سمرقند ليصبح لقمة سائغة لجنكيز خان بعد حصارٍ لا يعلم كم سيدوم؟ خاصة أن أعداد جيش المغول كانت آخذة في الازدياد يوماً بعد يوم مع آلات الحصار حول أسوار المدينة. هذا وبجانب ما أخبرته عيونه من أعدادٍ غفيرة كانت لا تزال تشق طريقها نحو سمرقند للانضمام لجيش خان المغول، جعله يدرك أن الأمر قد حسم قبل أن يبدأ..... سمرقند ستسقط لا محالة، هي فقط مسـألة وقت! بل إن الجزء الشـرقي بأكمله من مملكته كان قـاب قوسـين أو أدنـى مـن أن يصبح خارج نطاق سـيطرته! كان أمل السـلطان الوحيد مُتمثِّلًا في أن يُبقي على الجزء الغربي من مملكته؛ فلعلـه إن هـرب وتـرك بـلاد مـا وراء النهـر لجنكيز خان، قـد يتلَّهى المغـول بمـا اسـتولوا عليـه من مـدن وما فيها من خيـرات، ويتركونه

فـي حالـه، ولـو بعض الوقت، فيسـتطيع حينها أن يسـتجمع قوّاته في الغـرب مـع قـوّات ابنه جلال الدين في غزنة، ومع فرسـان الكانكالي في الشـمال وما يرسـله ملوك الشـام والعراق من مدد، فينقضّ حينها على المغول ويقسم ظهرهم، ليسترد كل البلاد التي أخذوها منه...

"هي كلعبة الشـطرنج" أخذ السـلطان يحدث نفسـه، "قد يضطّر اللاعـب إلـى التضحيـة بالقلعـة من أجل إنقـاذ الملك." ظل يردد مع خلجـات نفسـه بـأن للحـرب بقية، وماهـي إلّا معركة خاسـرة تعقبها معركة يكون فيها هو المنتصر!..... "نعم، الأمر لم يحسم بعد، فأنا السلطان علاء الدين محمد خوارزمشاه!" وكلما سار به الخيل مبتعداً عـن سـمرقند، ازداد احتياجـه إلـى ترديد تلك العبـارة الأخيرة، وكأنه خشي أن ينسى من يكون، فأراد تذكير نفسه وهو على صهوة جواده، في أثناء فراره من جحيم المغول!

* * *

دخل جوشي خيمة أبيه الخان الأعظم منتشياً، حاملاً له نبأ نجاح خطتـه التـي اقترحهـا عليه، والتي سـتعجل بتسـليم سـمرقند من دون حصار طويل؛ فمدينة خالية من السـلطان لن تقاوم بالضراوة نفسـها كما لو كان السلطان لا يزال قابعاً فيها، يدافع عن حياته وحياة أسرته. الفجوة التي تركوها له عمداً لكي يهرب منها قد آتت ثمارها، فها هو ذا قد أخلى سمرقند، ونبأ فراره مرة أخرى من مواجهة المغول سينتشر عبر البلاد، وسيترك هذا أثره السلبي على نفوس العباد، فتقع الهزيمة حتى قبل أن يَحُط المغول رحالهم على أبواب أقاليم مملكة خوارزم!

فرح جنكيز خان بما سـمعه من خبر سـار حمله له ابنه الأكبر، فأدرك حينها أن مملكة خوارزم قد سـقطت؛ هي فقط مسـألة وقت. لقد خُدِع عدوه السـلطان بالأعداد الغفيرة التي رآها من حول أسـوار

المدينة تتكاثر كالجراد، غير مدركٍ أنه كان يرى الأسرى الخوارزميين مترجلين في مقدمة الجيش، بعدما فُرِض عليهم ارتداء ألبسة المغول ليبدوا وكأنهم جنود المقدمة! ضحك جنكيز خان في سره وشكر رب السماء الزرقاء على غطرسة سلطان الخوارزميين؛ فلو كان قد كلفّ نفسه عناء معرفة خصمه المغول، لأدرك أنهم لا يقاتلون مترجلين، وأن تعداد جيشهم بتعداد خيولهم، وربما حينها ما كانت لتنطلي عليه خديعة الأعداد الكبيرة المكونة في غالبها من أسرى سُكّان بلاده!

- "سوبوتاي!" نادى جنكيز خان على قائدٍ من قادة جيشه كان ينتظر خارج الخيمة....

- "جَهِّز عشرين ألف فارسٍ، ثم الحق بعلاء الدين. لا تمسك به في الحال، بل دعه يفر من مدينة لأخرى كالفأر المذعور حتى يصل إلى أطراف مملكته، ويعمّ خبره جميع مدنها؛ حينها فقط افعل به ما تشاء!"

29

لكـم هـي جميلـة الحيـاة، عندمـا يصبـح المرء قاب قوسـين أو أدنـى مـن نيـل ما كان يبحث عنه على مـدى أيام طوال! يهون حينها وعثـاء السـفر، وعنـاء الترحـال.... "نعـم، كم هي جميلـة الحياة، بل إن جمالها يفوق جمال ياسـمي ابنة جوشـي المشـكوك في نسـبه!" ظل يسـوجي يحدث نفسـه وفرسانه يُقَيِّدون الأسرى: ياسمي وزوجة سلطان خوارزم وحفيدها والآخرون الذين صاحبوهم، "يا له من يوم عظيـم شـارف علـى الانتهـاء!"..... وفوق هذا جارية مليحة سـتكون خير مكافأة لرجاله، ليفرغوا فيها عناء الأيام التي مضت! شيء واحد فقط ضايقه، هو عدم وجود ذلك الرجل العربي الغريب ذي العمامة الخضـراء بيـن من أمسـك بهم، "ولكنـه أقلهم من حيث الأهمية، فلا بأس إن كان هو الذي أفلت،" أخذ يُقنع نفسه.

اقترب يسـوجي من ياسـمي بعد أن أُوثقت بشجرة بجانب سور الحظيـرة. ظلـت الفتـاة تنظـر إليه مشـدوهة، في حيرة مـن أمرها عن السبب الذي يجعل فارسًا مغوليّاً يُقَيدها هكذا! ألا يعلم من تكون؟!

- "ياسـمي ابنـة جوشـي." ردّد يسـوجي وكأنـه قـرأ السـؤال في خاطرها....

- "ما كنت أتخيل أن البحث عنك سيجلب لي كل هذه المشقة. ظننـت فـي بادئ الأمر أن المسـألة لن تتجـاوز اليوم أو اليومين، ولكنها استغرقت أكثر من ذلك بكثير، حتى بتّ أخشى أن سيدي

قد ظن أني مِتُّ، أو ما هو أسوأ من ذلك: فشلتُ فَفَررت!"

- "ومن هو سيدك المعتوه هذا الذي أمرك بأن تبحث عني وتقيدني، كالأمة الهاربة؟!" سألت ياسمي بغضبٍ شديد، فكيف يكون هذا الرجـل المغولـي على دراية بمن تكون، ويعاملها بهذه المهانة؟! ما إن فرغت من سؤاله، حتى أتاها الجواب في هيئة صفعة مباغتة جعلت رأسها يئن ألماً.

- "أنت لست في موضع السؤال، بل موضع استجداء لكي أنهي حياتـك وحيـاة رفاقـك من غير ألم أو عنـاء! فَجِدّتك بورته التي حملت أباك سـفاحاً، ليسـت هنا لكي تحميك من هذا السـيف! عليـك أن تتذكـري هـذا الأمـر جيـداً قبـل أن تخاطبينـي من غير احترام، وقبل أن تتلفظي على مولاي تولويْ خان بالسوء!"

"تولويْ!" وقع الاسـم على ياسـمي كالصاعقة. عمّها هو الذي أرسـل هذا "القذر" خلفها لكي يذبحها! ماذا فعلت له لكي تسـتحق هذا الجزاء منه؟!

اقترب يسـوجي من نوران التي ظلت صامتة في قيدها دون أن تتحرك أو تبدي أي اعتراض على ما كان يجري لها، وكذلك الحال كان مـع محمـود بـن ممدود والفتى الآخر الذي لم يعلم له هوية، ما أثار دهشة القائد المغولي؛ أخذ يتمعنهم جيداً، فشيء ما لم يكن على ما يرام، على خلاف ياسمي والرجل الأفغاني والجارية......

- "ماذا أصابهم؟ لماذا هم هكذا؟" تساءل موجهاً نظره لياسمي، ثـم للرجـل الأفغانـي، عندما لم يلقَ منهـا أي رد، ولكنه لم يجد منه هو الآخر سوى الصمت.....

- "لا بأس.... لا أريد أن أعلم، فهذا لن يغير شيئاً مما سيحدث

لكم جميعاً بعد قليل!" أمسك يسوجي بالجارية، ثم ألقى بها نحو أحد فرسانه، وقال له ضاحكاً:

- "هذه مكافأتكم جميعاً على حسن صنيعكم اليوم..... استمتعوا بها قبل أن تفارق الحياة!"

- "اتركني يا حيوان!" صرخت نور وهي تحاول إفلات ساعدها من قبضة الفارس المغولي، ولكن دون جدوى؛ فلم تمر لحظات حتى التفّ عدد من الفرسان حولها وحملوها من أطرافها، كما تحمل الشاة، إلى حظيرة الخيول.

- "أوغاد! لعنة الله عليكم..... اتركوها يا حثالة المغول!" هاج جُلّاب، وحاول أن يفك قيده المحكم بالشجرة الفارعة، ولكن دون فائدة....

اقترب يسوجي منه بعد أن سلّ خنجره من غمده، وقد رسم على وجهه ابتسامة صفراء، وكأنه بدا مستمتعًا بصراخ أسيره.

- "هل تودّ اللحاق بها؟ رجالي لا يُفَرّقون بين الرجال والنساء." قال ضاحكًا، ثم وضع نصل الخنجر عند عنقه....

- "أم تفضل أن أخلصك من حياتك التعسة، وأنهي معاناتك الآن؟!"

- "أيها الوغد! فلو علم جدي بما تنوي فعله، لتكونن نهايتك أنت أبشع مما يمكن أن يتخيلها عقلك المريض!"

ضحك يسوجي بأعلى صوته، ثم اتجه إلى ياسمي ضاربًا خنجره على كفه مهددًا.....

- "ومن الذي سيخبره أيتها الفتاة البلهاء؟! مولاي تولويْ الذي

أمرنـي بالتخلـص منـك؟! أم الكاهـن تبتنكـر الـذي أقنـع عمك بوجوب التخلص منك؟!" وضع خنجره تحت عينها اليمنى، ثم أضاف شاخصًا عينيه:

- "سأبدأ باقتلاع عين تلو الأخرى، قبل أن أنتقل بهذا الخنجر إلى كل طرف بارزٍ، وأُقَطِّعه قطعة قطعة، ثم أطعمها لرفاقك!"

أغمضت ياسمي جفونها، مدركة أن النهاية قد أصبحت محتومة. لن تستجدي هذا "الحقير"، فهذا ما يريده، ولن ينفعها أي استجداء. لقـد حسـم أمـره على قتلهـم جميعًا، وهذا ما سـيفعله، خاصة بعدما أحرق مدينة بأكملها من أجل الوصول إليهم. إنه فارس مغولي بارع؛ يجيد صنعته بمهارة، ولذلك أرسله عمها تولويْ خلفهم، ولقد أحسن عمهـا الاختيـار! بـدا لهـا أن حياتهـا القصيرة قد شـارفت أخيرًا على الانتهاء، فقررت إن كان موتها قد أصبح محتوماً، فستقدم عليه دون أن تمكن ذلك "الوغد" من النيل من شرف استجدائها له! مهما كان الألم مبرحاً، فلن تتوسل ابنة جوشي.... لن تتوسل حفيدة بورته.... لن تتوسل حفيدة ملك ملوك الأرض، جنكيز خان!

وفـي اللحظـة التي شـعرت ياسـمي برأس الخنجـر تحت عينها اليمنـى ينغـرس فـي جلدها، سـمعت صوت ضربة قوية، ثم شـعرت بالخنجر وهو يسـقط بجوارها. لم تكن الضربة موجهة لها، من هذا الأمـر كانـت متيقنـة. فتحت عينيها لترى ما الذي قد حدث، فوجدت الخنجر وصاحبه كليهما بجانبها على الأرض دون حراك، وبجوارها رجل لا تعرفه يقطع الحبال التي كانت تقيدها. نظرت على الفور إلى جُلّاب وباقي رفاقها؛ كان بجوار كل منهم رجل يفعل الشـيء نفسـه. وضـع الرجـل الـذي كان بجوارها سـبّابته على فمـه، حتى لا تُحدِث

صوتاً، ثم أومأ برأسه إلى مجموعة أخرى من رجالٍ حاملين للسيوف لكي يذهبوا إلى داخل الحظيرة، حيث توجد نور الجارية مع باقي فرسان المغول. ما هي إلّا لحظات حتى علت الأصوات في الداخل، من صراخ ومحاولات فاشلة لسل السيوف من أغمادها وصليل اشتباك أنصال بعض السيوف؛ لحظات قليلة أخرى مضت قبل أن تجري نور إلى الخارج رامية نفسها في أحضان خليلها جُلّاب.

لم تفهم ياسمي ما الذي حدث توّاً.... فمن هم هؤلاء الرجال؟ ومن أين أتوا؟! الرجل الذي فك قيدها تراجع خلف باقي رجاله ليتحدث مع شخص كان يراقب ما يحدث من بعيد. حاولت أن تدقق نظرها إليه، ولكن الشمس الغاربة كانت في وجهها، فلم تمكنها من تبيان ملامحه بدقة حتى بدأ بالتحرك نحوها. من بعيد بدت قامته المستقيمة وحركته المتأنية ليست بغريبة..... لوهلة ظنت أنه ربما يكون حيدر الكاشف! لعله، بخلاف ما كان يظن جُلّاب، لم يمت! لعله أيقن بما كان يحدث، فأتى بمجموعة من رجاله لإنقاذهم؛ ولكن سرعان ما تبددت تلك الظنون عندما وقف الرجل أمامها...... "مستحيل!"..... لم تصدق ما كانت تراه بأم عينيها! لم تتمالك نفسها وهي تقفز إليه، معانقة إياه بكل ما أوتيت من قوة! "لقد عاد!.... لقد عاد عبدالرحمن!"

30

على الرغم من هول المفاجأة التي لم يحسب لها حسابًا، إلّا أن مراد قطز شعر بالارتياح لعودة عبدالرحمن في هذا التوقيت الحرج، مع من جاء بهم من رجال استطاعوا أن ينقذوا ياسمي والباقين من براثن فرسان المغول الأحد عشر! كان شعور مراد بالعجز قد وصل إلى ذروته، وهو يرى ذلك القائد المغولي، وهو يستعد لقلع عين ياسمي اليمنى بخنجره! بقدر ما حاول أن يفعل أي شيء لكي يخلصها من خنجر ذلك المجرم السادي، إلّا أن العجز كان حليفه؛ وكم كان بغيضاً ذلك الشعور! أن ترى شخصاً بِتّ تحبه وتشعر بالتقارب معه في خطر ولا تستطيع فعل أي شيء! ولكن عبدالرحمن استطاع، وفي اللحظة الحاسمة! لم يفهم من أين جاء وكيف علم بوجودهم في هذا المكان؟ كما لم يعلم من هؤلاء الذين قدموا معه، واستطاعوا القضاء على فرسان المغول الأشداء بكل يسر؟! تساءل مراد، وما كانت تساؤلاته هذه إلّا إضافة جديدة لقائمة العجائب الآخذة في الازدياد.

* * *

- "لماذا تركتنا؟! وأين كنت؟!" بهذين السؤالين بدأت ياسمي حديثها مع عبدالرحمن بعد عناق طويل وشعور بالراحة والاطمئنان كان غائباً منذ سَبْيِها من قبل رجال وادي القُنَّب.....
- "ومن هؤلاء الذين أنقذونا؟! وكيف عرفت مكاننا؟!" سؤال ما

كاد يطرح حتى يعقبه سؤال آخر، دون أن تدع لعبدالرحمن فرصة للإجابة عن أي من هذه الأسئلة.....

- "لن تصدق ما الذي حدث لنا منذ اختفائك! لقد أخذونا إلى مدينة عجيبة، كأنها من قصص ألف ليلة وليلة.... لا أقصد المغول، بل هؤلاء الرجال الملقاة جثثهم هناك؛ لا أعلم كيف فعلها جُلّاب، ولكنه استطاع بمفرده أن...... عفواً، نسيت أن أعرفك بجُلّاب الذي أنقذنا من المدينة قبل أن يمسك بنا فرسان المغول...."

الكثير من الأمور أرادت ياسمي أن تقصها لعبدالرحمن، ولكنها لم تعلم من أين تبدأ، خاصة أن الأحداث كانت كثيرة، ثم فجأة تذكرت أمراً آخر أهم بكثير من كل ما ذكرته إلى الآن.....

- "لقد رأيته! بل تحدثت معه أيضاً! رأيت عالمه العجيب، وعلمت منه أنك أنت أيضاً تستطيع رؤيته!"

لم يبدِ عبدالرحمن أي مظهر للتعجب مما سمع، بل على العكس من ذلك بدا وكأن ما حدث كان أمراً متوقعاً، ما زاد من دهشة ياسمي.....

- "لماذا لم تخبرني عنه؟! ما الذي تعلمه وتخفيه عني؟!"

- "علم في غير موضعه..." بدأ عبدالرحمن، ولكن ياسمي أكملت عنه الجملة:

- "قد يقود إلى المزيد من الجهل! هذا ما قاله حيدر الكاشف نقلاً عن رجل التقاه في صباه...." فجأة صمتت، وأخذت تحملق في وجهه، وكأنها تنبهت توّاً إلى أمر لم يخطر على بالها

من قبل، ثم واصلت حديثها:

- "هذا الرجل الذي التقاه حيدر الكاشف..... أهو أنت؟! ولكن كيف؟ أنت أصغر منه؟! مستحيل..... ولكن منذ تركي لبلاط جدي في قراقورم وأنا لم أرَ سوى المستحيل يحدث أمامي، وكنت أنت دائمًا حاضرًا بشكل ما. هل كنت تعلم ما سيجري لنا عند البحيرة قبل أن نؤخذ إلى وادي القُنَّب؟!"

لم يجبها عبدالرحمن، واكتفى بالنظر إليها دون أن يظهر أي تعبير على وجهه.....

- "لا... أنت لم تكن فقط تعلم، بل هذا ما أردته، أليس كذلك؟! أنت أردتني أن أذهب إلى وادي القُنَّب، وألتقي حيدر الكاشف! ولكن ألم تعلم أن فرقة من المغول كانت تطاردني، وأنها تسببت في دمار تلك المدينة العظيمة بالوادي؟! وأن قائدهم كاد يقتلع عينيّ!"

- "كاد ولم يفعل." نطق عبدالرحمن بهدوء بالغ......

- "أمّا الذي أحدثه مع فرسانه بالمدينة، فهو ليس من صنيعهم فقط. الدمار مثل الماعون، لا يُحمل إلّا بذراعين."

- "ولكن...." أرادت ياسمي أن تعترض، ولكن عبدالرحمن قاطعها....

- "الطريق إلى المعرفة مليء بالأشواك، فهل حسبتِ أنك ستسيرين فيه دون أن تُدمى قدماك؟"

صمتت ياسمي؛ لم تستطع الإجابة عن السؤال، ليس لأنها لم تعلم بماذا تجيب أو ماذا تريد، ولكن لأنها كانت تدرك جيداً الطريق

الذي ترغب السير فيه، وماذا سيكلفها ذلك، فكأن الصمت كان هو الإجابة الأنسب عن سؤال ما كان ينبغي أن تسأله.

- "حسناً... إذاً أخبريني بما رأيتِ في حضرة حيدر الكاشف. قصي لي ما حدث بكامل تفاصيله."

* * *

إذاً ظهور عبدالرحمن في هذا المكان لم يكن بمحض الحظ أو المصادفة، وكذلك اختفاؤه من قبل..... هذا ما شعر به مراد في أثناء استماعه للحديث الدائر بينه وبين ياسمي التي بدا له، وكأنها هي الأخرى قد توصلت إلى الخلاصة نفسها؛ ولكن كيف؟! أي قدرة هذه التي تمكنه من التلاعب في الأقدار على هذا النحو؟! وما الذي كان يبتغيه من كل هذا الذي حدث؟! مطالبته لياسمي بأن تقصّ له ما حدث مع حيدر الكاشف، أثار فيه الريبة؛ كأنه كان يعلم أنها من خلال ذلك الشيخ العالِم ستتمكن من رؤيته، بل اصطحابه أيضاً إلى ذلك الخط الزمني الذي عايشه بعد أن تجسد من حوله!

- "هل كان ما حدث لهم من تدبيرك؟" سأل مراد عبدالرحمن، بعدما خلد الآخرون إلى النوم، وبقي الرجل ذو العمامة الخضراء مستيقظاً كعادته، يجوب المكان في حالة من التأمل والتفكر تحت سماء الليل.

- "وهل يوجد مخلوق يمتلك القدرة على التحكم في أقدار الآخرين؟"

- "إن كان يوجد فهو حتماً أنت؛ هذا ما تبين لي من مرافقتي لك طوال هذا الوقت الذي انقضى!" أصر مراد، ثم كرر سؤاله:

- "هل دبّرت ما حدث لهم؟!"

- "كلما اقتربتَ من الحقيقة، أراك تبتعد عنها باختيارك، وكأنك لا ترغب في الوصول إليها. لماذا يا ترى؟ ما الذي تخشاه؟ هل سألت نفسك هذا السؤال؟"

- "أنت تتهرب من سؤالي! تريد تحوير المسألة لتحيرني بألغازك المعتادة! لا، الأمر لا يتعلق بي ولكن....." لم يكمل مراد جملته، إذ لوهلة تنبه لأمر كان قد نسيه في جملة الأحداث التي جرت.....

- "أم الوفا! عندما ذكرتْها ياسمي في الحانة بتلك القرية التي صادفنا فيها العواد، أبديت الدهشة، وأنت الذي لا يدهشك شيء! أم الوفا هي نفسها التي رأيت أبياتها منقوشة على مقام قطز، وهي التي ذكرها أبي في....." توقف مراد عن استرساله. لم يستطع إكمال الجملة وما يتعلق بها من ذكريات عاشها بكامل تفاصيلها وآلامها.....

- "هل ما رأيتُه.... ذلك الذي حَكته لك ياسمي عندما كنا مع حيدر الكاشف واستخدم معها تلك العشبة..... هل ما رأيتُه من أحداث هي ما جرت لي بالفعل؟ أم أنها كان مجرد تهيؤات؟"

- "لماذا تسألني سؤالاً أنت تدرك إجابته جيداً؟" رد عبدالرحمن على سؤاله بسؤال آخر.

- "لكم تمنيت في تلك اللحظات لو أني بقيتُ على جهلي." ردّد مراد وكأنه يخاطب نفسه.

- "ألهذا لم تستمر في المشاهدة، وانقطعت عن السير في منتصف الطريق؟ هل فضّلت راحة الجهل على ألم المعرفة؟"

- "ولكـن إن كان هـذا هـو مـا حـدث فـي صبـاي، مـن أيـن أتتني الذكريات الأخرى التي أحملها؟! هل اختلقتُها مثلاً؟!"

- "نصـف العلـم يكمـن فـي حسـن اختيـار السـؤال، وأظنك قد أحسنت اختيار السؤال."

- "إن كنتُ قد أحسنتُ اختيار السؤال، فلماذا لا تجيبني عنه؟!"

- "لأن النصف الآخر من العلم، يكمن في مشوار الإجابة عن ذلك السؤال.... اسمح لي بأن أفشي لك سرّاً لعلك بدأتَ تلامسه بنفسـك: فـي كثيـرٍ من الأحيان، قـد يكون الطريق إلى العلم أهم من العلم نفسه؛ واسمح لي بأن أبوح لك بسر آخر قد يفسر لك الكثير: إن لم تسـتطع الوصول للإجابة عن سـؤالٍ بنفسك، فأنت لست أهلاً لمعرفة الإجابة عن ذلك السؤال."

تأمل مراد ما سـمعه من عبدالرحمن، ولأول مرة منذ أن التقاه أخذ يشعر بشيء من الراحة والطمأنينة، إذ بدأ يدرك أنه على الطريق الصحيـح؛ ولكـن العجيب في الأمر أن سـبب هـذا الإدراك هو ذلك الألـم الشديد الذي أخذ يملؤه!

31

استيقظ محمود بن ممدود في صباح اليوم اللاحق، وكأنه أفاق من حلم طويل كان فيه مسلوب الإرادة، يستوعب عقله فيه كل ما كان يجري دون أن تكون له أدنى قدرة على اتخاذ القرار! كذلك كان الحال مع جدته نوران ومحمد الطوسي؛ وكما أخبر جُلّاب ياسمي من قبل، فقد عادوا جميعًا إلى طبيعتهم السابقة فور أن زال أثر مسحوق المطواع من أجسادهم. كان الأمر مروِّعاً بالنسبة إلى الأمير الخوارزمي، أن يكون في مقدور أحد أن يسلبه إرادته بتلك الطريقة! والأدهى والأمر، أنه لولا ياسمي وذلك الرجل الأفغاني، لربما قضى ما تبقى من عمره في تلك الحالة من الذُّل والهوان في مدينة وادي القُنَّب، أو ما تبقى منها! "ولكن لماذا لم تَنجُ هي بجلدها وتتركنا؟!" أخذ يتساءل مع نفسه، خاصة بعدما سمع تفاصيل هروبهم من نور الجارية التي أخذت تحكي لجدته، لتُكمل لها التفاصيل التي فاتتها من الأحداث العجيبة! هذه الفتاة المغولية كانت لا تكف عن إدهاشه، حتى بات يتلمس سبب تعلق جدته بها...... "ولكنها تبقى حفيدة خان المغول الهمج الذين أغاروا على بلادنا وسفكوا دماءنا!" لعلها تتمتع بشيء من الوفاء، أخذ محمود يظن، ولكن هذا لا يعني أنها قد أصبحت واحدة منهم.... "يكفي أنها لا تزال كافرة! ومهما فعلت، فلن يشفع لها شيء، وهي لا تزال على كفرها!"

ولم تكن ريبته من ياسمي هي فقط التي عادت له مع عودة

التحكـم فـي إرادتـه، بـل عادت له أيضاً ريبته مـن عبدالرحمن، الذي ظهر لهم فجأة كما اختفى؛ والأدهى أنه لم يظهر وحده، بل كان معه كتيبة من الرجال الأشـداء المتمرسـين على القتال، كما تبين لمحمود من هزيمتهم السريعة لفرسان المغول!

ذهب الأمير الخوارزمي إلى من ظن أنه قائد تلك الكتيبة، لكي يتعرف إليه ويعلم منه من يكونون، فهذه البلاد من المفترض أنها لا تزال خاضعة لملك جده السلطان علاء الدين محمد، ضمن ولاية غزنة التي يحكمها خاله الأمير جلال الدين منكبرتي.

- "أردت قبـل أن ننطلـق مـن هـذا المكان إلى مدينة غزنة، أن أقدم لكـم شـكري وامتناني على حسـن صنيعكم. ثق بـأن ما فعلتموه البارحة سيصل نبؤه إلى خالي الأمير جلال الدين، وستنالون عنه عظيم الجزاء؛ ولكني إلى الآن لم أتعرف إليكم، فألا تخبرني من تكونون؟"

- "نحن فرسان الرابعية ومريدو صاحبة المقام، السيدة أم الوفا. أُقـدر لـك امتنانـك أيهـا الأمير، ولكني أرفض مَنَّك؛ فلسـنا ممّن يتقاضـون الجـزاء عـن خيـر الأداء، أو العطاء عن حســن البلاء." أجابه الرجل، ثم انصرف عنه متجهًا نحو عبدالرحمن.

شعر محمود بالدهشة من هذا الرد البارد الذي لم يتوقعه، ومن انصرافـه عنـه دون اسـتئذان! كذلـك تعجَّب مـن هويته هو ومن معه: "فرسان الرابعية ومريدو صاحبة المقام، السيدة أم الوفا؟!" فلم يسمع من قبل عنهم أو عن سـيدتهم هذه! ثم فجأة تذكر.... بل سـمع من قبل عنها! وبهذه الخاطرة انطلق نحو ياسمي التي كانت واقفة بجوار جدته نوران، تتحدث معها....

- "أخبريني من تكون أم الوفا هذه؟!" قاطع محمود بجلافة، ممسكاً بذراع ياسمي، ما أثار دهشتها ودهشة جدته من هذا التصرف الأرعن الغريب!

- "ماذا دهاك؟! هل جننت؟!" صاحت فيه نوران، بصوت لا يخلو من الغضب.

- "هؤلاء الرجال الذين ظهروا مع عبدالرحمن فجأة، هم من أتباع امرأة تعرفها هذه الفتاة جيداً! لقد سمعتها من قبل وهي تتحدث عنها معه!"

- "لعلك في حاجة إلى أن أذكرك يا محمود، أن هذه الفتاة اسمها ياسمي، وأننا ندين لها بحياتنا، وكذلك لهؤلاء الرجال ولعبدالرحمن الذي جلبهم!"

ارتبك محمود بعض الشيء لغضب جدته منه، ثم سرعان ما تماسك، وأخذ يشرح لها سبب ريبته.

- "أتفق معك على أن الأمر في حاجة إلى شيء من الإيضاح، ولكن ليس بهذا الأسلوب الفظ مع ياسمي التي أبت أن تتركنا في محنتنا." أجابته نوران بعد استماعها له، ثم التفتت إلى ياسمي...

- "هل حقّاً تعرفين تلك المرأة التي يتبعها هؤلاء الرجال؟"

- "نعم، ولا...." لم تعرف ياسمي بماذا تجيبها؛ فكيف تخبرها بأنها سمعت عنها من جارية ميتة، إلى الآن لا تعلم كيف رأتها!

- "سمعت عنها، ولم ألقها وجهاً لوجه." اكتفت بهذه العبارة المقتضبة.

- "أم الوفا؟ لا أدري لماذا يبدو لي اسمها مألوفاً، وكأني سمعت بها أنا أيضاً من قبل، ولكني لا أذكر أين." أضافت نوران، وعيناها تحلق في السماء، في محاولة لاستخراج أي معلومة ذات فائدة من أعماق ذاكرتها حول تلك المرأة التي يتبعها هؤلاء الرجال الأشداء.

- "لعلك سمعت عنها من...." ترددت ياسمي قليلاً قبل أن تقرر إكمال الجملة....

- "من حلاجة."

- "حلاجة الجارية!" تذكرت نوران خاتون أين سمعت بأم الوفا: الجارية الزنديقة التي أمر زوجها السلطان بقطع رقبتها! ولكن.....

- "هذا الحدث كان منذ سنوات، أي قبل مجيئك إلينا..... فكيف علمتِ خبرها؟!"

- "عمّ تتحدثان؟ من هذه الجارية؟ وما علاقتها بأم الوفا؟" بدت الحيرة جليّاً على وجه محمود، وهو يقلب نظره ما بين ياسمي وجدته التي أخذت تشرح له، بعد تردد، ما جرى من أحداث مع تلك الجارية التي كانت من أتباع أم الوفا.

- "زنادقة! نفلت من سيوف الكفار، لنقع في براثن الزنادقة؟!" صرخ محمود محتجّاً، غير آبه بمن يسمعه.

- "أنتم الخوارزميون لا تكُفّون عن إلقاء التهم على الناس." قاطع محمد الطوسي صراخ محمود، بعد أن ظهر فجأة دون أن يشعروا بقدومه في أثناء ما كانوا منهمكين في الحديث.....

- "عليك أن تكون حذراً في قولك، فنحن في حاجة إلى هؤلاء الرجال إن أردنا أن نقطع هذه البلاد في أمان." أضاف هامساً.

- "ماذا تقصد بأننا لا نكف عن إلقاء...."

- "محمود،" قاطعته نوران....

- "محمد معه حق. ينبغي لنا ألّا نتسرع في الحكم على الآخرين، خاصة من كان لهم فضلٌ علينا."

- "أعتذر عن إقحام نفسي في حديثكم، ولكن الشيخ عبدالرحمن أرسلني لكي أخبركم بأننا سنتحرك بعد قليل، حتى تتجهزوا."

غادر محمد الطوسي فور إبلاغه الرسالة، ما زاد من حنق محمود الذي لم تعجبه الطريقة التي قاطعه بها وتلويحه له بأنه يلقي التهم على الآخرين جزافًا! ولم يستسغ تأنيب جدته له أمامه وأمام ياسمي. أراد أن يرد على "غلام الزنديق واصل بن غيلان!" ولكن جدته لم تمنحه الفرصة.

- "لعنة الله على هذا الزمن الذي جعل أمثاله يتجرؤون على سادتهم!" قال بصوت هامس، جازّاً أسنانه، ثم انصرف هو الآخر استعدادًا للرحيل.

32

لـم تكـن هنـاك سـعادة تضاهـي تلك التي شـعر بهـا محمد الطوسـي عندمـا اسـترد السـيطرة علـى عقلـه الذي ظل حبيسـاً لتلك العقاقيـر والأبخـرة التـي أُرغـم عليهـا فـي مدينـة وادي القُنَّب. حتى عندما أطلق سراحه من سجن قلعة بخارى، لم يشعر حينها بالمقدار نفسه من السعادة؛ أن يُحبس جسده كان أهون عليه ألف مرة من أن يحبس عقله الذي لا يملك رصيداً غيره في هذه الحياة؛ عقله الذي قاده لأن يلفظ معتقدات آبائه التي لم يقتنع بها قط، ويبحث عن شيء آخر يقربه من الحقيقة الكُليّة لهذا الكون. لوهلة ظن أنه وجد ضالته في واصل بن غيلان، ولكن القدر لم يمهله سوى عام واحد معه، وإن كان ذلك العام قد تساوى عنده مع سـابق حياته كلها..... "الجسـد يبلـى، وتذهـب آثـاره مع التراب، ولكن العقل لا يفنى طالما أنه أنتج فكراً أحدث أثراً في نفوس الناس." مقولة تعلمها من معلمه الأول، واصل بن غيلان، كانت أول ما تذكر عندما استرد السيطرة على عقله. مقولـة جعلتـه يـدرك أنـه لو قُدِّر لعقله أن يبقى بعد أن يفنى جسـده، فسـيكون الفضل لأشـخاص كثيرين صادفهم في حياته؛ أحدهم قُتل ظُلماً، والآخر كان على فرسـه يسير في مقدمة القافلة، وكذلك فتاة مغولية لم يتوقع في يوم من الأيام أن يَكِنّ لها كل هذا الامتنان....

* * *

- "لم تتسـنَّ لي الفرصة لكي أشـكرك على ما فعلتِه في وادي

القُنَّب." قال محمد مخاطبًا ياسمي بعد أن اقترب بفرسه من جوادها.

- "أنا لم أفعل شيئًا يستحق الشكر. جُلّاب هو الذي أخرجنا من هناك."

- "كان بإمكانكِ تركنا، ولكنكِ لم تفعلي. سمعتُ من نور بما حدث؛ لم تتركْ أحداً إلّا وحكت له."

لم تجبه ياسمي، واكتفت بابتسامة خجولة.

- "أنت فتاة صالحة، لديك عقل ناضج وقلب نقي. لو كان شيخي واصل بن غيلان على قيد الحياة لفرح بك كثيرًا."

- "يبدو أن ظنك السخي في، لا يشاركك فيه كل أحد." قالت موجهة نظرها نحو محمود بن ممدود الذي كان على فرسه يسير أمامها، بجوار نوران خاتون.

- "لا تلوميه.... أحسبه حائرًا ويشعر بتيه كبير، ولكن في قرارة نفسه أظنه هو الآخر معجبًا بك، كجدته. أرى ذلك في نظراته لك."

- "تدافع عنه وهو الذي لا يمانع بنعتك أنت وأستاذك بأبشع الأوصاف؟!" ردّت ياسمي بنبرة لا تخلو من التعجب.

- "هو أسير نظرة ضيقة نشأ عليها، مثله في ذلك مثل عامة الناس. عقله مسلوب مثلما كان عقلي في وادي القُنَّب مسلوبًا..... أنا تجرعت تلك الأعشاب واستنشقت دخانها؛ وهو تجرع أفكارًا ضيقة الأفق، واستنشق سمومها؛ ولكن من يدري، فلعلك تُحدثين معه الفارق، وتجعلينه يستيقظ من غفوته."

- "ولكني بالنسبة إليه مجرد فتاة مغولية كافرة، ليست على دينه!"
- "لا تقولي هذا، فأنت والله أكثر إسلامًا من كثير من المسلمين. كل ما ينقصك فقط هو النطق بالشهادة، وهذا لا أحسبه بعيد المنال."

هزّت ياسمي رأسها، مبدية اعتراضها على ما سمعت.....

- "لا أظن أن دينكم ينفعني بعد الذي شاهدته."
- "ولكنك لم تشاهدي الإسلام على حقيقته، بل ما شاهدتِه هو ما كان شيخي واصل بن غيلان يصفه بإسلام الأعراب، تماشياً مع قول الله عز وجل في سورة الحجرات: قالت الأعراب آمنّا، قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولمّا يدخل الإيمان في قلوبكم...... صدق الله العظيم، فليس كل من يولد مسلمًا هو كذلك."
- "وما الذي يجعلك تعتقد أن واصل بن غيلان هو الذي كان مسلمًا بحق؟! أنت تعتقد هذا، ولكن الكثيرين غيرك كانوا يرونه خلاف ذلك." أجابته ياسمي، مظهرة عدم اقتناعها بما قال.
- "المقياس هو القرآن. من يخالفه لا يمكن أن يكون على الإسلام. الله عز وجل يقول في سورة المائدة: يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يَجْرِمنّكم شنئان قوم على ألّا تعدلوا، أعدلوا هو أقرب للتقوى، واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون..... هل طَبّق الخوارزميون هذه الآية في تعاملاتهم؟ هل طبّقوها مع تُجار قافلة المغول؟ هل طبّقوها معي؟ هل طبّقوها مع شيخي؟!"
- "هل طبّقوها مع حلّاجة؟" أضافت ياسمي مقاطعة بصوت هامس

مسموع، ما جعل محمد الطوسي ينظر إليها متعجبًا، عاقدًا حاجبيه إذ لم يفهم إلى من كانت تشير.....

- "القرآن جميل عندما أقرؤه، أو أسمع أمثالك يتحدثون به؛ ولكن عندما أرى المسلمين يدَّعون تطبيقه، أرى شيئاً آخر غير ما فهمتُ من قراءته وغير ما تقوله أنت. من يرى حالكم لا يمكن أن يشتهي الدخول في دينكم."
- "ذكَّرتِني بمقولة سمعتها من واصل بن غيلان رحمة الله عليه: أكبر دليل على أن الإسلام من عند الله، أنه لا يزال قائمًا على الرغم من أفعال المسلمين!"

ابتسمت ياسمي لهذه المقولة الطريفة، ولوهلة تمنت لو أنها التقت واصل بن غيلان، ثم أخذت تحدث نفسها: "لو أنه فر إلى بلاط جدها، لربما كان اتخذه وزيراً له، وحتمًا لما أمر بصلبه، كما فعل الخوارزميون!"

* * *

غربت الشمس، ودخل المساء بسكونه المعتاد؛ ليلة غائمة، حُجب فيها ضوء القمر، وريح خفيفة أنبأت عن قرب قدوم عاصفة شمالية شرقية، جعلت الجماعة تقرر التوقف عن السير واللجوء إلى مأوى من أجل المبيت فيه إلى اليوم المقبل.... كعادته، ظل عبدالرحمن يطوف وحده حول المكان الذي وقع عليه الاختيار، بانتظام شديد، وكأنه يقوم بطقوس دين هو نبيه وتابعه الوحيد. استمر على هذا الحال حتى توقف فجأة على غير المعتاد، حيث شعر بوجود شخص خلفه يراقبه؛ لم يكن عبدالرحمن في حاجة إلى أن يلتفت. كان يعرف هوية القادم، بل كان متوقعًا قدومه.....

- "لم أكن على يقين بأن الأمور ستسير على هذا النحو." جاء الصوت من طيف امرأة، لو نظر نحوه غير عبدالرحمن لما رأى شيئًا.
- "كل شيء في هذا الكون رهن للمُحتمَل، واليقين واحد فوق كل شيء." أجابها عبدالرحمن.
- "ماذا حدث لحيدر الكاشف؟"
- "أدرك بعد فوات الأوان."
- "وماذا عن جُلّاب؟"
- "أدرك قبل فوات الأوان."
- "وماذا عن الباقي؟"
- "يسيرون في الطريق نفسه، قبل أن ينعطف بهم كلٌّ على حدة."
- "وماذا عن رفيقك الآخر، النقيض؟"
- "بدأ يدرك الحقيقة."
- "كان بإمكانك القضاء عليه، وإنهاء كل شيء، ولكنك لم تفعل. حسبتُ أني فهمتُكَ بعد كل هذه السنين، ولكنكَ دائمًا تدهشني."
- "والآن جاء دوري لكي أسأل وتجيبيني..... هو سؤال واحد: لماذا أخفيتِ عني أمر ياسمي؟"
- "وهل يمكن لمثلي أن يخفي عن أعلم أهل الأرض شيئًا؟!" أجابته بنبرة ساخرة قبل أن تكمل حديثها....
- "ولكن يبدو أنه حتى عبدالرحمن من الممكن أن تُخفى عنه بعض الأمور."

وبهذه الجملة الأخيرة، ذهب الطيف فجأة كما ظهر.... لحظات قليلة مرت، قبل أن تشتد الرياح، وتنهمر الأمطار، وتُسمع صرخات الرعد، ويُضيء البرق ظلمة السماء. في وسط هذه الأجواء العاصفة، عاد عبدالرحمن لسيره بسكونه المعتاد....

33

- "جُلّاب...." نادته ياسمي ذات مساء عندما توقفوا من أجل الاستراحة والمبيت، ثم صاحبته بعيداً عن آذان الباقين....

- "هل لديك ذلك المسحوق الذي يمكنني من رؤية العالم المحجوب؟"

استغرب جُلّاب طلبها، كما بدا من نظرةٍ أرادت أن تسألها عن سر هذه اللهفة التي ظهرت فجأة بعد أيامٍ من مغادرتهم وادي القُنَّب.

- "أنت لم تسألني قط عن الذي رأيته في القاعة مع حيدر الكاشف. ألا تود أن تعلم؟"

هز جُلّاب رأسه ثم قال:

- "لو كان ينبغي لي أن أعلم، لأبقاني مولاي في القاعة. لكل شخصٍ سره، كما لكل طير خِلُّه."

- "كلّما غفت عيناي رأيت طيفه يحوم حولي، وكأنه يرغب في التحدث معي دون أن يقدر؛ وفي كل مرة أرى نفسي أحاول التقرب منه ولكن دون أن أستطيع، ثم فجأة أسقط من برج عالٍ، فأستيقظ من النوم قبل أن أرتطم بالأرض! لم أعد قادرة على النوم بسبب تكرار الرؤية نفسها المرة تلو الأخرى!"

تعجب جُلّاب مما سمع، دون أن يفهم عمّن تتحدث. ثم بدأ يتنبه إلى الهالات السود التي استقرت تحت عينيها....

- "لعلهـا مجـرد أضغـاث أحلام أرهقتك. فتاة مثلك مهما بلغت من القوة وشدة البأس، فلديها قدرة محدودة على التحمل، وأنت عانيت الكثير."

- "لا!" صرخت في وجهه....

- "لم تكن مجرد أضغاث أحلام! بل هو الكلب الشرس!"

- "الكلب الشرس؟!" ردّد بنبرة متعجبة لم تخلُ من الشفقة تجاه فتاة بات متيقناً أنها تعاني إرهاقاً شديداً.

- "نعم، هو نفسه الذي رأيته من قبل! والآن أجِبني، هل لديك ذلك المسحوق؟!"

- "لا، ليس لدي شـيء منه؛ فمولاي لم يعلمني سـره؛ ولكن لدي شـيء آخر قد يريحك من كل هذا العناء، فما أشـد حاجتك إلى النوم!"

- "ألم تفهم ماذا قلت لك قبل قليل؟!! كلّما نمت رأيت طيفه يحوم حولي، ثم رأيتني أسقط!! هل فهمت الآن؟! هل فهمت؟!!" علا صوت ياسمي حتى أسمع الجميع.... جاءت نور تجري لترى ما سبب هذا الصراخ، ومن ورائها محمد الطوسي ومحمود ونوران وعدد من فرسان الرابعية؛ جميعهم جاؤوا على عجل، ما زاد من ربكة جُلّاب، فشعر بحرج شديد.

- "ما الخطب؟! ما سبب كل هذا الصراخ؟!" بادر محمود بالسؤال، ثم نظر إلى ياسمي فهاله منظرها المُتعَب.....

- "ما الذي أصابها؟! تبدو كأنها مريضة!"

- "لا تتحدث عني وكأني لست موجودة! أنا لست مثله في العالم المحجوب!!" صرخت ياسمي في وجه محمود، ثم أدارت ظهرها للجميع وانصرفت عنهم.

- "ماذا حل بها؟! فهذا ليس طبعها." تساءلت نوران مخاطبة جُلّاب.

- "لا أدري..... غضبت مني لأني نصحتها بالخلود إلى الراحة."

- "ماذا قصدت بأنها ليست مثله في العالم المحجوب؟ عمّ كانت تتحدث؟" سأل محمد الطوسي.

- "ماذا؟!" ارتبك جُلّاب من السؤال، فكيف يجيبه عن مسألة قِلةٌ قليلةٌ من الناس هم من يدركون أمرها! لو حدّثه عن العالم المحجوب وخباياه، لربما ظن أنه إما مخبول أو مجنون أو معتوه! لذلك لم يجد أمامه من خيارٍ الآن إلا إجابة واحدة....

- "خطرفة قلة النوم؛ أظنها كذلك."

* * *

أخذت حالة ياسمي تسوء يوماً من بعد يوم، حتى باتت غير قادرة على المضي في السير مع القافلة دون مساعدة. لم تفدها كثيراً الأعشاب التي حضّرها لها جُلاب، ما زاد من حيرته حول سبب انتكاستها على هذا النحو المفاجئ..... "لو كان مولاي حيدر الكاشف حاضراً لعلم كيف يتصرف،" أخذ جُلّاب يخالج نفسه، "لكن لعنة الله على يد الغدر التي طعنته!"

- "حالة الفتاة تزداد سوءاً.... يا لها من علة داهمتها فجأة بهذا الشكل!" قطعت نور عليه خلوته.

- "ليته كان بوسعي فعل المزيد، ولكن...." لم يعلم جُلّاب ماذا يقول، فحيرته كانت أشد بياناً من بزوغ فجر ذلك اليوم.

- "لا تلم نفسك. أنت فعلت كل ما بوسعك." قالت واضعة يدها على خده، وقد شعرت بخيبة أملٍ تتملكه.

- "أخشى.... أخشى أن نفقدها إن استمر الحال على هذا الشكل." كادت الكلمات لا تجد لها مخرجًا من فيه.

- "هناك أمر يحيرني...." صمتت نور قليلًا قبل أن تُكمل....

- "ذلك الرجل العربي، عبدالرحمن..... كأنه غير قلق أو غير آبه بها. لا أدري، ولكن شيئاً ما فيه يثير حيرتي وريبتي..... هل تعلم من يكون؟ وهل تثق به؟"

نظر جُلّاب إليها، مستغربًا السؤال.....

- "ولماذا لا أثق به؟ فلولاه لذبحنا فرسان المغول، أم أنك نسيتِ؟"

- "ولكن هل تعلم من هو؟ وما علاقة رجل عربي مثله بفرسانٍ من الأفغان؟"

- "أنا لا أعلم سوى ما قالته لنا ياسمي ونوران خاتون عنه، غير هذا فلم أسمع به من قبل، وإن كان....." تردد جُلّاب في إكمال الجملة.

- "وإن كان ماذا؟" ألحّت نور في السؤال.

- "أظنه يخفي من ورائه سرّاً كبيرًا.... لا تسيئي فهمي؛ فأنا لم أقصدها بطريقة سيئة، ولكن نظراته المتأملة دومًا، وقلة حديثه، وهدوءه الدائم، كلها تذكرني بمولانا، قدس الله روحه العطرة."

- "مولانا حيدر الكاشف؟!"

- "نعم، وكأنهما نُسِجا من القماش نفسه..... أدرك أن ما قلته يبدو غريبًا، ولكن هذا ما بدأت أشعر به مع مرور الأيام في مَعِيَّته."

- "أنت أدرى مني فيما يخص هذه الأمور، ولكني لا أُخفي عليك أني قد استرقت سمع أطراف حديثٍ دار بين نوران خاتون والأمير محمود..... يبدو كأن الأمير الخوارزمي لا يثق به، فظلّ يحذر جدته منه ومن امرأة يتبعها هؤلاء الفرسان الأفغان، اسمها أم الوفا."

- "أم الوفا..." ردّد جُلّاب مع نفسه....

- "لا أظنني سمعت بها من قبل؛ ولكن ما علاقة كل هذا بما يحدث لياسمي؟"

- "لا أدري؛ لعله لا توجد أي علاقة..... لكن، ألم يحيرك ظهوره فجأة مع الفرسان، وكأنه كان يعلم أننا سنكون موجودين عند تلك الحظيرة المتوارية عن الأنظار في ذلك التوقيت؟! المصادفة لا تصل إلى هذا الحد."

- "بلى، حيرني ذلك الأمر، وسألت نفسي السؤال نفسه، ولكني حتى الآن لم أجد له إجابة. العالَم يا نور مليء بالأسرار، منها ما قد يشيب له شعر الغلمان. لكني على أي حال لست متوجسًا من عبدالرحمن، ولا من هؤلاء الفرسان. لو أرادوا بنا السوء، لما منعهم عنّا شيء، فنحن في حاجة إليهم، وهم ليسوا في حاجة إلينا."

أومأت نور برأسها على مضض، وكأنها لم تقتنع تمامًا بما قاله

جُلّاب..... "نعم العالم مليء بالأسـرار، ولكن ليسـت كلها أسـرارًا محمودة، بل بعضها قد يكون مُميتًا!" ولوهلة خشيتْ أن تكون تلك الفتـاة المغوليـة المسـكينة تعاني أثر سـرٍّ من تلـك النوعية القاتلة من الأسرار!

34

بدا الأمر لمراد وكأن ما كانت تعانيه ياسمي هو نفسه الذي رآه في تلك الرؤية يعاني منه بعد عودته من رحلة أوزبكستان مع أبيه! الأعراض تكاد تكون نفسها، وإن بدت أكثر حدة معها؛ وكما كان يرى في منامه أحداثاً تبدو واقعية وليست مجر أحلام، فياسمي كذلك، وإن كان، بحسب ما فهم من حديثها مع جُلّاب، هو محور هذه الرؤى! تمنى لو أنه كان باستطاعته رؤية ما كانت تراه، ثم تنبه لأمر رآه في تلك الرحلة العجيبة التي خاضها من خلال قاعة حيدر الكاشف، التي لا يزال يجد صعوبة في وصف ماهيتها: مخطوطة جُلّاب التي قرأها أبوه والتي أشارت إلى أهل الكشف وقدراتهم المختلفة، وكذلك ذكرت أم الوفا! لكن مما بدا لمراد أن جُلّاب لم يخط شيئاً بعد في هذا المضمار، خاصة أنه لم يسمع من قبل بأم الوفا، كما ذكر لنور..... "إذاً متى سيكتب ذلك الكتاب؟ ومتى سيلتقي أم الوفا؟" أخذ مراد يتساءل مع نفسه، ثم فجأة تبين له أمر.....

- "هل نحن متجهون إلى قرية الرابعية، إلى أم الوفا؟" سأل مراد عبدالرحمن، بعد أن استرجع ما ذكرته ياسمي في قرية السوت عن تلك الجارية التي أمر السلطان علاء الدين بقطع رأسها.
- "نعم." أجابه عبدالرحمن باقتضاب.
- "الأمر متعلق بي أنا وبياسمي، أليس كذلك؟"

- "جميع الأقدار تتداخل، وبعضها تتشابك... الأمر لا يتعلق بك وبياسمي فقط."

بالأمس القريب كانت مثل هذه الردود المبهمة من قبل عبدالرحمن تثير حفيظة مراد؛ تجعله يشتطّ غيظًا بسبب غموضها؛ ولكن هذه المرة الأمر كان مختلفًا. هل لأنه اعتاد على مثل هذه الألغاز منه؟ أم ربما لأنه بدأ يفهمها، ويدرك مغزاها؟

- "ما الذي تريده مني ومنهم؟ أنت لم تظهر لنا بمحض المصادفة، ولا أقصد فقط عند الحظيرة خارج وادي القُنَّب، بل حتى من قبل ذلك. من أنت؟ وماذا تريد؟"

رفع عبدالرحمن رأسه نحو السماء، ثم أشار بيده قائلاً:

- "هل ترى كل هذه النجوم؟ الناظر إليها من عامة الناس سيعتقد أن ما يراه هو أمر قائم، لا شك فيه؛ وأنه يرى الوجود كما هو وليس كما كان، ولكنك تدرك جيداً بما لديك من علم، أن الحقيقة بخلاف ذلك؛ أن هذه النجوم نحن لا نراها الآن، ولكننا نراها كما كانت في الماضي البعيد. لو تسنى لك أن تشرح هذه المسألة لشخص مثل جُلّاب، على قدر من العلم، ولكنه ابن هذا الزمان، فهل ستستطيع؟ لو أن شخصًا حاول أن يشرح لك هذا الوضع الذي أنت عليه، قبل أن تجد نفسك فيه، فهل كنت ستصدق؟ هل كنت ستفهم؟ أمور كثيرة بدأت تدركها الآن، كنتَ غافلًا عنها بالأمس القريب، وأمور أخرى ستدركها عمّا قريب؛ لكن ثق بأن الأسئلة لن تنتهي، لأن الأجوبة لن تكون كافية. إن كنت تعتقد أني أشكل لك لغزًا كبيرًا، فأنت لم تفهم بعد هذا الكون الذي تعيش فيه؛ لأنه هو اللغز الكبير، وليس أنا."

لـم يجـد مـراد الكلمات التي يرد بها علـى ما قاله عبدالرحمن. لقد لمس حديثه شيئًا فيه. كان منطقيّاً إلى درجة عجيبة، جعله لأول مـرة يقتنع بشـيء يقوله ذلك الرجـل الغريب ذو العمامة الخضراء... ولسبب ما، هذا الأمر جعل مرادًا أكثر ريبة ممّا ينتظرهم في غدٍ ليس ببعيد!

35

اشـتد الخلاف بين تركان خاتون وابنها السـلطان علاء الدين محمد، حيث أصرت على الاسـتمرار في السـير نحو شـمال البلاد، حيـث عشـيرتها الكانكالـي، فـي حيـن أراد السـلطان المضـي غربـاً، بالقرب من باقي الممالك الإسلامية، على أمل أن يذودوا عنه عندما يستشعرون خطر اقتراب جيوش المغول. أصرت على موقفها، وأصر على رأيه، فكانت النتيجة الفرقة عند منعطف الطريق، كلٌّ في اتجاه، على الرغم من محاولات الأمير غياث الدين الحثيثة للتوفيق بينهما، ولكن دون جدوى.

لم ينظر علاء الدين خلفه بعد أن اتخذ قراره، فسـار مع موكبه فـي اتجـاه محطته الأولى، مدينة نيسـابور بخراسـان، قاطعاً الصحراء التي تفصله عنها في بضعة أيام، حيث لم يتوقف إلّا من أجل راحة الدواب والقليل من النوم، خاصة بعدما جاءه الخبر بأن جنكيز خان أرسل وراءه جيشاً بقيادة أحد أبرز قادته، سوبوتاي!

* * *

لـم يكـن اسـتقبالاً حافلاً ذلك الذي تلقاه السـلطان علاء الدين محمد عند بوابة مدينة نيسـابور، إذ لم يخرج لاسـتقباله سـوى والي المدينـة وبعـض الأعيـان. لم يكن هذا ما توقعه سـلطان خوارزم.... فأين الأهالي؟ وأين التجار؟ وأين القضاة والعلماء؟!....

الأجـواء كانـت كئيبة في نيسـابور؛ الأزقة تـكاد تكون خالية من

المارة، وكأن الذي دخل المدينة هم المغول، وليس سلطان البلاد وحاشيته! كيف سيجمع جيشًا من هؤلاء لمواجهة أعدائه؟! أخذ يتساءل وهو في طريقه إلى قصر الوالي الذي سيبيت فيه....

* * *

انتقل علاء الدين إلى الجناح السلطاني بالقصر، فور وصوله، وأمر الجميع بالانصراف عدا الوالي وقائد جنده. أراد أن يعرف من الوالي عدد الجنود والعتاد الذي بإمكانه أن يوفّره له قبل أن يصل إليهم جيش المغول؛ ولكن الوالي لم تكن لديه أخبار سارّة، إذ كان هو من بحاجة إلى المعونة!

- "عدد جنود نيسابور يا مولاي لا يتجاوز تسعة آلاف جندي. نحن في أمس الحاجة إلى المدد، خاصة أن أهالي المدينة لا يجيدون فنون القتال، ولن يستطيعوا الصمود أمام قوات المغول الغاشمة."

- "تباً لك أيها الوالي، سَوَّدْتها في وجهي!" صرخ علاء الدين غاضبًا، ثم التفت إلى قائد جنده وأضاف بحرقة:

- "هل نستطيع مواجهة الجيش الذي أرسله كلب المغول خلفنا، بما لدينا من جنود؟!"

تردد قائد جند السلطان قليلًا قبل أن يجيب.....

- "مولاي، نحن في حاجة لإعلاء الهمم. لعله إن تحدث العلماء والدعاة عن فضل الجهاد وحثوا الناس عليه، قد تختلف الموازين."

أومأ علاء الدين محمد برأسه موافقة على ما سمع، ثم حوَّل نظره إلى الوالي الذي فهم على الفور أن السلطان راغب في سماع رأيه....

- "إنها فكرة سديدة، ولكن....." تردد الوالي.

- "ولكن ماذا؟" أصرّ السلطان.

- "أهالي نيسابور منقسمون بين حنابلة وشوافع، وقد بلغ الخصام بينهما أوجه.... أخشى إن تحدث علماء الحنابلة، أن يناقضوهم الشوافع، وإن تحدث علماء الشافعية، أن يناقضوهم الحنابلة."

- "ويحهم! وهل هذا وقت الصراع؟!"

- "هذا هو الحال يا مولاي."

صمت السلطان قليلًا، ليفكر في خاطر طرأ عليه توّاً.....

- "أي الفريقين لديه العدد الأكبر من الأتباع، الشوافع أم الحنابلة؟"

- "الحنابلة يا مولاي."

- "حسنًا، إذًا استدعِ لي قاضي الحنابلة، وأرسل بعض العسس لقاضي الشافعية، ليمنعوه من الخروج من داره والتحدث مع أتباعه."

- "أمر مولاي." أجاب الوالي، ثم انطلق على الفور من مجلس السلطان، لينفذ ما أمره به.

* * *

ما كاد السلطان يغفو ويغوص في فراشه الوثير وبجواره جارية حسناء أهداها إليه الوالي فأفرغ فيها شهوته، بعد أيام طوال قضاها ما بين راكب على صهوة فرسه ونائم على رمال الصحراء، حتى دخل عليه ابنه الأصغر الأمير غياث الدين على عجل ودون استئذان، مصطحبًا معه قائد الجند.....

- "علينا الذهاب الآن!" صاح، موقظاً أباه، بنبرة لا تخلو من القلق والخوف.

- "ماذا دهاك؟!" استغرب السلطان علاء الدين هذا الاقتحام الفج لخلوته.

- "لقد فرّ قاضي الشافعية، بعد أن قتل أتباعه العسس!" قال قائد الجند، موضحًا الأمر.

- "والمدينة الآن في حالة من الغليان، بعد أن علم الشوافع بمناصرتنا للحنابلة على حسابهم، وبما جرى لقاضيهم." أضاف غياث الدين.

- "وكيف علموا باتفاقنا مع قاضي الحنابلة؟!" تساءل السلطان دهشاً.

- "لقد سرّب الوالي الخبر بعدما علم بنبأ فرار قاضي الشافعية، حتى ينأى بنفسه."

- "لعنة الله عليه! والله لأعْزِلنَّ هذا الجبان الخائن!" صرخ السلطان هائجًا بعد أن قام من سريره.....

- "أين هو الآن؟!"

- "هرب إلى القلعة ليتحصن فيها....." أجاب قائد الجند، ثم التفت بعينيه إلى الأمير غياث الدين، لكي يكمل هو باقي الحديث.

- "هذا ليس كل ما في الأمر..... لقد جاءنا خبر من أحد أتباعنا المخلصين من أعيان الشافعية، بأن القاضي وعددًا من التجار وكبار القوم غادروا المدينة متجهين إلى معسكر المغول، لكي

يعرضوا عليهم تسليم نيسابور مقابل أن يناصروهم على الحنابلة ويمكنوهم منهم."

- "ماذا؟!" أخذ السلطان يحلق ببصره في جميع أرجاء الحجرة، وقد أصابته حالة من الذهول لما سمعه توّاً من ابنه الأصغر. لم يمضِ يوم واحد على مجيئه إلى نيسابور، وها هو ذا سيضطّر إلى مغادرتها، هربًا ليس فقط من المغول، بل حتى من بعض رعيته الذين جاء ليحتمي بينهم! لوهلة تمنى لو كان سمع كلام أمه واتجه معها شمالًا إلى مدينة خوارزم، لربما وجد هناك الحماية التي كان ينشدها من قبل عشيرة أخواله الكانكالي!

- "علينا الذهاب الآن يا أبي، فالوقت يداهمنا."

أومأ السلطان رأسه بالموافقة، فلم يكن أمامه خيار آخر، بعد أن وجد نفسه واقعًا بين مطرقة المغول وسندان والي نيسابور وأهلها!

36

- "لن يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة!" كان أول ما نطق به الأمير محمود بن ممدود عند دخوله قرية الرابعية الواقعة على هضبة خضراء شمال غزنة، والمحاطة بحقول القمح والقطن وأشجار التين.

- "محمود! ليس هذا وقته." نهرته نوران خاتون، ثم أضافت قائلة:

- "تذكر نحن في ضيافتهم."

- "لماذا نحن في حاجة إلى التوقف هنا معهم، فغزنة لم تعد بعيدة؟!"

- "ياسمي في حاجة إلى الراحة. انظر إليها، فلو لم يتكفل عبدالرحمن بحملها معه على جواده، لما استطاعت أن تتحرك من مكانها."

- "ولكن أما كان بالإمكان أن نتوقف عند قرية أخرى لا تحكمها امرأة؟!"

- "وما المانع في أن تحكم امرأة قرية؟" قاطع محمد الطوسي حديث محمود مع جدته نوران خاتون، ما ضايق الأمير الخوارزمي.

- "لأنـه أمـر حرمـه الديـن." قال محمود على مضض، حيث لم يكن راغبًا في مجادلة تلميذ واصل بن غيلان "الزنديق".
- "ولكن الدين لم يحرم؛ بعض البشر هم الذين حرموا بفهمهم القاصر للدين."
- "ويحك يا هذا! هل تعترض على ما قاله الرسول عليه الصلاة والسلام؟!"
- "بل أعترض على الزعم بأن الرسول عليه الصلاة والسلام قد قال إن المرأة لا يحق لها أن تُولى الأمر."
- "كف عن المجادلة، فالبخاري هو من أخرج حديث: لن يفلح قـوم ولـوا أمرهـم امرأة!" ظن محمود أنه قـد أغلق باب الجدال بجملته الأخيرة.
- "البخاري عالم جليل، ولكنه بشر يخطئ ويصيب، وقد أخطأ في هذا الحديث."
- "ويحك! تشكك في البخاري؟!"
- "لا أشـكك فـي البخـاري، ولكنـي أشـكك فـي هـذا الحديث الـذي انفـرد فـي روايته أبو بكرة، الصحابي الذي أسـلم بعد فتح الطائـف، أي قبـل وفـاة الرسـول عليه الصلاة والسـلام، بعامين؛ وطالمـا أن الحديـث ليـس متواتـرًا ويقـع في دائـرة الآحاد، فهو ظنـي الثبـوت وليس قطعيـاً، وفي هذه الحالة ينبغي إعمال العقل في متنه لتبيان صحته، وهذا الحديث المزعوم يخالف ما ورد في القرآن؛ فكيف لن يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة، والله امتدح الملكة بلقيس في القرآن، حيث كانت تشاور قومها في أمرها، بل قادتهم

إلى سليمان عليه السلام والإيمان بالله. أولم يفلح قومها بسبب توليها لأمرهم؟"

- "هذا.... هذا استثناء، والاستثناء لا ينفي القاعدة." تلعثم محمود في ردّه، وحاول إنهاء النقاش.

- "ولكنها قاعدة مزعومة، رواها أبو بكرة، إن صح أنه رواها، ليبرر سبب عدم خروجه مع جيش عائشة في موقعة الجمل. فهذا الحديث فيه قدح غير مباشر لكل من خرج وراءها من المسلمين، ومنهم كبار الصحابة مثل الزبير بن العوام، وطلحة بن عبيدالله. كما إن هناك خللًا في سند هذا الحديث لم يقر به البخاري؛ فأبو بكرة في زمن عمر بن الخطاب اتهم المغيرة بن شعبة بالزنا، ولم يستطع أن يأتي بأربعة شهود، فأقام عليه الخليفة عمر بن الخطاب حدّ رمي المحصن؛ وحد رمي المحصن كما ورد في القرآن: ثمانون جلدة وألا تقبل له شهادة أبدًا.... فكيف إذًا نقبل بما يقوله أبو بكرة عن الرسول عليه الصلاة والسلام، خاصة أنه هو الوحيد الذي انفرد به، وأن مقولته يترتب عليها، شئنا أم أبينا، تخطئة من هم أعلم منه، وأفضل مكانة، من الصحابة."

- "كفى يا محمد." قاطعت نوران خاتون النقاش الدائر بينه وبين حفيدها، بعد أن شعرت بأن الأمر قد يتحول إلى عراك في أي لحظة؛ فعلى الرغم من أن محمود لم يعد قادراً على مجاراة حجج محمد الطوسي، إلّا أنه يمتلك القوة الجسدية التي تمكنه من إنهاء النقاش لمصلحته، إما بقبضة يده أو نصل سيفه!

- "وأنت يا محمود، يجدر بك أن تتذكر أننا ضيوف هنا عليهم؛ وعلى الضيف أن يحترم ما يقرّ به صاحب الدار، وإن لم يتفق

معه. عِدني بأنك ستفعل."

تردد قليلًا الأمير الخوارزمي، ثم قال:

- "أعدك."

خرجت منه الكلمة على مضض!

37

وكأن جسـدها لـم يعـد ملـكًا لهـا! لـم تعد قادرة علـى التحكم فيـه. أصبـح كتلـة متراخيـة كقطعـة من العجين. هل هـو الإرهاق من قلة النوم؟ أم مرض غامض بدأ يصيبها؟ أم أنها لعنة تبتنكر قد تجلت لها من جديد على هذا الشكل؟! أسئلة أخذت تعصف بذهنها، فتركتها أكثر إرهاقًا مما كانت عليه. لم يعد جسـدها هو فقط المتراخي، بل حتى عقلها أصبح مع مرور الأيام أقل حدة ووهجًا، حتى لم تعد قادرة على أن تفرق ما بين عالم النوم واليقظة، وكأن ذلك الفاصل الذهني الذي يمتلكه كل إنسان ليستعين به على تبيان الفارق بين ما هو قائم وما هو غير موجود، قد تلاشى من عندها! هل أصابها الجنون؟!....

شعرت بذراعين قويين يحملانها كل يوم ويضعانها على فرس، ويمسكان بها. حاولت في لحظة من لحظات التنبه القليلة، أن تتبين من الفاعل؛ تمنت أن يكون محمودًا، ولكنها لم تعد حتى قادرة على تبيان هذا الأمر! كل ما كانت تراه هو ذلك الطيف كلما غاصت في النوم؛ طيف ذلك الرجل الذي رأته أكثر من مرة عبر سـنين حياتها؛ في كل مرة يتشكل على أكثر من هيئة. رأته داكنًا في خيمة تبتنكر منذ سنين، ورأته مضيئًا في بخارى أمام القلعة، ثم رأته بين هذا وذاك في قصر حيدر الكاشف بمدينة وادي القُنَّب..... مراد قطز! قطز؟! قطز؟! شـيء عجيب أن يُسـمى شـخص باسم كهذا. اسـم يستخدمه المغول لوصف عبدٍ ثائر: الكلب الشـرس! لم تفهم ياسـمي لماذا يتخذ أيُّ

إنسـان سـوي لنفسـه اسمًا كهذا؟! ولكن ما الذي كان يريده منها هذا الكلب الشرس؟ لماذا أصبح يلاحقها هو وعالمه العجيب في منامها، بل أصبح يظهر لها الآن حتى في يقظتها؟! سؤال يتبعه سؤال، فيتبعه سؤال، والأسئلة لا تريد أن تنتهي، والأجوبة لا تريد أن تأتي، فيزيدها ذلك رهقًا! عواصف وأعاصير اتخذت من رأسها مستقرّاً..... "ما هذا الذي يحدث لي؟! أهذا هو الجنون؟!"

38

حمل عبدالرحمن ياسمي إلى تكية ملحقة بمسجد القرية، أقيمت خصيصًا للوافدين على قرية الرابعية. استقبله رجل عجوز تعرف إليه على الفور، فرحب به وبرفاقه القادمين معه، وإن تعجب من منظره وهو يحمل فتاة ذات ملامح لم يشاهد مثلها من قبل، مستكينة بين ذراعيه، لا تكاد تحرك ساكنًا!

- "لا حول ولا قوة إلا بالله، هل أصابها مكروه؟!" سأل العجوز مبديًا قلقه.

- "لا، هي في حاجة فقط إلى الراحة بعيدًا عن الصخب." أجابه عبدالرحمن.

- "وماذا عن باقي رفاقك؟ هل أجهز لهم مكانًا للمبيت؟"

أومأ عبدالرحمن رأسه بنعم، ثم انطلق خلف الرجل العجوز الذي أخذه إلى غرفة تطل على الفسحة التي تتوسط المكان. وضع ياسمي على المرقد ثم طلب من نور أن تبقى معها، لتراعيها حتى يتحسن حالها، فانصرف على عجل من التكية من غير أن يلتفت إلى محمود بن ممدود الذي حاول دون فائدة أن يستفسر منه عن بعض الأمور.

* * *

لم يكن لقرية الرابعية سور يحميها، على الرغم من حجمها

الـذي يـكاد يقتـرب من حجم مدينة صغيرة من مدن مملكة خوارزم. بيوتها الطينية كانت متناثرة على مساحة التلة وارتفاعها، من غير تميز يذكـر فـي أحجامهـا. جميـع المنـازل كانت من طابـق واحد، وتكفي لإيـواء أسـرة صغيـرة لا تتعـدى خمسـة أفراد. قرية ليـس فيها أي أثر للثراء، أو ما قد يجعل أي جيش عابر أن يطمع فيها، وكأنها اتخذت من منازلها الفقيرة ساترًا ليحجبها عن أطماع العالم.....

استـمر عبدالرحمـن فـي سيره على طُـرق القريـة الصاعدة عبر التلـة الخضـراء، حتـى وصل إلى منزل يعلو باقي المنازل، وكأنه يطل عليها جميعًا. طَرَقَ الباب ثلاث طرقات ثم انتظر. بعد لحظات قليلة، فُتـح البـاب مـن قبل امرأة عجوز، تماسُـك قوامِها الرشـيق لا يوحي لمن يراها أول مرة أنها قد تجاوزت عقدها الثامن منذ أيام. بابتسامة كاشفة عن أسنان ناصعة البياض وعلى حالها كما هي دون أن تتآكل من جرّاء الدهر الطويل، دعت ضيفها الذي كانت متوقعة قدومه إلى الداخل، ثم أغلقت وراءه الباب....

39

– "حياك الله يا عبدالرحمن. شرَّفت داري أنت ومن معك."

استغرب مراد قطز ما قالته صاحبة الدار، فعبدالرحمن كان بمفرده؛ لم يأتِ معه أي أحد، سوى..... لوهلة تنبه لأمر ما ظن أنه كان ممكنًا! هل كانت تعنيه هو؟! هل بإمكانها رؤيته، كما يراه عبدالرحمن، ومن دون تلك المساحيق والأبخرة التي استخدمها حيدر الكاشف؟!

– "لا تتعجب، فالمعرفة ليست حكرًا على أحد، ولا حتى عبدالرحمن." أجابته وكأنها تسمع أفكاره....

– "أم الوفا؟" ذكر اسمها في صيغة سؤال، وإن كان متيقنًا من الإجابة.

– "نعم، يبدو أنك سمعت عني."

لم يجبها مراد؛ ظل يتأملها. لم يرَ في حياته شخصًا يبدو عجوزًا ويافعًا في الوقت نفسه، وكأن أنامل الدهر لامسته بحنان. شيء ما في هذه المرأة، لا يدري ما هو، جعلها تبدو غير سائر نساء العالم. الصوت الذي كان يخرج من فمها عندما تتحدث، بدا فيه صفاء ونقاء يجعل المستمع إليه يشعر وكأنه عاد طفلًا بين أحضان أمه الدافئة، مُحَصَّنًا من جميع مآسي الحياة، لينتابه إحساس عجيب بالطمأنينة، وكأن الكون كله في تلك اللحظة قد منحه صكَّ الأمان!

- "أعلم أن أسئلةً كثيرةً تدور في رأسك الآن، ومنذ أن وجدت نفسك على هذا الحال، كما أعلم علم اليقين أن عبدالرحمن تركك تغرق في أعماق تلك الأسئلة التي تحير الألباب، ولكن ثق في أن الحيرة هي التي تحرك العقول، بل هي الفارق الأهم بين عالم الأحياء وعالم الأموات. إن سألت نفسك في يوم إن كنت حياً أم ميتًا؟ فاعلم أنك حي، لأن الموتى لا يطرحون هذا السؤال؛ وكم من نفسٍ ماتت وإن بقي جسدها ينبض بالحياة." صمتت قليلًا، وكأنها أرادت مرادًا أن يتأمل ما قالته قبل أن تكمل حديثها.....

- "هل تعلم أين يكمن جمال هذا الكون؟ يكمن في غرائبه وأسراره التي وضعها خالقه في متناول يد الباحث عنها. وسر أسرار هذا الكون أنه خُلق من نسيج واحد، هو وكل ما فيه؛ وحدة متناغمة في كل شيء، ما على الإنسان إلا أن يتَّحد معها لكي يفهمها؛ ولكن هذا العلم في حاجة إلى تهيئة لكي يتقبله الإنسان ولا يسيء فهمه؛ فلا يوجد ما هو أسوأ من علمٍ يأتي قبل موعده، وكم من أناسٍ انزلقوا في متاهة الجهل الذي بني على علمٍ في غير موضعه، فظنوا أن وحدة الوجود تعني الوحدة مع خالق الوجود، وهذا أمر محال أن يكون. كما أن الإنسان لديه قدرة عجيبة على الطغيان، حتى على نفسه، إن تمكن. لذلك لا بد من التهيئة قبل أن تأتي المعرفة..... هل فهمت ما قصدت قوله؟"

- "علم في غير موضعه قد يقود إلى المزيد من الجهل." ردّد مراد العبارة التي سمعها مرات ومرات من عبدالرحمن الذي

ظل صامتًا في معية أم الوفا في أثناء شرحها بإسهابٍ معنى هذه الجملة البسيطة.

- "حسنًا... إذًا أنت الآن قد قطعت الشوط الأول من الطريق؛ ولكن يبقى السؤال: هل أنت مستعد للسير قُدمًا، وتحمل مغبة باقي الطريق ومنعطفاته القاسية؟"

أدرك مراد في قرارة نفسه إلى ماذا كانت تشير أم الوفا، وإن لم تفصح في الحديث. الأمر الذي لم يستطع المضي فيه عندما كان في معية حيدر الكاشف وياسمي.... ذلك الذي رآه إلى أين يسير، ولم يشأ أن يواجهه، خاصة في وجود تلك الفتاة المغولية التي بات يشعر بالقرب منها أكثر من أي شخصٍ آخر قابله في رحلته هذه. لم يرغب في أن تَطَّلع على حقيقة آخذة في الانكشاف له، ولم يعجبه ما بات يلوح له في آفاقها؛ ولكنه بات يدرك الآن أنه إذا أراد معرفة الحقيقة فلا بد أن يكون على استعدادٍ تام لتحمل آلامها مهما بلغت، وإلّا فلا طائل ولا جدوى من البحث! أدرك مراد قطز أن عليه أن يكمل المشوار.... أدرك أن عليه أن يعود إلى ما بدا وكأنه ماضيه، لكي يفهم حاضره وينقذ مستقبله!

40

غادرت سوسن ذكري مع مراد إلى ولاية نيوجرسي الأمريكية، تاركـة أهلهـا وأصدقاءهـا فـي حالة من التخبط والذهـول! أرادت أن تكـون مـع عشـيقها الـذي يبلغ منتصـف عمرها. لم تهتـم بالفضيحة التـي سـتلحق بأهلهـا من جرّاء هـذا الفعل، ولم تهتم بأثر فعلتها هذه على علاقة أخيها وجيه بزوجته منال. كل ما رغبت فيه هو أن تكون بجوار ذلك الفتى الذي ألهب مشاعرها، وجعلها تشعر برعشة اللذة، كلمـا داعـب بأنامله الدافئة جسـدها النحيل، حتى أصبحت لا تشـبع منـه أبـدًا، حيـث يجعلهـا تسبح في سـماء الرغبة الجارفـة، فتنتفض علـى إثـره كل ذرة مـن جسـمها فـي شـبق ما بعده شـبق! في سـبيل تلك اللحظات الساحرة، كانت على استعداد تام لتلبية جميع طلبات مراد، من اسـتئجار شـقة فاخرة بجوار الجامعة، وشـراء سيارة رياضية فاخرة، وتلبية جميع احتياجاته اليومية. كانت تَصْرِف عليه دون أدنى امتنـاع، فـي حيـن كانـت طلباته تزداد يوماً بعد يـوم دون أدنى حرج. كان مراد حريصًا على أن يظهر معها أمام الملأ، وخاصة في الأماكن التي يتجمع فيها السعوديون؛ ولأن مدينة برنستون لم تكن بها جالية سعودية كبيرة، فقد حرص على أن يذهبا سويّاً في عطل نهاية الأسبوع إلى واشـنطن العاصمة، حيث أعضاء السـلك الدبلوماسـي وعوائلهم. أراد أن تصـل صورتـه مـع سوسـن أخـت وجيـه ذكـري إلـى جميـع السعوديين في الخارج والداخل. أراد أن يكونا حديث المجتمع، أن

يتحدث كل من يسوى ولا يسوى عن سليلة الحسب والنسب التي هربت مع ابن زوجة أخيها، لتعيش معه في الحرام وتصرف عليه من أموالها الخاصة. أرادها فضيحة ما بعدها فضيحة، تعصف بعلاقة وجيه مع أمه منال! وهذا ما تحقق له، عندما جاءه خبر الطلاق. حينها أرسل صورة له مع سوسن في لحظة عناق إلى كلٍّ من وجيه ومنال، وكتب على ظهر النسختين من الصورة العبارة نفسها: مبروك!

* * *

كان سائرًا على قدميه في يوم جميل من أيام الربيع في شارع ناساو، قادمًا من الجامعة عندما استوقفه رجل خمسيني أنيق الملبس، وطلب التحدث معه على فنجان من القهوة في أي مكان يختاره. عرَّف نفسه بتيموثي بلفيو، محامي أسرة ذكري في الولايات المتحدة. توقع مراد أن مثل هذا اللقاء سيأتي عاجلًا أم آجلًا، ولكن لم يكن يتمنى أن يأتي في ذلك اليوم الربيعي الذي كان يستمتع فيه بنسمات الريح وهي تلامس وجنتيه وبالكاد تحرك شعر رأسه الأسود الكثيف؛ وافق مراد على مضض، ثم ذهب معه إلى أقرب مقهى.

- "أشكرك يا سيد مراد على قبولك دعوتي المفاجئة التي أتت من غير سابق موعد، ولكن موكلي السيد وجيه ذكري أصرّ على أن أنهي بنفسي كل شيء اليوم."

- "ولِمَ اليوم على وجه الخصوص؟ ماذا يفرق عن الغد أو بعد غد؟" سأله مراد بنبرة ساخرة.

- "سيد مراد، اسمح لي بأن أدخل في الموضوع مباشرة، ومن دون إضاعة وقتك ووقتي الثمين. السيد وجيه كلَّفني بأن أعرض عليك العرض الآتي: أن تنهي علاقتك تمامًا بأخته الآنسة

سوسن، وفي المقابل ستحصل على مليون دولار مع الاحتفاظ بجميع ما أخذته منها حتى الآن..... ما ردّك؟"

نظر مراد إلى المحامي نظرة ثاقبة متأملة، وكأنه يريد الغوص في أعمق أعماقه، مما أشعر المحامي بشيء من عدم الارتياح والريبة من هذا الفتى الذي على الرغم من صغر سنه إلّا أن هيئته ونظراته وطريقة حديثه كانت تعكس شيئًا غير مريح من ورائه.

- "هل أبدو لك بخسًا لهذه الدرجة حتى يتم شرائي بمليون دولار؟" أجابه مراد بهدوء شديد.

- "عفوًا، ولكنني فقط وسيط. إن كان لديك عرض مغاير، فأرجو أن تخبرني به، وسأبلغه للسيد وجيه."

- "قبل أن أخبرك بعرضي، أريدك أن تجيبني عن السؤال الآتي: لماذا الآن؟"

- "عفوًا؟" تظاهر المحامي بعدم فهمه قصد مراد.

- "لماذا هذا العرض الآن بعد قرابة سبعة أشهر من مجيئي أنا وسوسن إلى أمريكا؟ هل الأمر متعلق مثلًا بقرب وفاة هاشم ذكري والد وجيه؟ هل يخشى أن تنفق أخته ميراثها علي؟"

ارتبك المحامي على الفور، ثم سرعان ما حاول إظهار تماسكه. لم يتوقع أن يكون مراد على دراية بأمر لا يعلمه سوى أقرب المقربين من موكله..... "هذا الفتى ليس بالهَيِّن!"

- "عفواً، ولكن لا علم لي بمثل هذه الأمور الخاصة؛ فكما قلت لك من قبل: أنا هنا مجرد وسيط للخير."

ضحك مراد بصوت مدوي مرددًا جملة "وسيط للخير" أكثر من

مرة، لافتًا انتباه الجالسين على الطاولات المجاورة.....

- "أنا آسف، ولكن هذا الوصف الذي وصفت به نفسك، أمتعني..... وسيط للخير! أظنك وسيطًا لأشياء كثيرة، ولكن الخير ليس واحدًا منها!"

- "سيد مراد! أرجوك، إن كان لديك ردّ على العرض الذي عرضته عليك، فأرجو أن تقوله، وإلّا فلا داعي لإضاعة وقتي هكذا! يكفي أني أتيت بنفسي من نيويورك، ولم أرسل أحد أعواني إليك!"

- "حقّاً هذا كرم منك." أجابه ساخرًا.....

- "ولكن بما أنك هنا، فلتسمع ردّي: سأنتظر حتى يموت هاشم ذكري، وترث سوسن أباها، وأحصل منها على معظم ميراثها، ثم سأفكر حينها في عرض وجيه."

قام المحامي على الفور غاضبًا، دون أن يلتفت إلى مراد، متمتمًا بينه وبين نفسه باللعنات على هذا الفتى الأخرق الذي أضاع له وقته الثمين!

* * *

اشتمّ مراد رائحة الغدر تفوح من ذلك المحامي وموكله. لم يفهم كيف ولماذا انتابه ذلك الشعور، ولكنه كان على شبه يقين بأن شيئًا ما يحوم في الأفق؛ ولكن هذا الشعور الغريب بدأ يخفت مع مرور الأيام، خاصة أن مجريات حياته اليومية لم يطرأ عليها أي تغيير يذكر، فاستمر في محاولاته المعتادة لكي يفهم أسرار هذه القدرات العجيبة التي كان يتمتع بها، والتغيرات التي كانت تطرأ عليه. فمن هذه التغيرات، أنه لم يعد ينام، وعلى خلاف ما هو معروف من الناحية

الفسيولوجية، هذا الأرَق لم يؤدِّ إلى انتكاسة ذهنية وصحية، بل على العكس كان يشعر دومًا بنشاط لم يألفه من قبل، وكأن جسمه لم يعد في حاجة إلى النوم. ذاكرته كانت هي الأخرى في تطور مستمر، حتى أصبح بمقدوره أن يستحضر أدق التفاصيل اليومية التي دارت من حوله وإن كانت منذ وقت طويل؛ ولكن القدرة الأعجب التي كانت تشكل له علامة استفهام كبرى ظل يحاول كشف أغوارها، هي استقراء الناس والسيطرة على بعضهم! أول من لفت انتباهه لهذه القدرة هي سوسن عندما كان في جدة. استقراؤه لها ولأفكارها كان في أَوْجِه، ومن ثم استطاع أن يُحْكِم سيطرته عليها بيسر كبير؛ ولكنه لم يستطع أن يصل إلى النتيجة نفسها مع كل شخص؛ بل كان التأثير متفاوتًا من شخص لآخر.... لماذا؟ كان السؤال المحير! مع أساتذته في الجامعة، لم يكن بمقدوره بسط ذلك النفوذ الذهني المسيطر، كما لاحظ أن أغلب زملائه من الطلبة لم يستجيبوا لهذه القدرة، على خلاف الكثير من العمال في المدينة الجامعية وخارجها. مرة من المرات على سبيل المزحة جعل عامل نظافة بالجامعة ينظف أرضية إحدى الممرات عاريًا، ما أدى إلى فصله. كانت هذه بالنسبة إلى مراد تجربة عملية لكي يرى ما مقدار السيطرة التي يستطيع بسطها على من كان مهيأً لها.... هل الأمر كان رهنًا بمقدار الذكاء أو درجة التعليم التي حصل عليها الشخص؟ تساءل مراد، ولكنه سرعان ما أعرض عن هذه الأطروحة، فسوسن كانت تتمتع بذكاء كبير وحاصلة على مؤهل جامعي، ومع ذلك استطاع بسط قدرته عليها. "ما الذي يجمع إذًا بينها وبين عامل النظافة الذي جعله يخلع ملابسه؟!"

كان يسير وحده في شارع ناساو ذات ليلة بعد منتصفها، يفكر في السؤال نفسه، عندما اقتربت منه سيارة أجرة، ونظر إليه من نافذتها

السائق، وكأنه يسأله إن كان في حاجة إلى خدماته. لوَّح له مراد بالنفي وواصل سيره. مرّت دقائق، ثم عند منعطف مظلم خالٍ من المارّة في نهاية الشارع، تنبه فجأة إلى خطوات تقترب من خلفه مسرعة. التفت ليرى ما الذي كان يحدث، ففوجئ برجل داكن البشرة، قوي البنيان، وكأنه بطل من أبطال حمل الأثقال أو مصارع من الذين يظهرون على التلفاز! في سرعة خاطفة، من دون أن يترك لمراد أي فرصة للتراجع، انهال عليه بطعنات عدة في الصدر بسكين أخرجه من جيب معطفه!

تهاوى على الأرض..... شاهد جسده وهو يرتطم على الرصيف ككتلة هامدة لا حياة فيها، والدماء تنهمر من مكان الطعنات، لتحوم حول جثته الهالكة! لم يصدق مراد ما كان يراه، وكأنه في تلك اللحظة قد انفصل عن ذاته! كان يشاهدها، وكأنه يشاهد شخصًا آخر لا صلة له به! شريط سينمائي يتمثل أمامه وهو المُشاهد الوحيد، أو هكذا حسب قبل أن يتنبه إلى أن هذا المشهد كان يراه غيره.....

أخذ القاتل من جيب جثة مراد محفظته بكل هدوء، ثم سار بعيدًا عنه وأخرج هاتفًا محمولا....

- "لقد تم." هذا كل ما قاله، ثم أنهى المكالمة. في اللحظة نفسها تنبه مراد إلى ثلاثة أشخاص آخرين في المكان، أشبه بالأطياف. امرأة كبيرة في السن بجانبها رجل ذو لحية سوداء كثيفة مرتديًا ما يشبه ملابس المسلسلات التاريخية وعلى رأسه عمامة خضراء، وثالث الثلاثة لم يتبين منه سوى وجه يحمل ملامح مألوفة، وكأنه يشبهه، وإن كان أكبر منه سنًا! ومضة قوية، ثم اختفى ذلك المشهد بأسره، ووجد مراد نفسه يسير في شارع ناساو من جديد، وسيارة أجرة تقترب منه..... هي نفسها التي اقتربت منه قبل قليل.... والسائق هو نفسه! ينظر إليه النظرة نفسها، وكأنه

يسأله إن كان في حاجة إلى خدماته!

- "ما هذا الذي حدث توّاً؟!" تساءل مراد مع نفسه ودقات قلبه تتسارع بقوة وكأنها تريد اختراق صدره! ظل يحملق في السائق قليلًا قبل أن يقرر ركوب سيارة الأجرة، دون أن يكمل سيره حتى نهاية الشارع!

* * *

كانت تلك ليلة فاصلة في حياة مراد، وإن كان لم يدرك مغزاها بعد؛ حيث سيطر عليه الشك فيما جرى، وما شاهده يتمثل من جرّائه..... "هل ما حدث كان مجرد تهيؤات؟!" أوهامًا عكست قلقًا ما؟! ولكنه بدا له خلاف ذلك؛ لقد عاش كل لحظة بتفاصيلها كباقي لحظات حياته دون أدنى شعور بأنه في حالة من حالات أحلام اليقظة..... "ما هذا الذي حدث إذًا؟!" أخذ يلح على نفسه بالسؤال، دون أن يجد إجابة تشفي الغليل!

في مساء اليوم التالي ذهب مع سوسن وبعض أصدقائهما، كما اعتادا كل ليلة سبت، إلى النادي الليلي، بعد إلحاحٍ شديدٍ منها لكي يزيح عن خاطره عناء الدراسة الذي ظنّت أنه يعانيه. لم تكن سوسن تعلم أن الأمر أبعد من ذلك بكثير، وما كان يجول بخاطره لا يمكن لسهرة حمراء أن تمحوه!

على الرغم من أن مراد لم يصل بعد إلى السن القانونية التي يسمح له بدخول النوادي الليلية التي تقدم الكحول، إلّا أن وجود سوسن معه كان له فوائده، أهمها أنه كان يوحي لمن يراه وهي بجواره متأبطة ذراعه أنه أكبر من سنه. ولكي يضيف إلى هذا الإيهام عنصراً آخر، فقد أطلق لحية خفيفة، أضافت هي الأخرى بعض السنوات الافتراضية.

ظل يرقص طوال تلك الليلة دون كلل أو ملل مع سوسن ومع أخريات تعرف إليهن على حلبة الرقص؛ كان قد لاحظ منذ أول مرة جاء فيها إلى النادي الليلي أن قدرته على التحكم في الأفراد تزداد في هذا المكان بشكل ملحوظ. استغرب في أول الأمر هذا الاكتشاف، وأخذ يتساءل عن سر هذا الموقع، ولكنه بعد خروجات عدة مع سوسن وأصدقائه إلى أماكن كثيرة، اكتشف أن السر لم يكن يكمن في هذا النادي الليلي تحديداً، ولكن في أي مكان تُتجرَّع فيه الكحول بكميات وفيرة. حينها يصبح كل شخص خاضعًا لقدرته، وكأنه صفحة بيضاء تنتظره لكي ينقش عليها ما أراد؛ هذا الشعور بالقدرة كان يسكره أكثر من تجرع الخمور!

بعد مرور ساعات من الرقص والشرب، أحس برغبة ملحة لقضاء حاجة مثانته، فذهب إلى المرحاض، ولسببٍ ما التفت برأسه نحو طاولة منزوية في ركن شبه مظلم. توقف على الحال، عندما أخذ يتبين معالم الرجل الذي كان جالسًا هناك. لم يصدق في بادئ الأمر ما كان يراه! وجد نفسه يقترب من الرجل دون تفكير في النتائج! كل ما أراده في تلك اللحظة أن يتأكد، "أهو نفسه الذي...؟" لم يكمل السؤال. اقترب على حذرٍ من رجلٍ داكن البشرة، مفتول العضلات، ذي قامة طويلة ظاهرة حتى وهو جالس على كرسيه..... احتفظ الرجل بهدوئه ومراد يقترب منه. لم يبدِ أي علامة للقلق أو الدهشة، حتى عندما أصبحا على مسافة ذراع من بعضهما!

ظل مراد يحدق في الرجل؛ كان هو نفسه بلا شك. حاول ثبر أغواره وقراءته، ولكن حائطًا منيعًا كان بينهما، ما اضطره إلى اللجوء إلى أسلوب آخر، أكثر بدائية....

- "من الذي أرسلك لكي تقتلني؟!" سأله مراد بصوت مرتفع.

شخصت عينا الرجل، ولوهلة شعر بالارتباك، ولكنه استطاع أن يتماسك في اللحظة الأخيرة.....

- "عفوًا، عمّ تتحدث؟! يبدو أنك شربت كثيرًا."

تمنى مراد في تلك اللحظة لو أنه لم يندفع بهذا الشكل. شعر بالغباء لتصرفه الأخرق الذي ما كان ليجديه نفعًا، فالرجل حتمًا لن يعترف على نفسه!

- "أنا آسف." اعتذر مراد، ثم انصرف عنه عائدًا إلى سوسن وباقي أصدقائه. لم تكن لديه أي رغبة في البقاء بالنادي الليلي، بل أراد أن ينزوي مع نفسه ويفكر في معنى هذا الذي كان يحدث له..... "إذًا ذلك الرجل الذي فاجأني بطعنات عدة في الشارع لم يكن من صنيعة خيالي! ولكن كيف شهدتُ شيئًا لم يحدث؟!" أرّق مراد هذا السؤال الأخير، ولم يجد له سوى احتمالين: إما أن يكون قد شاهد رؤيا في أثناء اليقظة لشيء كاد يحدث، أو أنها لم تكن رؤيا على الإطلاق! "ولكن هذا أكثر استحالة من الاحتمال الأول!" فمن غير المعقول أن يكون قد عاش بالفعل تلك التجربة.... تجربة الموت قتلاً، وهو لا يزال على قيد الحياة.... لم يُطعن! هل من المعقول أن يكون قد مرّ بتجربتين متناقضتين؟! أن يكون قد عاش حالة الموت وحالة النجاة من الموت؟!

فجأة تذكر أمرًا كان قد أغفله، وظنه مجرد تهيؤات. تلك الأطياف التي شاهدها، عندما شعر بنفسه مفصولاً عن جسده الذي سقط على الأرض بعد الطعنات. امرأة ورجُلان، أحدهما كان شديد الشبه به؛ كأنه هو بعد أعوام عدة.... عقد من الزمن أو نحو ذلك!

شاهدهم، ثم عاد مباشرة إلى تلك اللحظة التي مرت بجواره سيارة الأجرة.... لحظة الاختيار! إما أن يركب فيَنْجو، أو أن يستمر في سيره فيُقتل! إذًا عودته إلى تلك النقطة الفاصلة من حياته لم تكن من باب العبث أو محض مصادفة.....

الأمر بدأ يتخذ أبعادًا كبيرة وعجيبة، ما كان ليتجرأ مراد على تَخيُّلها، ولكنها فتحت له أبوابًا جديدة للبحث والتحري. إن صَدَق حدسه فيما قد جرى، فهذا يعني قدرة عظيمة لا حدود لها تفوق جميع قدراته السابقة! شعر مراد في تلك اللحظة بأن أسرار الكون قد بدأت تنكشف له!

* * *

كان لا بد من اتخاذ كل سبل الحيطة والحذر، خاصة بعدما انكشفت الأوراق وتأكد لمراد أن هناك من يريد قتله. تسرعه بمواجهة القاتل المأجور، جعله يفقد عنصرًا مهمًا كان سيساعده على تجاوز هذه المحنة العصيبة، وهو معرفته شكل الذي كُلِّف بقتله؛ فحتمًا الآن بعد مواجهته، سيُستعان بشخص آخر. ولكن يبقى السؤال: من الذي يريد التخلص منه لهذه الدرجة، حتى إنه لجأ لمثل هذا الأسلوب الخسيس؟ الجواب الذي خطر على باله فورًا ودون أدنى تردد: وجيه ذكري! هو الوحيد الذي يكنّ له العداء، خاصة بعدما رفض عرضه لترك سوسن التي على وشك أن ترث ثروة كبيرة من أبيها الذي يحتضر.... "اللعنة عليك يا وجيه! تسببت في موت أبي، وها أنت تريد قتلي!!".... ولكنها مسألة وقت لا أكثر، قبل أن يتمكنوا منه، هكذا أدرك مراد. وجيه ومن معه من الواضح أنهم جادون ولا يلعبون، فإما إنهاء العلاقة بسوسن بإرادته، كما طُلب منه، أو يجعلوه يتركها على الرغم منه بقتله! الأمر الذي زاد من حيرة مراد أنه لم

يضمن أن ذلك الذي حدث له بعد محاولة قتله الأولى، سيتكرر ثانية فينجو؛ لذلك كان عليه أن يتخذ قرارًا سريعًا لتفادي هذه المعضلة الكبيرة التي أخذ يواجهها، والتي حتمًا ستشغله عمّا هو أهم. لم يجد مراد أي بديل آخر في الوقت الراهن، فخسارة معركة أفضل بكثير من خسارة الحرب بأكملها.....

أخرج من جيبه هاتفه المحمول، ثم أخذ يضغط على الأرقام التي حفظها من النظرة الأولى لبطاقة التعرفة التي ناولها إياه تيموثي بلفيو المحامي في لقائهما منذ أيام....

- "ألو، سيد بلفيو.... أنا مراد قطز.... وددتُ فقط أن أبلغك بأني قد وافقت على عرض..." شعر بغصّة في حلقه جعلته يتردد قبل إكمال الجملة.....

- "على عرض وجيه ذكري. سأترك سوسن مقابل المليون دولار."

* * *

لم يكن البروفيسور آل فريدمان من الأساتذة الذين يحبون التدريس والاختلاط كثيراً بالطلبة، فوقته كان أثمن من ذلك بكثير. لذلك عندما أرادت جامعة برنستون استقطابه، بوصفه أحد أهم علماء الفيزياء النظرية المتخصصين في نظرية الوتر الخارق، اشترط عليهم ألّا يزيد تدريسه للطلبة على محاضرة واحدة في الأسبوع؛ وحتى هذه المحاضرة كانت تشكل له عناءً كبيرًا ومصدر إزعاج كان لا بد من تحمله. فلم يكن من المستغرب، عندما حاول مراد أن يقابله لكي يستفسر منه عن أمر وجده محيرًا، ألّا يستجيب له.

- "قلت لك مرارًا، البروفيسور فريدمان مشغول جدّاً، وليس لديه وقت لمقابلة أي طالب. إن كان هناك شيء لم تفهمه

مـن المحاضـرة، فعليـك بمقابلة مسـاعده مايك تنبـام." أجابت السكرتيرة على إلحاح مراد.

- "فـي الواقـع أنـا لسـت طالبًا عنـده، واستفسـاري لا يخـص محاضراته."
- "هل أنت أحد أساتذة قسم الفيزياء بجامعة برنستون؟" سألته بتهكم.
- "كلّا."
- "هل أنت أحد أساتذة جامعة برنستون أو أي جامعة أخرى؟"
- "كلّا، أنا طالب سـنوات التحضير ما قبل الطب في الجامعة، ولدي اهتمام خاص بالفيزياء."
- "البروفيسـور ليس لديه الوقت لمقابلة طلابه، وأنت تريده أن يقابلـك أنـت! رجاءً لا تضيع وقتي. انصرف الآن وإلّا شـكوتك للعميـد!" التفتـت برأسـها نحو الأوراق المكدسـة علـى مكتبها، وبكفها الأيسر أشارت إليه بالانصراف بعد أن نفد صبرها.

شعر مراد باستياء كبير من طريقة معاملتها له المتعالية، وتهديدها بإبـلاغ العميـد! مـا الذي فعله لكي يسـتحق كل هذا؟! أوليسـت هذه الجامعـة مكانًـا للعلـم، ومـن حقـه أن يقابل أي أسـاتذ؟! "يا لها من سكرتيرة بلهاء!"

لم يكن أمامه سـوى خيار واحد حتى ينال مبتغاه: أن يسـتخدم قدرة من قدراته لكي يُغير من موقفها المتعنت؛ قدرة بدائية، لا يحب استخدامها كثيرًا، ولكنه شعر بأنها هي الأنسب في هذا الظرف الذي وجد نفسه فيه....

وضـع مـراد يـده فـي جيبه، ثـم أخرج منه محفظتـه. عدّ خمس ورقات من فئة المئة دولار ثم وضعها، أمام دهشـة السـكرتيرة، على مكتبها....

- "بالمناسبة وددت أن أعيد لك المبلغ الذي استلفته منك قبل أيـام. لـم أعـد في حاجـة إليه." قال لها مبتسـمًا مع إضافة غمزة عين.

ترددت سـكرتيرة البروفيسـور فريدمان قليلًا، وبقلق التفتت يمنة ويسرة قبل أن تأخذ المبلغ، وتضعه في جيبها....

- "من حسن حظك أنني دائمًا ما أجنب وقتًا من جدول البروفيسور للطـوارئ والمفاجـآت؛ ولكنـي لـن أسـتطيع أن أمنحك أكثر من نصف ساعة معه غدًا."

- "ممتاز، هذا كل ما أحتاج إليه." أجابها مراد، ثم انصرف بعد تأكيـد الموعـد، غيـر نادم علـى المبلغ الذي دفعـه من أجل لقاء يساوي أكثر من خمس مئة دولار بكثير.

* * *

عاد إلى شـقته التي أصبحت خالية من سوسـن بعد انفصالهما المرير. لسبب غريب شعر بشيء من الوحشة، فعلى الرغم من أنه لـم يحبها في يوم من الأيام، إلّا أنها شكّلت له مصدر أنسٍ في وحدته؛ كما راقه الشعور بحبها الجارف الذي عوضه شيئًا من فقدان الشعور بحب أمه له. صحيح أن سوسن كانت السبب في تعرف أخيها وجيه إلى منال، ولكن مراد كان يدرك في قرارة نفسه أن تلك المرأة التي أنجبتـه دون أن يكـون لـه أي قـول في الأمر، كانت سـتتركه وأباه في أول فرصة سانحة سواءً مع وجيه أو مع غيره.

دخل إلى غرفة النوم التي شهدت صولات وجولات مع عشيقته التـي كانـت تكبـره بخمسـة عشـر عامًـا؛ آثار الشـجار كانـت لا تزال موجودة، من مرآة محطمة وكرسي مقلوب وعدد من التحف الصغيرة التي أصبحت قطعًا متناثرة على الأرض. هنا في هذا المكان فوجئت سوسـن بالصاعقة التي أوقعها عليها مراد، عندما أخبرها بعزمه على إنهـاء علاقتهمـا. حاولـت أن تفهـم لماذا، فهل فعلت شـيئًا أغضبه؟! هل بخلت عليه بشـيء؟! ولكنه اكتفى فقط بقوله إنه ملّ منها. قالها بكل برود. شعرت حينها سوسن بخنجر مسموم ينغرس في قلبها! لم تتوقعها منه! وفي لحظة لا تعرف كيف تشـكلت، تحول كل العشـق الذي كانت تكنّه له إلى كره مرير! وكأنها كانت أسيرة له فتحررت منه. أخذت تنهال عليه بأبشع الألفاظ، وتقذفه بكل شيء وقع في طريقها وكان في متناول يديها، قبل أن تغادر غرفة النوم والشقة بأكملها، تاركة جميع أغراضها؛ فلم ترغب في أخذ أي شيء لمسته أنامله!

أيقن مراد قطز بعد تلك التجربة العجيبة، أن المرأة كُلّما عشقت بشدة، كان كرهها أشد!

* * *

حار البروفيسـور فريدمان أيهما أكثر مدعاة للتعجب، كون هذا الشاب الآسيوي الذي أمامه سعوديّاً، أم كمّ المعرفة التي أبداها طالب فـي مرحلـة ما قبل الطب عـن تفاصيل ميكانيكا الكم ونظريات الوتر الخارق التي لا يعلمها عادة إلّا طلاب الدراسات العليا في تخصص الفيزياء المتقدمة؟! ولم يقتصر التعجب عند هذا الحد، بل بلغ ذروته عندمـا سـأله مـراد عن تجربة أشـرف عليها فـي جامعة هارفارد حول انتقال المعلومة بشكل آني من جزيء إلى آخر بعيد عنه عبر التشابك الكمي.

- "هل في الإمكان أن يحدث هذا التشابك مع جزيء في عالم آخر من العوالم المتوازية؟"

- "العوالم المتوازية هي مجرد فرضية لا يوجد عليها إلى الآن أي دليل علمي، فكيف لي أن أجيبك عن هذا السؤال؟"

- "ولكنها أكثر من مجرد نظرية، بل هي حتمية علمية لمبادئ فيزياء الكم التي تؤيدها نظريات الوتر الخارق." أصر مراد.

- "كلامك صحيح، ولكن إلى أن يتم إثباتها بشكل قاطع تبقى في عداد الفرضيات، وإن كان الكثير من الفرضيات الأخرى لميكانيكا الكم قد تم إثباتها بما فيها التشابك الكمي الذي أشرتَ إليه؛ ولكن كيف يمكن إثبات وجود عوالم أخرى متوازية، ناهيك عن إمكانية التشابك بين جُزَيئاتها؟! هذا مستحيل على الأقل في الوقت الراهن، مثل استحالة إثبات وجود الأبعاد المكانية السبعة الأخرى التي تؤكد وجودها نظرية الوتر الخارق؛ فعلى الرغم من كل هذا التطور التقني الذي نعيشه إلّا أننا مازلنا لا نرى ولا نتلمس سوى ثلاثة أبعاد مكانية: الطول والعرض والعمق؛ أين إذًا باقي الأبعاد؟ هناك أمور كثيرة عجيبة تتنبأ بها مختلف النظريات الفيزيائية، ولكن كما قلت لك من قبل، تبقى مجرد فرضيات إلى أن يتم إثباتها."

- "ولكن من حيث المبدأ، هل يوجد ما يمنع التشابك الكمي بين جزيئيات عوالم متوازية؟"

تمهل البروفيسور فريدمان قليلًا قبل أن يجيب عن السؤال.....

- "من حيث المبدأ لا يوجد ما يمنع، ولكن هذا من حيث المبدأ

فقط ولا يوجد أي دليل عليه!"

هذا ما أراد مراد سماعه قبل أن يسأل سؤاله الأهم....

- "وبما أن خلايا الإنسان مكونة في نهاية المطاف من ذرات مختلفة، وهذه الذرات مكونة من جزيئيات، ألا يمكن استنباط جميع خصائص الجزيء على الإنسان ككل؟"

بدأ صبر آل فريدمان ينفد مع مثل هذه الأسئلة التي شعر بأنها أقرب إلى الخيال العلمي منها إلى الفيزياء المتقدمة. وقته الثمين لم يعد يسمح له بالمضي قدمًا في هذا الحديث مع هذا الطالب الآسيوي الذي يدّعي أنه سعودي! لم يفهم كيف استطاع أن يرتب معه هذا الموعد؟! حتمًا كانت هفوة من سكرتيرته، وسيحاسبها عليها لاحقًا، ولكن الآن يجب إنهاء هذه المقابلة.....

- "على أي حال إن كنت مهتمّاً بمثل هذه الأمور، فهناك كتب كثيرة تتحدث عن غرائب نظريات الفيزياء، تستطيع البحث عنها في المكتبة. أرجو أن تعذرني، فلدي بعض الأمور التي يجب أن أنهيها."

- "أنا آسف جدّاً على إزعاجك بروفيسور، ولكن لدي سؤال أخير قبل أن أرحل، إن سمحت لي."

- "تفضل." قالها على مضض.

- "أسئلتي التي سألتك إياها، هل مرّ عليك أحد متخصص في الفيزياء المتقدمة أبدى اهتمامًا بالإجابة عنها؟"

لم يكن البروفيسور فريدمان في حاجة إلى التفكير من أجل الإجابة عن هذا السؤال، بل كان الجواب حاضرًا في ذهنه فور سماعه

إيّاه. قليلة هي النوابغ التي مرت عليه؛ أهمها تلك النابغة التي تركت البحث فيما هو مضمون، لكي تجري وراء السراب....

- "نعم، يحضرني اسم واحد الآن؛ ولكنها ليست هنا، بل في جامعة هارفارد.... فرجينيا تبت."

* * *

استطاع مراد أن ينهي في عامٍ واحد جميع متطلبات ما قبل الطب بسهولة أذهلت زملاءه وأساتذته. الفيزياء والكيمياء والأحياء وباقي المواد كانت بالنسبة إليه في غاية اليسر، حتى إنه لم يكن في حاجة إلى أكثر من أيام قليلة لينهي قراءة وفهم أي كتاب مرجعي لأي من تلك المواد. المادة التي كان يستغرق أقرانه فصلًا دراسيّاً كاملًا من أجل دراستها، كان ينهيها في أسبوع واحد دون عناء يذكر، حتى إنه أصبح حديث جامعة برنستون بعد أشهر قليلة فقط من الالتحاق بها؛ وفي اختبار MCAT للقبول في كليات الطب حصل على أعلى درجة يمكن الحصول عليها: 45!

حاول عميد كلية الطب في جامعة برنستون، على إثر هذه السمعة الكبيرة التي اقترنت بمراد، أن يستقطب ذلك الفتى العبقري القادم من السعودية، واعدًا إياه بمنحة دراسية كاملة في حال موافقته على الانضمام إلى كليته؛ ولكن مراد كان ينظر إلى مكان آخر في الشمال الشرقي من الولايات المتحدة الأمريكية. فمبتغاه الحقيقي كان جامعة هارفارد بمدينة كيمبريدج جارة بوسطن. أراد أن يكون في المكان نفسه الذي درس فيه أبوه، حتى يستشعر وجوده معه هناك فيمدّه بالقوة التي يحتاج إليها ليستكمل الطريق الذي كان من المفترض أن يسيرا فيه سويّاً؛ ذلك الطريق الذي اضطر إلى أن يسير فيه الآن بمفرده بعد أن مات أبوه دون أن يفهم ما الذي أصاب ابنه؛

ودون أن يكتشـف سـر تلك القدرات العجيبة التي أصبح يتمتع بها، والتي أخذت تتطور بشكل غريب مع مرور الأيام....

أراد مراد أن يفهم، خاصة بعد ذلك الذي حدث له في برنستون. لم يرغب في أن يكون مجرد إمّعة لقدرات لا يدركها، تأتيه حين غفلة؛ بل أراد أن يكون هو المُسيطر. أراد أن يتمكن من تلك القدرات ويُطَوِّرها، حتى يصل إلى مُنتهاها. إن استطاع، فسيصل إلى ما لم يكن يحلم به الإنسان من قوة وقدرة! لسبب ما شعر وكأن الكون قد بدأ يعزف له لحناً من ألحانه العجيبة، وكم أطربته تلك الألحان، فرغب في المزيد منها! كان يدرك أنه يسير في بحرٍ لُجِّي، لا يعلم أن أحداً غيره قد أبحر فيه، وإن كان أبوه قد أشار قبل وفاته إلى بعض المخطوطات الّتي ألمحت إلى شيء من هذا. لعل أهمها كانت مخطوطة جُلّاب في مكتبة جامعة هارفارد..... جُلّاب؟ اسم غريب لم يسمع به من قبل، لم يبدُ كاسم عالم يستحق الاهتمام، ولكنه مع ذلك قرر أن يراجع مخطوطته بنفسه؛ أن يقرأها، ويحاول استكشاف شيء فيها؛ ولكنه كان على يقين بأن السر لن يكمن فقط في الماضي، بل في الحاضر أيضًا. العلم يتطور بشكل مهول، حتى أصبح الإنسان غير قادرٍ على اللحاق به، وكأن الكون قد قرر فتح أبواب خزائنه له على مصراعيها، فنظر ذلك الإنسان المسكين إلى عجائب لم تكن لتخطر على باله، فهاله ما رأى، ولم يستطع إبصار الحقيقة! أصبح كالناظر إلى قرص الشمس المشعة في السماء، فأعماه نورها الساطع؛ ولكن مراد شعر، وكأنه قد صنع المستحيل!

كل شيء رهن للاحتمال مهما كان هذا الاحتمال ضئيلًا، هكذا تقول قوانين فيزياء الكم. قد تمرّ مليارات السنين لكي يتحقق احتمال في غاية الضآلة، ولكنه عاجلًا أم آجلًا سيتحقق..... "وها هو ذا بعد أكثر من ثلاثة عشـر مليار سـنة من عمر الكون، قد تحقق لي أنا بأن

أنظر إلى نور الشمس الساطع، فأراه دون أن تحترق عيناي!" هكذا ظن مراد قطز....

* * *

انقسم نادي الطلبة السعوديين بمدينة بوسطن إلى نصفين: ما بين معجبين بمراد قطز ومرحبين به، وما بين رافضين وجوده معهم، وفي كلتا الحالتين كان السبب هو نفسه؛ الفضيحة التي هزت أركان مجتمع جدة المُخملي، والتي وصلت أصداؤها إلى السعوديين في أمريكا.... علاقته السابقة مع سوسن ذكري! بعضهم رأى فيه حلمًا دفينًا يتجسد بخطف قلب ولب فتاة جميلة تنتمي إلى طبقة مخملية بعيدون هم كل البعد عنها، وبعضهم رأى فيه مثالًا متجسدًا للفسوق الذي أصاب بعض أفراد المجتمع نتيجة موجة التغريب التي تجتاح البلاد، ورأوا فيه خطرًا محتملًا على نسائهم! لم يهتم أي من الفريقين بنبوغه وتفوقه الأكاديمي، وكونه السعودي الوحيد بينهم الذي حصل على منحة دراسية كاملة من جامعة أمريكية عريقة؛ فكل هذا تضاءل بجانب سمعته كزير للنساء! أما مراد، فلم يهتم كثيرًا لا بأمر النادي ولا بأعضائه من أبناء جلدته، حيث لم يكن لديه وقت لهذا الهراء الذي لم يحسب من ورائه أي نفع يذكر. لذلك لم يَقُم بزيارة نادي الطلبة سوى مرة واحدة فقط، وذلك بعد قدومه إلى بوسطن بأسبوعين، بناءً على إلحاح رئيس النادي، ناصر القويت، من خلال مكالمة هاتفية لم تدم طويلا.

لم يسبق لمراد أن التقى ناصر، ولم يعلم عنه شيئًا سوى أنه طالب في السنة الأخيرة من ماجستير إدارة الأعمال بجامعة تفتس. كان أول لقائه به في النادي، عندما عرّف نفسه وباقي السعوديين الموجودين، ولولا ذلك الحدث الغريب الذي انتابه في اللحظة التي

تلامست فيها وجنتاهما من أجل السلام والتقبيل، لما كان ليعيره أي اهتمام! لقد رأى في تلك اللحظة صورة لأجمل امرأة رآها في حياته! كانـت صـورة خاطفة، لم تدم سـوى ثوانٍ قليلـة، ولكنها كانت كافية لاستيقافه..... مـن كانـت تلك المـرأة؟ ولماذا رآها عندما لامست وجنته وجنة ناصر القويت؟ ظل طوال المدة التي قضاها في النادي، وهو يحلل مع نفسه هذا الذي حدث؛ والأمر الذي أثار دهشته أكثر، أن رغبته في معرفة ولقاء تلك المرأة كان يفوق رغبته في فهم الآلية التـي مكنتـه مـن رؤيتها! لأول مرة كانت رغبتـه العاطفية تفوق رغبته العقلية، وهذا ما أخافه!

استمر اللقاء بشكل رتيب، الرجال في الطابق السفلي من مبنى النادي، والنســاء في الطابق العلوي، دون أن يحدث أي اختلاط بين الجنسـين، ما أزعج مراد الذي لم يعتد على مثل هذا التقسـيم، حتى عندما كان في جدة.... حاول اسـتغلال الوقت بأن يسـأل عن ناصر القويت، فعرف من أحد الموجودين المحبين لنقل الشائعات (هو نفسه الذي نقل لأعضاء النادي أخبار مراد مع سوسـن) أنه جاء للدراسـة في بوسـطن منذ نحو عامين على حسـاب زوج أخته الملياردير غانم السـاعدي الذي اسـتخدم نفوذه وأمواله ليضمن له مقعدًا دراسـياً في جامعة عريقة كجامعة تفتس، التي ما كانت لتقبل طالبًا متواضعًا مثله. كانت سمعة ناصر سيئة للغاية؛ فهو زبون دائم لدى نوادي "السترتيز"، ويعشـق مرافقـة راقصـات تلك النوادي، بـل كان يُبَدِّلهن الواحدة تلو الأخـرى أكثـر مما كان يبدل سـياراته الرياضيـة التي ما كانت تمكث إحداهن معه أكثر من أشهر قليلة قبل أن يمل منها. تعجب مراد، إذ كيف يمكن لشـخص مثله أن يصبح رئيسًـا لنادي الطلبة السـعوديين، فأتته الإجابة بشـكل واضح من الشـخص نفسـه الذي مدّه بكل تلك

المعلومات.....

- "غانم الساعدي!"

غادر مراد النادي بعد العَشاء، وقد عزم على ألّا يكرر هذه الزيارة مـرة أخـرى؛ ولـولا تلك الحادثة الغريبة مع ناصر القويت، لما رغب في التواصل مع أي ممن قابلهم في تلك الليلة، ولكنه أراد أن يعرف سـر الرؤية الّتي رآها، وصاحبة ذلك الوجه الفاتن، تلك المرأة رائعة الجمـال! لذلـك قَبِـل دعوة ناصر الخاصة لشـقته في شـارع نيوبيري، على الرغم من عدم استلطافه صاحب الدعوة الذي لولا أموال زوج أخته، لما كان ذا قيمة تذكر!

* * *

مساء اليوم التالي قطع مراد نهر تشارلز من فوق جسر هارفارد الذي يصل كمبريدج ببوسطن، متجهًا إلى شارع نيوبيري. كانت أول مـرة يذهـب فيهـا إلـى تلك المنطقـة الراقية من بوسـطن حيث أفخر المطاعم والبارات وأرقى محالّ الموضة العالمية. شقة ناصر القويت كانت في الطابق الأخير من عمارة برّاقة تقع وسط هذه الواحة الخصبة المخصصة لكل من كان يمتلك الكم الكافي من الدولارات للبقاء في هذا المكان.

دقّ مـراد الجـرس، ومـا كاد يرفـع سـبّابته من علـى الزر، حتى وجـد بـاب الشـقة قـد فتـح وعلـى الجانب الآخـر منه المرأة نفسـها صاحبـة الوجـه الفاتـن الجميل التي رآهـا عندما تقابلت وجنته بوجنة ناصـر! هـذه المـرة لم يَرَ فقط وجهها، بـل كانت متمثلة أمامه بكامل قوامهـا الـذي لا يقـل روعـة عن وجهها! لوهلة ظـن أنها ربما تكون إحدى الراقصات اللواتي يصاحبهن مضيفه، أحضرها لكي يتفاخر بها أمامه، ولكن سرعان ما تلاشت تلك الخاطرة عندما تحركت شفتاها

المكتنزتان الحمراوان ليخرج من فمها أجمل صوت سمعه في حياته يتحدث باللغة العربية.....

- "أنت حتمًا مراد... تمامًا زي ما وصفك ناصر. تفضل، أنا بالمناسبة سارة أخته."

لم يصدق مراد أن هذا الكائن الأسطوري الذي ظهر أمامه قد ولد من البطن نفسه الذي أنجب ذلك المخلوق الغبي الذي يُدعى ناصر! "ولكن هل يعني هذا أنها زوجة غانم الساعدي؟ أم تلك أخت أخرى؟!" أراد أن يسألها لكي يطمئن، ولكن سرعان ما أتته الإجابة عندما لمح خاتمًا من ماس في بنصرها الأيسر.

- "حيّا الله مراد.... ما شاء الله عليك، في الموعد تمامًا، ياليت كل الناس زَيَّك." قال ناصر مرحبًا....

- "أكيد سارة عَرَّفتك بنفسها، معليه ما جات فرصة أمس أعرفك عليها في النادي. هناك إحنا بنتبع الأعراف المحلية." قال جملته الأخيرة ثم أطلق ضحكة شاركتها إيّاها أخته.

مرة أخرى شعر مراد بسبب تلك المرأة الفاتنة صاحبة الابتسامة الساحرة، بأن عقله قد تراجع إلى المقعد الخلفي، وترك العنان لعاطفته لكي ترمح..... "ما هذا الأثر العجيب الذي كان يشع من هذه المرأة؟!" أخذ يتساءل.

- "أهلًا، حَصَلّي الشرف." ردّ بخجل.... كان هذا كل ما استطاع أن يخرجه من فيه في تلك اللحظة.

- "لا.... لا يمكن أنك تكون أنت نفسه مراد اللي سمعت عنه." قالت سارة مداعبة مراد، ثم غمزت لأخيها.

- "الصيت ولا الغِنى...." استجابَ مراد لمداعبتها.....
- "بس يا ترى إيش هو اللي سمعتيه عنّي؟"
- "أوهـووو.... قـول إيـش مـا سـمعت؛ وعلـى فكرة، تـرى أنا معلوماتـي جـدّاً موثـوق فيها، يعني تقدر تقـول من داخل مصدر الخبر نفسه."

تعجب مراد من مدلول كلامها....

- "مين تقصدي؟"
- "معليـه يـا مراد، هي سـارة كده تحب دايمـاً تمزح." قاطع ناصر الحديث، ثم قال مخاطبًا أخته:
- "خفي شوي على الولد، تراه مَهُب قدك."

ابتسـمت سـاره لأخيهـا، ثـم أخـذت تتأمل مـراد وكأنهـا كانت تعاينه....

- "بس صحيح إنك ما كَمَّلت لِسَّاعك السَبَعْتاش سنة؟ شكلك يعطي أكبر."
- "سارة!"
- "معليش يا ناصر، خليها تتكلم وتسأل براحتها، أنا ماني مِتْضايق والله؛ بالعكـس حاسـس كأنـي أعرفها من زمـان. الواحد يا أخي مـا هـو لاقـي أحد يتكلـم معاه براحته اليوميـن هادي. كله يحب التصنـع، عكـس أختـك تمامًا....." صمـت مراد قليلًا ثم أضاف موجهًا حديثها لساره....
- "بس أنا على العموم عرفتْ أنتِ من فين سمعتِ عني وجبتِ

أخباري."

- "حَذِّر لو كنت شاطر."

- "من جوزك غانم الساعدي."

رفعت سارة حاجبيها في تعجب وانبهار....

- "برافو، بس كيف عرفت؟"

- "أنا كمان جاتني أخبار عنك، وعرفت أنك متزوجة رجل الأعمال غانم الساعدي. في الأول ما عملت ربط، ولكن كلامك الآن عن السمعة اللي سمعتيها عني وعن مصادرك الخاصة وتلميحاتك الواضحة عن علاقتي السابقة بسوسن، خلتني أتذكر أني في مرة من زمان سمعتها تتكلم عن علاقة أبيها بغانم الساعدي؛ حتى اشترى مِنُّه استراحة أُبحر."

- "لا، فعلًا شاطر زي ما سمعت عنَّك..... تستحق بوسة." باغتته ساره بقبلة على خده لم يتوقعها، أشعرته بالحرج خاصة وأنها جاءت أمام أخيها الذي ظهر عليه شيء من الضيق وإن لم يحرك ساكنًا وتظاهر بعدم الانتباه لما قد حدث توّاً.

استمرت السهرة على هذا النحو ساعات عدة، ما بين مداعبات سارة وتجاوبات مراد، ومحاولات ناصر للتظاهر بعدم الانتباه لما كان يحدث أمامه من تقارب ملحوظ بين أخته وضيفه. علم مراد في أثناء الحديث أن غانم الساعدي لم يأتِ مع زوجته إلى أمريكا لانشغاله في السعودية، وأنه لا يمانع بأن تسافر سارة بمفردها أو حتى مع صديقاتها؛ بل لكثرة سفراتها، وفَّر لها طائرة خاصة لكي تنقلها إلى البلد الذي تشاء الذهاب إليه متى ما شاءت. بدت سارة

في غاية السعادة وهي تحدث مراد عن وضعها مع غانم الساعدي، ما أثار حفيظته. تمنى لو كان سمع منها نغمة أخرى؛ عن معاناة مع زوج بخيل لا يلبي متطلباتها، أو زوج بارد لا يحبها ولا يحترمها، أو زوج تشعر معه بالملل، وتريد تركه في أقرب فرصة.... لم يسمع منها أيّاً من تلك الأشياء، بل سمع عكس ذلك تمامًا، ما شكل له غصة في الحلق، ولوهلة شعر بالحنق تجاه غانم الساعدي الذي بدا له وكأنه فاز بكل شيء؛ المكانة الاجتماعية المرموقة، والمال الوفير، والأهم من هذا وذاك، امرأة جميلة ومدهشة لم يصادف مراد مثلها في حياته: سارة القويت!

* * *

عاد مراد إلى شقته بكيمبريدج، وقد شعر بمزيج غريب من السعادة والألم..... السعادة لأنه تعرف إلى سارة وتحدث معها، والألم لشعوره بأنها كالفاكهة المحرمة عليه، يستطيع النظر إليها واشتهاءها، ولكن محرم عليه قطفها!

لم يحاول أن يجرب عليها قدرته في السيطرة، وإن راودته نفسه أكثر من مرة. ما أدهشه أن إعجابه الكبير بها هو ما منعه من أن يفعل ذلك. أرادها أن تكون له بمحض إرادتها، لا بمحض إرادته هو. تمنى في قرارة نفسه لو أنها تحبه كما أحبته سوسن، وتقرر ترك كل شيء من أجله؛ ولكنه كان يدرك جيدًا أن سارة ليست كسوسن. سارة مخلوق آخر غريب، لم يصادف مثله من قبل؛ تتمتع بشيء لا يدركه بعد، يمدّها بطاقة وحيوية ورَوْنق غير مفهوم، فيجعلها كلهيب النار الذي يجتذب الفراش!

رنّ هاتف شقته فور دخوله، وكأن المتصل قد وقّت اتصاله على فتحة الباب. تعجب مراد من هذا الاتصال في الساعة المتأخرة من

الليل.....

- "ألو..."
- "كيفك؟ حبيت بس أَطْمَئِن أنك وصلت بالسلامة." لدهشة مراد، جاء صوت سارة على الجانب الآخر من الهاتف!
- "تَوّي واصل." أجابها بلهجة لا تخلو من الاستغراب.
- "ممكن أشوفك باكر؟" سألته من غير تردد.

صمت مراد قليلًا قبل أن يجيبها.... لم يتوقع هذا الطلب منها.

- "سارة؟"
- "نعم." أجابته بتغنج غير مفتعل.
- "جاوبيني بصراحة، ناصر عزمني عنده بناء على طلبك، ولّا وجودك كان مجرد مصادفة؟"
- "أنت تؤمن بالمصادفات؟"
- "أحب أسمع إجابة واضحة منك."
- "أنا اللي طلبت منه يعزمك. ها... ارتحت؟"
- "بس إنت فَهَّمتيني أنك سعيدة مع غانم الساعدي."
- "إيش اللي يمنع أني أكون سعيدة معاك أنت كمان؟"
- "بس...."
- "من غير بس.... أنا شفت نظراتك لي وفهمتها زين. إنت تبي اللي أنا أبيه وأكثر، ما في داعي نضحك على بعضنا، وأنا مستعدة لخوض التجربة، إلّا إذا كنت خايف." وبهذه الجملة

الأخيرة، حسمت سارة الأمر، وسلّم لها مراد .... ما كان يتمناه هو في قرارة نفسه..... فاتّفقا على اللقاء في اليوم التالي، وكان مكان اللقاء هو شقته.

* * *

لم يكن مجرد لقاء عابر بين شاب يافع وامرأة جميلة، بل كان أكثر من ذلك بكثير. كانت تدرك ما الذي تريده، كما كان يدرك هو. كانت تعلم كيف تحصل عليه، كما كان يعلم هو. المتعة التي شعرا بها، وهما في معية بعضهما، يتبادلان كل ما يمكن لرجل وامرأة أن يتبادلاه من الرغبة وتوابعها، لم يكن وصف لها ولا حد! لأول مرة شعر مراد بالشعور نفسه الذي كان يملأ سوسن وهي بين ذراعيه، فأشفق عليها، إذ طردها من الجنة بعد أن عوّدها على لذة مذاق فاكهتها....

تمنى لو أن سارة يملأها الإحساس نفسه الذي تمكن منه تجاهها؛ لو أنه بالنسبة إليها ليس مجرد نزوة عابرة قد تمل منها غداً. كان بإمكانه أن يعلم بمجرد ملامستها، إن أراد، ولكنه لم يرغب خوفًا من أن تأتي الإجابة على غير هواه؛ في هذه الحالة الجهل كان أرحم بالنسبة إليه. لذلك أراد أن يعيش اللحظة مع سارة، دون عناء التفكير فيما قد يحمله له المستقبل؛ لم يرغب في إفساد لحظات السعادة التي كان يشعر بها معها، حتى إن كانت هذه مجرد لحظات عابرة....

- "باكر أنا مسافرة." فاجأته في خامس لقاء لهما.

- "على فين؟! وليش العَجَلة؟!" سألها بعفوية شديدة، وشغف واضح لم يحاول إخفاءه.

- "غانم رايح باريس. جامعة السربون ناوية تكرمه، ويبيني أكون معاه."

- "ويا ترى السربون حتكرمه على إيش؟ إسهاماته العلمية ولّا الفكرية للبشرية؟!" نبرة الحنق خرجت منه من غير مواربة، فشعرت بها ساره.

- "مراد، أنا فَهَّمتك من الأول، علاقتي بك حاجة، وعلاقتي مع غانم حاجة تانية. مقابل الحياة اللي معيشني هي، والحرية اللي مخليني أتمتع بيها، لازم لمَّن يطلبني أكون معاه، يِحَصِّلني."

- "سِبيه يا سارة.... واضح إنك ما بتحبيه! إن كان على الفلوس....."

- "مراد أرجوك..." قاطعته على الفور....

- "الحياة اللي معيشني هي غانم، صعب أنك تِوَفِّرلي هي. أنا عارفة أنك صرت غني بعد علاقتك بسوسن...."

- "بس أنت غير سوسن، ولا تفكري في يوم أني....."

- "مراد حبيبي، أنا والله عارفة وحاسة أنا إيش بالنسبالك وإني غير سوسن، بس خليني أكمل اللي أبي أقوله..... أنا عارفه أنه عندك فلوس، وأنا بعد عندي فلوس أكثر من اللي عندك، بس فلوسي وفلوسك هادي ولا شيء بالنسبة للّعِند غانم..... غانم في طريقه أنه يصبح أغنى رجل في العالم، هذا غير النفوذ والمكانة الدولية. أنت عارف أني في سفرتي معه هذه حنقابل رئيس وزراء فرنسا وزوجته. هذه هي الحياة اللي أبيها، وما عندي استعداد أني أتخلى عنها..... أرجوك يا مراد، لا تحطني في موقف يضطرني

أني أختار بينك وبين حياتي هذه مع غانم."

صَمَت مراد، وأخذ يفكر فيما قالته له. صراحتها لم تفاجئه، فهي جزء مما أحبه فيها؛ سارة كانت لديها قدرة عجيبة على أن تعبر عمّا يجول في خاطرها دون أدنى عناء.....

- "طب إيش حتسوي لو غانم عرف عن علاقتك بي، فخَيَّرك بيني وبينه؟"
- "لا تخاف ما حَيِحْصل."
- "إشْمِعْنا؟" فوجئ من إجابتها.
- "ما في داعي تعرف أحسن."
- "لا، أعتقد أنه من حقي أني أعرف إيش آخْرَت علاقتنا."
- "علاقتنا آخرتها أنا وأنت اللي حنحددها، ما هو غانم."
- "إيوَه ليش؟ أبغى أفهم."
- "مراد تراك مَنْتَ بأول واحد." مرة أخرى فاجأته ساره بصراحتها، ولكن هذه المرة كانت صراحتها صعبة الهضم!
- "إيش قصدك؟!"
- "قصدي أن غانم ما يهمه أنا على علاقة مع مين، تراه ما هوب غبي. كل اللي يهمه أني ما أسبب له فضيحة، وأني أكون موجودة وقت ما يطلبني. غير كده أنا حرة إيش أسوي في حياتي. ها.... ارتحت؟"

لم يعنه في كل ما قالته إلا أنه ليس بأول شخص في حياتها تقيم معه علاقة من هذا النوع! لم تخن زوجها من أجله هو، بل كان

مجرد واحد من عدد لا يعرف حده! فهل يعني هذا أنه لن يكون أيضًا الشخص الأخير؟! تمنى لوهلة أنه لم يلح عليها في السؤال؛ تمنى لو أنه لم يسـمع هذه الإجابة منها، بل تمنى لو أنه لم يلبِّ دعوة ناصر لنادي الطلبة، ولم تتلامس وجنتاهما ولم يرَ وجهها في تلك اللحظة! تمنـى لـو أنـه لم يذهب إلى شـقة أخيها، ولـم يقابلها هناك! تمنى لو أنـه لـم يواعدهـا في شـقته.... أشـياء كثيرة تمناها فـي تلك اللحظة، ولكـن..... ولكـن في قرارة نفسـه، في داخـل أعماقه، كان يدرك أنه لو عاد به الزمن مرة أخرى إلى الوراء، كما حدث له من قبل، لكان فعل ما فعله، حتى يلتقيها، ويعيش معها أروع لحظات حياته!

* * *

شهر مضى دون أن يسمع منها، وكأنها كانت حلمًا جميلًا عابرًا واستيقظ منه. اتصل مرة واحدة بناصر بحجة السؤال عنه، وإن كانت رغبتـه الحقيقيـة هـي معرفة أخبارها. لم يشـفِ ذلـك الاتصال غليله، فناصـر كان كتومًـا فيمـا يتعلـق بأخبـار أخته، على الرغـم من معرفته بقربها منه. حاول مراد أن يشغل نفسه بمختلف ملاهي الحياة؛ واعد أكثـر مـن فتـاة تعـرف إليهن في الجامعة، ولكنه لم يشـعر مع أي من إحداهن بالشـعور السـاحر نفسـه الذي كان يغمره وهو مع سارة. في الأيام القليلة التي قضاها معها، نسي قدراته ونسي مآسيه في جدة، بل نسي العالم بأكمله. غبط غانم الساعدي الذي كان يمتلك وحده ذلك المصباح السـحري الذي يشـع بالسعادة لصاحبه.... "لماذا أمثاله هم الذين يحصلون على كل شيء، وغيره يحصل على فضلاته؟! عندما يرغب في سارة تكون رهن أمره، وعندما لا يحتاج إليها، يسمح لها بالانطلاق بعيدًا، دون أن يخشى هروبها منه.... تبًّا له! إنه يعلم جيدًا أنها ستعود إليه متى ما شاء! يا له من وغدٍ محظوظ!"

شيئًا فشيئًا بدأت تعود لمراد شهيته السابقة في المعرفة. أرغم نفسه، حتى لا يفكر في سارة، على البحث من جديد في مكتبة جامعة هارفارد. ذهب إلى قسم المخطوطات، وطلب نسخة مصورة من مخطوطة جُلّاب التي سبق أن حدّثه عنها أبوه. استعجب قَيِّم قسم المخطوطات هذا الطلب على مخطوطة ليس لها ذلك الشأن العظيم؛ لم تكن مشهورة، ومن النادر أن يطلبها أحد......

- "أنت ثاني شخص يطلب صورة منها في السنوات الأخيرة، بل ربما حتى منذ مجيئي إلى هنا؛ ولكن لماذا تريد الاطّلاع عليها، هل لديك بحث عن خصائص الأعشاب كما وردت في العصور الوسطى؟"

- "خصائص الأعشاب؟!" تعجب مراد.

- "نعم، خصائص الأعشاب؛ ألم تطلب مني صورة مخطوطة جُلّاب: عطايا الوهاب في الكشف عن خصائص الأعشاب؟ لا يوجد غيرها لدينا لهذا المؤلف."

- "نعم، صحيح، أقوم ببحث عن الاستخدمات الطبية لبعض الأعشاب."

- "لا أظنك ستجد سوى الخرافات في هذه المخطوطة. هي من الناحية العلمية ليست بأفضل ما كُتب عن الأعشاب. لماذا لا أدلك على مخطوطات أخرى حُقِّقت، تتناول الموضوع نفسه؟" أشفق القيِّم على الفتى من أن يضيِّع وقته في بحثٍ غير مجدٍ.

- "شكرًا، ولكني أرغب في الاطّلاع على مخطوطة جُلّاب تحديدًا لو لم يكن لديك مانع." أصرّ مراد.

- "ولماذا يكون لدي مانع؛ أنا فقط رغبت في مساعدتك، حتى لا تهدر وقتك الثمين."

أعطى القَيِّم لمراد طلبه، ثم انصرف عنه.

كانت المخطوطة لكتاب في مئة صفحة من الحجم الكبير يتحدث عن مجموعة من الأعشاب والنباتات، منها النادر ومنها المنتشر في أواسط آسيا، وكيفية التعرف إليها واستخدام خصائصها لأغراض مختلفة، مثل المساعدة على النوم أو اليقظة؛ إحداث النشاط والهمّة أو إحداث الراحة والاسترخاء؛ بعث النشوة والسعادة في النفوس، وأمور أخرى كثيرة على هذا الغرار، تدخل في الكثير من مُكوناتها أجزاء مختلفة من زهرة الخشخاش وشجيرة القُنَّب، بمقادير دقيقة لم تظهر بشكل واضح في صورة المخطوطة التي كانت مع مراد. بعض الأغراض التي ذكرت في الكتاب أيضًا كانت في غاية الغرابة، مثل استخدام مزيج من الأعشاب والنباتات من أجل صنع مسحوق اسمه المِطواع يساعد على التحكم في الأفراد! ولكن ما لفت انتباه مراد أكثر من غيره هو تحدثه عن مسحوق لا يعلم سرَّه إلّا القليلون من البشر، يُدعى الوشْكا، يفتح الباب إلى العالم المحجوب لفئة من البشر تُعرف بأهل الكشف..... كانت هذه هي الصفحة التي قرأها له أبوه في جدة، تذكر مراد؛ ولكنه لم يكن لديه الكتاب بالكامل، بل فقط مقتطفات منه. في الجزء الأخير من المخطوطة المصورة التي كان يطّلع عليها مراد، أفرد المؤلف عدة صفحات للحديث عن أهل الكشف بعبارات مبهمة: إنهم يرون ما لا يُرى، ما حدث وما لم يحدث، وما هو غير حادث إلّا بشرط وقوع مُسَببه إن وُجِد أو أوجِد من قبل من أوْجده! وتحدث عما سماه مراحل الكشف من الرؤيا في أثناء النوم ثم انقطاع النوم، ثم الرؤيا من غير نوم، وكيف

أن مسـحوق الوسْكا يسـاعد على تنشـيط عقل أهل الكشف "وجعل المُمْكـن أكثـر إمكانًـا حتـى يحـدث التمكن الكامـل". أخذ بعد ذلك يذكـر بعـض طبقات أهل الكشـف، وعلى رأسـهم "السـيدة الصالحة العارفة بالله أم الوفا" و"مولانا حيدر الكاشف قدس الله روحه" وكاهن مغولي يدعى "تبتنكر العظيم" لم يلتقِه، ولكن سمع عنه من قبل فتاة مغولية من نسـل جنكيز خان، وهي أيضًا من أهل الكشـف واسـمها ياسمي. أما أعظم هؤلاء جميعًا فهو رجل لا يعرف عنه سوى القليل، يُدعى عبدالرحمن.... "بعضهم قال عنه إنه هو الخضر لارتدائه عمامة خضراء ولإظهاره أعمالاً من العجب العجاب، والبعض الآخر قال إنه آصف بن برخيا الذي أحضر عرش بلقيس للنبي سليمان عليه السلام قبل أن يرتد إليه طرفه، وإن كنت أظنُّ أنه لا هذا ولا ذاك"....

أدرك مراد لماذا لم يأخذ الباحثون هذه المخطوطة على محمل الجد، فمـن لـم يمـر بتجربته لن يسـعه وهو يقرأ ما ذُكـر فيها إلّا أن يعتقـد أنهـا خرافـات رجـل معتـوه أو مـا شـابه ذلـك!.... "لا غرابة أن هـذه المخطوطـة لـم يهتـم بهـا أحـد سـواي..." فجـأة تذكر مراد مـا قالـه لـه القَيِّـم، عندما طلب منه صـورة المخطوطة، فقام من على منصـة المراجعـة، ثـم أخـذ فـي الاتجـاه نحو مكتب خلفي في قسـم المخطوطات حيث كان القَيِّم مشغولًا بمراجعة بعض المعاملات.

- "عفوًا، ولكنك أخبرتني بأن شخصًا آخر طلب مراجعة صورة مخطوطة جُلَّاب؟"
- "نعم، منذ نحو عام أو أكثر. لا أذكر أن أحدًا غيركما طلب مراجعتها منذ سنوات عدة."
- "وهل تعلم من يكون ذلك الشخص؟"

- "كانت حينها طالبة في الجامعة رأيتها مرة واحدة في قسم المخطوطات. أذكر أنها عندما جاءتني لكي تطلب صورة المخطوطة، لم أصدق لصغر سنها أنها حاصلة على الدكتوراة في الفيزياء، وتحضر للدكتوراة في الكيمياء الحيوية بهارفارد، حتى أظهرت لي بطاقتها الجامعية."

- "وهل تذكر اسمها؟" كان مراد يدرك أن الحدث قد مر عليه عام أو أكثر، واحتمال أن يتذكر الرجل اسم الطالبة، أمر في غاية الضآلة، ولكنه مع ذلك آثر إلّا أن يسأل.

- "ومن ينسى فتاة كتلك! خاصة بعدما أصبحت أصغر أعضاء هيئة التدريس في هارفارد: فيرجينيا تبت!"

* * *

ثاني مرة يسمع هذا الاسم..... فيرجينيا تبت؛ وفي كلتا المرتين الأمر كان يتعلق ببحثه من أجل فهم حقيقة تلك القدرات العجيبة، أخذ مراد يفكر في أثناء تجواله المعتاد كل مساء منذ أن سافرت سارة، على أرصفة شارع نيوبيري..... "لا يمكن أن يكون الأمر مجرد مصادفة. هل يا ترى هي الأخرى تتمتع بالقدرات نفسها؟! هل هي الأخرى من أهل الكشف، على حد وصف جُلّاب؟!" تساءل مع نفسه وقد ملأه الفضول.... الخطوة المقبلة التي وجدها الأنسب أن يذهب إليها؛ ولكن ماذا سيقول لها؟ فهل يفضح نفسه أمامها، وهو الذي لا يعرفها، ولا يعرف أي شيء عن نواياها؟! كان لا بد من طريقة غير مباشرة للتعرف إليها، وللتأكد من غرض بحثها، قبل أن يقرر مصارحتها من عدمه..... "الشيء الوحيد الذي أعلمه عنها هو أنها كانت من أنبغ الطلاب الذين مروا على جامعة هارفارد، وقد

أصبحت الآن أحد أعضاء هيئة التدريس بها.... لعله لو اطّلعت على طبيعة بحوثها...."

ما كاد مراد ينهي الخاطرة حتى رأى ما لم يكن في حسبانه! في المقهى على الجانب الآخر من الشارع، كانت تجلس سارة بجوار رجل وسيم بدا من ملامحه أنه أمريكي، تتحدث معه وتضحك باستمتاع لا يشوبه أي شك! لم يجد مراد نفسه إلّا وهو يقطع الشارع دون أن يشعر، متَّجهًا نحو ذلك المقهى....

- "سارة؟!"

التفتت سارة نحو مراد، ودون أن تبدي أي دهشة قالت:

- "آه مراد.... كيف حالك؟ إيش هذي المصادفة الحلوة." ثم أكملت حديثها باللغة الإنجليزية....

- "دان، اسمح لي بأن أقدم لك أحد عباقرة السعودية، مراد قطز، صديق أخي ناصر."

صافح مراد جليس سارة الذي بادر بتعريف نفسه...

- "دان سيمنز، سعيد بلقائك."

- "تفضل معنا مراد، إن لم تكن مشغولًا بأمر آخر." دعته بنبرة يغلب عليها المجاملة.

- "لا، شكرًا، أنا.... أنا فقط كنت في طريقي إلى مكان قريب من هنا عندما رأيتك فأتيت للسلام عليك. لم أكن أعلم أنك عدت إلى بوسطن."

- "عدت البارحة. كنت أحدث دان قبل قليل، كيف أني في شهر واحد جُبت ثلاث قارات مع غانم. كانت رحلة ممتعة ومنهكة

فـي الوقـت نفسـه، وكانـت أول مرة أزور فيها تونس. هل سـبق لأحدكما أن زارها؟"

كلاهما أجابا بالنفي.

- "أنصحكما بزيارتها.... إنها جميلة جدّاً. أنا شخصيّاً وقعت في غرام منطقة سـيدي بوسـعيد بمبانيها الزرقاء. عندما لاحظ غانم هذا الأمر، اشترى لي فيلا جميلة هناك."

لم يتحمل مراد سـماع المزيد. ابتسـم لسـارة ولرفيقها ابتسـامة يغلـب عليهـا التصنـع، ثم اسـتأذن وانصرف بعيـدًا عنهما. لم يتحمل في تلك اللحظة الشـعور الذي انتابه، من جرّاء اسـتقبال سـارة البارد لـه، بأنـه مجـرد صديق لأخيها الذي لا يطيقه.... بأنه مجرد شـخص عابر في حياتها التقته مصادفة اليوم في شـارع نيوبيري.... لم تتصل به فور وصولها! عندما رأته لم تقفز من مقعدها لاحتضانه والتعبير له عن مدى اشتياقها! لم تفعل أيّاً من هذا.... كأنها..... كأنها لا تحبه كما يحبها! هل من المعقول أنه أخطأ في تصور مشـاعرها تجاهه؟! خالجه السؤال، ثم من غير أن يشعر، بينه وبين نفسه:

- "كم أنا غبي! كم أنا غبي!" أخذ يردد بصوت خافت.

* * *

آثر البقاء في شقته. لم يرغب في ملاقاة أي شخص. أراد فقط أن ينفـرد مـع نفسـه، ويلقـي عليها سـيلًا مـن اللّوم. لقد نسـي درس أبيه.... نسي أن مصير كل من يسلم قلبه لامرأة هو الضياع في بحور الوهـن والآلام! لمـاذا لـم يعاملها كما عامل سوسـن؟ كان يجب أن يجعلها هي الخاضعة له، ولا أن يكون هو الخاضع لها! جعلته ينسى ما فعلته منال مع أبيه، وكان هذا هو الخطأ!

استمر في لوم نفسه طوال الليل؛ شعر بمزيج من الغضب والحسرة، جعله يرغب في تحطيم كل شيء من حوله. لوهلة فكّر في مغادرة بوسطن وأمريكا بأسرها، والذهاب إلى أي مكان بعيد. لا يهم إلى أين، طالما أنه بعيد عنها! وفي ظل تلاطم تلك الأفكار، فجأة سمع جرس باب الشقة.... "من القادم في هذه الساعة المتأخرة من الليل؟!" لم يرغب في الإجابة عن هذا السؤال. لعله أحد أصدقائه الذين كان من المفترض أن يلتقيهم الليلة ولم يفعل. ظل الجرس يدق.... من كان على الباب، لا يرغب في الذهاب؛ فإصراره على البقاء حتى يجيبه كان واضحًا.....

- "نعم! نعم!" صرخ وهو يفتح باب شقته، ثم صمت.... لجَّمته الدهشة!

- "كل هذا علشان تفتح الباب؟! لا تكون صرت تنام زي الدجاج؟!" دخلت سارة شقة مراد، كما اعتادت من قبل دون استئذان، متجاهلة دهشته.....

- "جبتلك هدية حلوة من باريس. نبيذ شاتو راياس سنة تسعين، حتعجبك. يالّا جيبْلَنا كاستين علشان نحتفل."

- "نحتفل؟ قصدك نحتفل بعلاقتك الجديدة؟! إيش اسمه؟ دان؟!"

- "إيش؟! آه... فهمت. علشان كده كان باين عليك متضايق. دان هذا صديق قديم، ما في بينه وبيني شيء."

- "ما في بينك وبينه شيء تقومي تقابليه أول ما تيجي بوسطن، قبل حتى ما تقولي لي إنك وصلتي!"

- "مراد! قلت لك إنه مافي بينه وبيني شيء غير الصداقة، وبعدين

مو من حقك تحاسبني، أنت منت جوزي! إن كان في أحد من حقه أنه يحاسبني فهو غانم مو أنت! وعلى فكرة أنا ما كلمتك، لأني حبيت أسويلك مفاجأة، بس أنت حرقتها."

- "صحيح.... أنا الغلطان." أجابها متهكمًا.

- "مراد إيش بلاك؟! جالس تتصرف زي واحد مراهق تَوه يتعرف على وحدة! ما كأنك مراد اللي خلى سوسن ذكري تموت فيه وتترك أهلها علشانه، وتجري وراه لأمريكا!"

- "آسف. نسيت أني بالنسبالك مجرد عشيق من ضمن اللِسْتة الكبيرة!"

- "مراد!! تراك بدأت تتجاوز حدودك! أعتقد علاقتنا كانت واضحة من البداية، وعمري ما وعدتك بشيء!"

صمتت قليلًا، ثم أخذت تتمالك نفسها واقتربت من مراد الذي أدار لها ظهره وذهب أمام النافذة. وضعت أنامل كفها الأيسر في مؤخرة شعره، وبسَبّابتها اليمنى بدأت تلامس وجنته....

- "لا تِضَيِّع اللي بيني وبينك بالغيرة الهبلة. ولا تعقد علاقتنا بمشاعر أنت وأنا عارفين أننا ما حنقدر على توابعها. أنا سبق وقلتلك إني ماني ناوية أسيب غانم ولا أفكر أصلًا في كده. حياتي معاه غير قابلة للنقاش، وإيش أسوي في حياتي الخاصة ما تخص أحد غيري. مراد أنا ما سبق وحاسبتك على حياتك الخاصة. ما سألتك أنت بتعرف مين وبتروح مع مين. سبتك لحريتك، تتعرف على اللي تبي تتعرف عليها، تصادق اللي تبي تصادقها، تنام مع اللي تبي تنام معاها، ما حاسبتك ولا ححاسبك. صدقني علاقة

زي هـادي هـي اللـي بتـدوم. إذا بدأنا نِدَخِّل الغيرة والمحاسـبة، فأؤكد لك بأن اللي بيننا حيفشل، وأنا ما أبيه يفشل."

- "أنـت إنسـانة غريبـة... غريبـة." ردد بهـدوء، متأمـلاً النجوم في سـماء مدينة كمبريدج، والتي كانت تذكره بسـارة.... تبدو قريبة ولكنها في واقع الحال بعيدة جدًا، أكثر بكثير مما يتخيله العاشق لجمالها.

- "وأنـت أغـرب." أجابتـه وهـي تضع ذراعيها حول خصره، في إشـارة واضحة برغبتها في الإبحار معه إلى عالم اللذة والنشـوة اللّتين كان يحسن قيادة دفة قاربها إليهما....

كان أمـام مـراد لحظـة اختيـار: إما أن ينهي هـذه العلاقة القائمة على العشـق من طرفه والرغبة من طرفها، أو أن يسـتمر فيها ويتقبل شـروطها مهما بدت هذه الشـروط مجحفة لمشـاعره نحو سارة..... إما أن يمشي وراء عقله، أو يستسلم لرغبات قلبه. الخيار كان صعبًا، بل في غاية الصعوبة. حياته من غير سارة ستكون حياة خاوية؛ وبها ستكون حياة لاهية..... التفت مراد برأسه إليها وهي تميل إليه بتغنج. لوهلـة فكّـر فـي أن يزيـح ذراعيها من حوله، ويبتعـد عنها؛ ولكنه لم يفعل. لم يسـتطع وهو ينظر إلى عينيها العسـليتين إلّا أن يغوص في بحرها اللجّي، مدركًا أنه لو كان لبشـرٍ أن ينجو من الغرق فيه، فلن يكون ذلك الأحد سواه!

* * *

"البصمـة الكهرومغنطيسـية للكائنـات" كانـت هـذه أحد بحوث فيرجينيا تبت الكثيرة، التي لفتت انتباه مراد؛ تتحدث فيه عن إمكانية معرفـة الموجـات الكهرومغناطيسـية التـي تنتـج عـن كل كائـن حي،

وقياسـها لتبيـان مـا يميزهـا عـن غيرهـا، وأنها في هـذه الحالة تكون كالبصمـة التـي تحـدد هويـة الإنسـان. ولكـن هذا البحـث ككثير من بحوثهـا المنشـورة فـي أرقى المجلات العلميـة، لا يوجد لها بحوث متابعة. كأن فيرجينيا تهوى رسم الطريق لكي يسير فيه غيرها. بحث آخـر لفـت انتبـاه مراد، كان عن التشـابك الكمي بيـن الذرّات. كانت قد وضعت بالتعاون مع البروفيسور آل فريدمان أسس تجربة معملية تهـدف إلـى جعـل ذرة هيدروجيـن في معمل بهارفارد تتشـابك بذرة هيدروجين في معمل آخر ببرنسـتون! ما يعني أن اتصالًا آنيّاً يحدث بين الذرتين، ثم تتحكم ذرة في شـقيقتها من غير أي وسـيلة اتصال ملموسة.... ما تنبأت بإمكانية حدوثه قوانين فيزياء الكم، دون أن يتم إثباته إلى اليوم؛ والعجيب أن هذا البحث الوصفي لخطوات التجربة لـم يوجـد له أي متابعة منشـورة، علـى الرغم من أهميته! "لماذا هذه العالمة العبقرية كانت تبدأ بالإجابة عن سؤال محير، ثم فجأة تنقطع عن المواصلة؟!"

- "فيرجينيا تبت....هممم." همسـت سـارة في أذنه فجأة، حيث لـم يشـعر بقدومهـا إلـى شـقته التـي أصبحت تمتلك نسـخة من مفتاحهـا.... كان منهمـكًا فـي المجلات العلميـة المتناثرة حوله في كل مكان.
- "حمد الله على السـلامة، حسـبتك حتوصلي من السـفر الأسـبوع الجاي!" قال مبديًا سعادته لهذه المفاجأة السارة، ثم عانقها.
- "حبيت أسويلك هي مفاجأة، ولو أني شايفة أنك مشغول مع فيرجينيا."

استـغرب مـراد مـن جملة سـارة الأخيـرة، خاصـة الطريقة التي

ذكرت بها اسم فيرجينيا، وكأنه استشف نبرة يشوبها الغيرة....

- "أنت سمعت عنها؟"
- "صراحة عمري ما سمعت عنها ألين ما قابلتها في حفل عشاء بواشنطن من حوالي سنة في بيت وزير الدفاع الأمريكي."
- "وزير الدفاع مرة وحدة! غانم جوزك هذا سره باتع!" قال متهكمًا.
- "غانم، يا بعد عمري، علاقاته ما لها حد؛ إيش تحسب؟!"
- "طب، وإيش علاقة وحدة زي فيرجينيا تبت بحفل عشاء في بيت وزير دفاع أمريكا؟"
- "ما أعرف، وبصراحة ما اهتميت؛ بس واضح أن المعجبين بيها كثار."
- "ساره؟! أنت غيرانة؟!" تساءل مراد بدهشة.
- "لا طبعًا، أنت عارف أني ما أغار، بس مستغربة إنك طالب في كلية الطب وشاغل نفسك بحاجة بعيدة عن مجالك."
- "هي ما هي بعيدة بالمرّة. العلوم كلها مترابطة." لم يجد إجابة أفضل من هذه على تساؤلها، دون أن يفصح لها عن حقيقة آثر أن يبقيها مخفية عن الجميع بقدر المستطاع....
- "وعلى كده كانت حفلة كبيرة اللي في بيت وزير الدفاع؟"
- "لا بالعكس، كان عدد المدعوّين محدوداً. بس دان كان موجود."
- "دان؟؟"

- "دان سيمنز اللي شفتني معاه في القهوة من شهرين، وزعلت.... فاكر؟"

- "ودان إيش علاقته في الموضوع."

- "دان رجل أعمال مرموق، يمتلك شـركة بايوتكنولوجي، وهو اللـي عـرّف غانم على وزير الدفـاع.... أقولك، تراني مليت من السيرة هذي؛ قولّي، إيش رأيك نروح النايت كلوب؟ جاي هواي على الرقص الليلة."

- "مـا فـي مانـع." أجابهـا مـراد، ثـم انطلق إلـى غرفة نومـه، ليُغَيِّر ملابسه....

* * *

علـم بعـد تحريـه عن فيرجينيا، أنها من هواة الركض عند الفجر على ضفاف نهر شارلز، وأنها كانت دائما ما تنطلق من منطقة حديقة كينيدي.... هل كانت تركض في ذلك الوقت لهدوء المكان وخلوه من المارّة؟ أخذ يتساءل، أم أنها مثله لا تنام، فأرادت استغلال الوقت الميت؟ أيّاً كان السبب، فقد شعر مراد بأن وجودها في ذلك المكان وفـي ذلـك التوقيت هو الأنسـب له من أجل لقائهـا والتحدث معها، خاصة وأنها شديدة الانشغال؛ لذلك قرر أن يمارس هو الآخر رياضة الركض....

شيء ما كان على غير ذي عادة في فجر ذلك اليوم. انتاب مراد شعور غريب في أثناء وجوده بالقرب من حديقة كينيدي. لم تكن هذه المرة الأولى التي ينتابه مثل هذا الشعور، وإن لم يتذكر في حينها متى وأيـن. أخـذ هذا الشـعور، الذي لم يجد لـه وصفًا، في الازدياد كلما اقترب أكثر من الحديقة؛ حاول ألّا يعيره اهتمامًا كبيرًا فتجاهله؛ كل

همه كان منصبًا على إيجاد فيرجينيا ثم التعرف إليها. أخذ ينظر حوله في كل مكان، ولكنه لم يجد لها أثرًا... هل تأخر قليلًا، فسبقته بالركض نحو ضفاف النهر؟ أم أنها لم تأتِ بعد؟ قرر أن ينتظر قليلًا، خاصة أن الفجر كان لا يزال يشق طريقه في السماء التي لم تنزع عنها سوادها. أدرك مراد في أثناء انتظاره وسط الهدوء الساكن الذي كاد يعمّ المكان، لولا تغاريد بعض الطيور، لماذا كانت فيرجينيا تختار هذا الوقت تحديدًا للركض. يكاد المرء في هذه الأجواء الساكنة أن يسمع عقله وهو يفكر....

مرت دقائق ومراد على هذا الحال، ثم في اللحظة التي كاد يتخذ فيها قراره بالمضي إلى مكانٍ آخر، سمع صوتًا قادمًا من بعيد، لأقدام تعدو. لوهلة ظن أنها ربما تكون فيرجينيا، ولكن سرعان ما تبين له غير ذلك عندما شاهد رجلًا يظهر من بين الأشجار يمر راكضًا من أمامه..... "يبدو أن فيرجينيا ليست هي الوحيدة التي تعشق الجري في هذا الوقت من اليوم." أخذ يحدث نفسه. مرت دقائق قليلة أخرى، ثم عاد الرجل نفسه؛ هذه المرة توقف أمام مراد....

- "هل أنت في حاجة إلى المساعدة؟" سأل الرجل بنبرة حادة.
- "عفوًا؟"
- "لاحظتك واقفًا منذ مدة، وكأنك تبحث عن شيء."
- "شكرًا، أنا على ما يرام، ولست في حاجة إلى المساعدة." أجابه مراد دهشًا من تتطفله غير المحمود.
- "إذًا لماذا أنت واقف هنا؟ كأنك تنتظر أحدًا؟"
- "وما دخلك أنت؟! هذا شيء لا يعنيك!" لم يحاول إخفاء

غضبه من الرجل الذي اعتذر، ثم انصرف على الفور. كاد مراد يفعل الشيء نفسه، وينصرف هو الآخر ليعاود الكَرَّة مرة أخرى في فجر يومٍ جديد، عندما شاهد جسدًا أنثويًا نحيلًا قادمًا من بعيد.... كانت هي فيرجينيا تبت، تعرف إليها من صورة رآها لها في دليل الجامعة!

ركضت من أمامه، متجاهلة وجوده، وكأنها لا تراه. كانت هذه هي فرصته للحديث معها والتعريف بنفسه، بعيدًا عن زخم الجامعة؛ فقط كان عليه الركض بجوارها والتظاهر بأنه يُشَبَّه عليها، ثم التعجب من هذه المصادفة الجميلة التي جمعتهما هنا لممارسة هذه الرياضة الماتعة على ضفاف نهر تشارلز!

* * *

لم تكن فيرجينيا بالفظاظة التي سمعها عنها، بل على العكس من ذلك أبدت شيئًا من الود عندما عرَّفها بنفسه. بدت وكأنها لم تمانع صحبة زميل لها في هارفارد. لم تتعجب عندما أخبرها بأنه من السعودية، على العكس من زملائه وأساتذته الذين لم يصادفوا من قبل شخصًا ذا ملامح آسيوية يدَّعي أنه من قلب بلاد العرب! ربما لأنها هي الأخرى من أصول آسيوية، أخذ يظن؛ فلعل هذا ما جعلها لا تشعر بالضيق لوجوده ولقطعه خلوتها المعتادة؛ ولكنها فاجأته أيضًا بأمرٍ آخر لم يكن يعلمه.....

- "أختي أليس هي الأخرى تدرس الطب في هارفارد، ولكنها في السنة الأخيرة. لا أدري إن كنت قد صادفتها؟"

- "لا، لم ألْقَها من قبل. طلاب السنة النهائية عادة ما يمضون جل وقتهم في المستشفيات، على خلاف طلاب السنة الأولى."

- "لعلّي أعرفكَ عليها لاحقًا؛ قد تفيدك ببعض النصائح."
- "أكون شاكرًا لك." جاملها مراد؛ فلم يكن في واقع الأمر في حاجة إلى أي نصائح من أجل مواصلة دراسته الطبية التي كانت بالنسبة إليه في غاية اليسر. ما كان في حاجة إليه هو أن يجد فرصة مناسبة لكي يبدأ بالتمهيد لها عن السبب الحقيقي الذي أرادها من أجله دون أن يبدو كشخصٍ معتوه! لعل هذه الفرصة تأتيه في يوم لاحق؛ لم يرغب في تعجل الأمر، حتى لا يَحدث ما لا تُحمد عُقباه، فيخسر ثقتها التي بدت له وكأنه اكتسبها مع بزوغ شمس هذا اليوم.

* * *

بعد ساعتين من الركض، دعته فيرجينيا على فنجان قهوة من المقهى المجاور. كانت في غاية اللطف معه، على خلاف ما توقعه قبل اللقاء وما سمعه عنها من كونها ليست اجتماعية، ولا تحب الاختلاط كثيرًا مع الناس. بدا لمراد وكأن كل هذه الأقاويل كانت مجرد شائعات....

تبادلا أرقام هواتفهما، ووعدته بأنها ستتصل به لاحقًا لكي ترتب لقاءً تعرفه فيه بأختها أليس.... في مساء ذلك اليوم، جاء الاتصال المرتقب من فيرجينيا....

- "هل لديك شيء السبت القادم على العاشرة صباحًا؟"

استغرب مراد من سرعة اتصالها وإصرارها على اللقاء بأختها. لوهلة ظن أنها ربما كانت تحاول جمعه بأليس لغرض آخر غير مساعدته في كلية الطب... "هل تبحث لها عن بويْفريند؟!"

- "السبت مناسب جدّاً، إلى اللقاء."

* * *

أول شيء خطر على بال مراد عندما رأى أليس لأول مرة، أنه من المستحيل أن تكون امرأة كهذه بلا خليل! كانت على قدر كبير من الجمال والأناقة، بجانب ذكائها الذي مكّنها من الحصول على قبول في كلية طب جامعة هارفارد والمواصلة فيها حتى السنة النهائية؛ وإن كان هذا الذكاء لا يقارن بعبقرية أختها التي استعاضت بعقلها عن الاهتمام بمظهرها البسيط.

كان اللقاء ودّياً، وعلى خلاف ما ظن عندما هاتفته فيرجينيا، لم تكن تبحث لأختها عن خليل، حيث تبين له من الحديث أن في حياتها شاباّ اسمه جيم....

- "وأين هو الآن؟" تساءل مراد.

- "لديه مناوبة في المستشفى. هو طبيب مقيم سنة أولى في برنامج جراحة التجميل بمستشفى ماس جنرال."

- "جراحة تجميل؟ هذا التخصص نفسه الذي أنوي دخوله."

- "عظيم! ولن تجد أفضل من برنامج مستشفى ماس جنرال، وبالمناسبة لقد جاءني قبول فيه وسأبدأ هناك شهر يوليو القادم. لعلك تنضم إلينا بعد ثلاث سنوات، عندما تنتهي من كلية الطب، قُبَيل الألفية الثالثة!"

- "في الواقع، الألفية الثالثة لا تبدأ حتى العام ألفين وواحد على خلاف ما هو مشاع." علّق مراد على جملتها الأخيرة.

- "أرجوك! حتى أنت يا مراد؟! هلكتني فيرجينيا بتكرار المعلومة

نفسـها!" أطلقت أليس تنهيدة ملل، ثم رفعت عينيها نحو سـقف المقهى.

- "أنا لم أقل له شيئًا، ولكن هذا يثبت لك أني لست الوحيدة التي تدرك هذه المعلومة البسيطة." أضافت فيرجينيا.

- "لا يهمني ماذا تقولين أنت وهو، فلن أحتفل بالألفية الجديدة إلّا عنـد منتصـف الليـل مـن سـنة ألفيـن، وليس ألفيـن وواحد! وسـأقيم الحفـل بشـقتي عنادًا فيكِ!" قالت أليـس مداعبة أختها، ثم نظرت إلى مراد، وبابتسامة ماكرة أضافت:

- "احجز نفسـك من الآن للحفل بعد ثلاث سـنوات. بالمناسـبة ممنوع الحضور من غير رفيقة، وإن لم يكن لديك واحدة، فلعلي أستطيع ترشيح واحدة لك."

شـعرت فيرجينيا بخجل شـديد وعدم الارتياح من عبارة أختها الفظة، فأصابها شيء من الارتباك، ما جعل مراد يبادر بالحديث حتى يقطع على أليس ما كانت تفكر فيه....

- "لـدي خليلـة، ولكنهـا ليسـت مقيمة هنا في بوسـطن، ولا أعلم كيـف سـيكون جدولهـا بعـد ثـلاث سـنوات مـن الآن! يبدو أنه سيكون حفلًا رائعًا هذا الذي ترتبين له من الآن!"

ضحـك مـراد، وشـاركته أليس، علـى خلاف فيرجينيـا التي بدا عليها شيء من الضيق، وإن حاولت إخفاءه.

* * *

توطدت صداقة فيرجينيا بمراد مع مرور الأيام، وأصبح الركض كل فجـر علـى ضفـاف نهـر تشـارلز ثم تناول وجبـة الإفطار من بعد ذلـك، عـادة يوميـة لهما، إلـى أن منعهما السـقوط الكثيف للثلج من

الاستمرار في ممارسة رياضتهما المفضلة. شيئًا فشيئًا أخذ مراد يسألها عن طبيعة بحوثها وإبداء اهتمامه بها، وما شجعه أكثر في طرح المزيد من الأسئلة والغوص في التفاصيل أن فيرجينيا كانت لا تمانع على الإطلاق في الإجابة والشرح، بل لوهلة بدا له وكأنها كانت تشجعه على طرح المزيد من الاستفسارات؛ ولكن ظل هناك أمر محير بالنسبة إلى مراد لم يعرف كيف يسألها عنه..... مخطوطة جُلّاب.

حار كيف يفاتحها في هذا الموضوع، خاصة أنه لم يرغب في الكشف لها بأنه كان على علم بها وباهتمامها بالمخطوطة نفسها قبل أن يلتقيها أول مرة. إن علمت بهذا الأمر فستشكّ في أن لقاءهما ذلك اليوم لم يكن من باب المصادفة كما تظاهر هو، وقد يقودها ذلك الشك إلى طرح أسئلة لم يكن مستعدّاً بعد للإجابة عنها. تمنى لو أنه لم يضطر إلى إخفاء أمر كهذا عنها، خاصة بعد أن أصبحا صديقين وبدأت تبوح له عن حياتها الخاصة وتأخذ رأيه في بعض الأمور، ما شجعه هو أيضًا على الإفصاح لها عمّا مر به من مشاكل في السعودية، وعن علاقته بسوسن، بل إنه أصبح يثق بها إلى درجة الإفصاح لها عن علاقته بساره، دون ذكر اسمها صراحة بسبب ظروفها الحرجة....

- "علاقة سوسن بك، ومن بعدها تلك المرأة المتزوجة، هو أمر لا أخلاقي، وكذلك يعاقب عليه القانون. أنت لم تتم بعد الثامني عشّرة سنة، فكيف تسمح لنفسها كل واحدة منهما بإقامة علاقة معك؟! خاصة أنهما تقريبًا في عمر أمك!"

احتار كيف يشرح لها أنه لم يكن في يوم من الأيام هو الطرف الأضعف في علاقته مع سوسن أو حتى مع سارة، وأن عمره المحسوب بطريقة متخلفة بناءً على دوران الأرض حول الشمس،

لم يكن يعنيه في شيء! أمور كثيرة ودّ لو أنه يشرحها لها بشيء من التفصيل، ولكنه شعر بأن الأوان لم يحن بعد؛ تمامًا كحال الحديث عن مخطوطة جُلّاب....

* * *

- "مراد، كم ساعة تنام في اليوم؟" سألت فيرجينيا ذات مرة في أثناء الركض، ما أثار استغرابه.

- "لماذا هذا السؤال؟"

- "هناك أمر وددتُ أن أصارحك به، بما أننا أصبحنا صديقين. أمر لم أخبر به أي أحد، ولا حتى أليس."

- "وما هو؟!" تساءل مراد مستعجبًا.

توقفت فيرجينيا عن الركض، ثم اقتربت منه، ونظرت إلى عينيه بتمعُّن قبل أن تلقي عليه قنبلتها...

- "منذ سنتين تقريبًا، توقفت عن النوم نهائيّاً."

فوجئ مراد بما قالته له! لقد أفصحت له عن سرها، فتأكد حدسه.... هي إذًا مثله!

كانت هذه هي الفرصة التي ظل يبحث عنها، فلعله يستطيع معرفة المزيد من التفاصيل عنها وعمّا توصلت إليه؛ عليه فقط أن يُحسن إدارة دفة هذا الحوار...

- "مستحيل! فالإنسان لا يستطيع أن يبقى أكثر من ثلاثة أيام متواصلة بلا نوم." تظاهر مراد بعدم التصديق.

- "ولكن هذه هي الحقيقة. أنا لست كباقي الناس؛ لذلك أفضل دائمًا الانفراد بنفسي.... أنت أول صديق لي منذ مدة طويلة."

لوهلة شعر مراد بتأنيب الضمير؛ فها هي تعترف له بأدق تفاصيلها، معتبرة إياه صديقها الوحيد، وهو يتلاعب عليها لمعرفة المزيد! أراد أن يعترف لها هو الآخر، ولكنه أمسك لسانه في آخر لحظة.... الوقت لم يحن بعد....

- "فيرجينيا، ما تقولينه هذا إن صح فهو يشكل خطرًا كبيرًا على صحتك! لعلك تعانين مرضاً ما. هل عرضت نفسك على طبيب؟"

- "مراد، الأمر ليس كما تحسب. أنا لا أعاني من أي مرض؛ بل العكس هو الصحيح." صمتت قليلًا، ثم بعد تردد واضح أكملت....

- "ما أنا على وشك الإفصاح لك به، أرجو أن يبقى سرّاً بيننا. أريدك أن تعدني بذلك."

- "أعدك طبعًا."

- "منذ سنوات عدة، بدأت أرى في أحلامي أشياء عجيبة. أحداث بدت لي وكأنها حقيقية من الماضي البعيد، وكأني بالفعل أعيشها، وليست مجرد أحلام. ثم بدأت أرى أشياء تحدث في الحاضر ولكن في أماكن بعيدة عني. في إحدى هذه المرات رأيت أبي مع امرأة أخرى غير أمي في مدينة نيويورك، مع العلم أنه كان المفترض أن يكون في واشنطن دي سي. طبعًا تحققت مما رأيت، وتأكدت بعد ذلك بأنه كان على علاقة بتلك المرأة، وبالفعل كان معها في نيويورك في الوقت نفسه وفي المكان نفسه الذي رأيتهما فيه! استمرت الأمور على هذا النحو، وكان في ذلك الوقت مستوى ذكائي يزداد بشكل غير طبيعي؛ بل

حتـى تعلمـت لغات عـدة، لا أعلم كيف، من تلك الرُّؤى! كنت أسـتيقظ يوماً ما لأجد نفسـي تمكنت من لغة لم أكن أعلمها في اليوم السابق! الغريب أيضًا أنه مع مرور الوقت كان معدل نومي ينخفـض تدريجيّـاً، حتى أصبحـت لا أنام على الإطلاق؛ وحينها فقـط توقفـت تلـك الرؤى العجيبة، ثـم بدأت تظهر علي أعراض أخرى مازلت أحاول فهمها!"

وكأنها، باستثناء بعض التفاصيل، كانت تتحدث عنه؛ شعر مراد بالذهول! شكّه كان في محله.... هي مثله!

- "فيرجينيا، ما تقولينه هو بحق أمر مذهل!"

- "أنت الوحيد، لا أعلم لماذا، الذي شعرت بأنني أستطيع البوح له بسري. ربما لأنك صديقي الوحيد، ولأني أثق بك."

كاد مراد يختنق لعبارة فيرجينيا الأخيرة..... هي تثق به؛ تعدّه صديقًا مخلصًا، وهو..... وهو يخدعها! لماذا لا يصارحها بالحقيقة هو الآخر؟! أخذ يتساءل مع نفسه....

- "ألهـذا اطّلعـت علـى مخطوطـة جُـلّاب؟ كنـت تبحثيـن عـن إجابات؟" لم يجد طريقة أفضل لكي يفاتحها.

- "نعم، لهذا....." توقفت فيرجينيا عن إكمال الجملة، ثم أخذت تتأمـل مـا سـمعته تـوًّا من مراد، ثم رسـمت علـى وجهها علامة استفهام كبرى....

- "مهلا..... كيف علمت أني اطلعت على تلك المخطوطة؟! أنا لم أخبرك بالأمر."

- "فيرجينيا.... هناك أمر أريد مصارحتك به..... أرجو أن تقدري

موقفي وتعلمي أني لم أقصد أي إساءة لك...."

- "مراد، ماذا تريد أن تقول؟!"

- "أنت لست الشخص الوحيد على هذه الشاكلة..... أنا أيضًا.... أنا أيضًا مثلك." شعر بحمل ثقيل ينزاح من على صدره، وهو يبوح لها بالحقيقة.... لا خداع بعد اليوم!

- "ماذا؟!"

- "وكما فعلتِ، ذهبتُ أنا أيضًا للاطّلاع على مخطوطة جُلّاب في مكتبة جامعة هارفارد، منذ شهور عدة، فعلمت وقتها من القَيِّم أنك كنت الشخص الوحيد غيري الذي اهتم بمخطوطة وُصِمت بأنها مجرد تُرهات شخص مخبول. شككت حينها بأنك ربما تكونين مثلي، وإلّا ما الذي يجعل عالمة نابغة مثلك تهتم بها؟ كان يجب أن أتأكد من...."

- "لقاؤك بي أول مرة في أثناء الركض لم يكن محض مصادفة!" قاطعته فيرجينيا....

- "كنت تتظاهر طول هذه المدة بأنك صديقي، والحقيقة أنك كنت تتجسس علي!"

- "فيرجينيا، الأمر ليس كما يبدو.... أقسم لك إني لم أقصد التجسس، ولكني كنت أبحث عن شخصٍ يشاركني هذا الجنون الذي وجدتني فيه! عن شخصٍ يشاركني الرغبة في البحث عن إجابات لأسئلة كثيرة محيرة!"

- "أرجوك مراد! أرجوك.... لا أريد أن أسمع أي شيء منك. اتركني وحدي.... لا أريد أن أراك ثانية!"

- "فيرجينيا.... أعلم أني أخطأت في حقك، ولكن...."
- "قلت لك لا أريد سماع المزيد من هذا الهراء! اتركني وحدي! اتركني!!" صرخت فيرجينيا في وجه مراد، ثم ركضت بعيدًا عنه، تاركة إياه في حيرة وذهول، شاعرًا بأنه كُلّما خطا خطوة للأمام، تراجع عدة خطوات للوراء!

* * *

شهر مضى، وهو يحاول الاتصال بفيرجينيا بشكل شبه يومي للاعتذار، ولكن دون جدوى. لم ترغب في رؤيته ولا التحدث معه. كتب لها رسالة مطولة حمّلها لأليس، يقرّ فيها بندمه على ما فعل، وبأنه كان ينوي مصارحتها بكل شيء، ويؤكد أن صداقته لها حقيقية وليست محل خداع.

حاولت أليس أن تفهم منه، بعدما وافقت على حمل الرسالة، سبب هذا الخلاف الكبير الذي أدى إلى القطيعة بينهما، ولكنه رفض البوح بالتفاصيل.

- "أنت لا تريد إخباري بما جرى بينكما، وهي كذلك.... أتمنى لو أن أحدًا يشرح لي شيئًا حتى يمكنني المساعدة!" قالت رافعة ذراعيها إلى الأعلى قبل أن تتركهما يَهْويان، دلالة على إحباطها.
- "أليس، هذه مسألة تخصها في المقام الأول، وأخشى إن أفصحت لك أن تغضب مني أكثر مما هي غاضبة." لم يستطع مراد البوح بأكثر من هذا، وإلّا فسيفضح نفسه أيضًا وليس فقط فيرجينيا.
- "حسنًا.... لعلك محق في هذا؛ أختي بالفعل من النوع الكتوم، وليس من طبعها إفشاء أسرارها لأي أحد، ولا حتى أنا، أقرب الناس إليها.... فيرجينيا ليس لها الكثير من الأصدقاء، بل

لعلـك تكـون أنـت صديقها الوحيد، لذلـك يحزنني أن أرى هذه الصداقة تنتهي على هذا النحو..... مراد، أنا بصدق شـاكرة لك علـى عـدم تخليك عنها طـوال هذه المدة، خاصة أنه لا ينقصك الأصدقاء. أعدك بأني سأحمل لها هذه الرسالة، ولن أتركها حتى تقرأهـا. فيرجينيـا لن تجـد صديقًا مخلصًا مثلك؛ والصداقة تعني المسامحة."

شـكرها مراد على ما أبدته من مشـاعر طيبة نحوه، ثم انصرف. تمنـى فـي قـرارة قلبـه أن تنجح أليس فيما فشـل هو فيـه. كانت هذه هي محاولته الأخيرة، حيث لـم يعلم ما الذي بالإمكان أن يفعله بعد ذلـك. صداقـة فيرجينيـا أصبحـت تعني له الكثيـر الآن، خاصة بعدما أفصـح لهـا عـن سـره الـذي لم يبُح به لأي أحد بعـد أبيه. كانت هي الشـخص الوحيـد فـي هذا الكون الذي يمكـن أن يفهمه، لأنها مثله. وجودها في حياته كان بالنسبة إليه أمرًا مهمّاً، تمامًا مثل وجود سارة؛ فهي التي كانت تُشبع عقله، كإشباع سارة عاطفته. طريقه الذي اختار السير عليه، كان في حاجة إلى كلتيهما، كحاجة المرء إلى قدميه من أجل المضي قدمًا..... "ليتني اعترفت لها منذ اللّحظة الأولى!" أخذ يعاتـب نفسـه، ثـم يتسـاءل عمّـا كان يمكن أن يكون عليـه الحال لو أنه صارحها منذ البداية. لوهلة تمنى لو أنه كان بالإمكان العودة إلى الوراء، ثم فجأة أخذ يسـترجع مرة أخرى ما حدث له في برنسـتون، بعدما طُعن من ذلك الرجل صاحب البشـرة الداكنة. كان على حافة الموت قبل أن يجد نفسه قد عاد مرة أخرى إلى نقطة الإختيار! بقدر مـا حـاول أن يفهـم كيف ولِمَ حدث ما حدث، كان يزداد حيرة. هذه الحيرة جعلته يدرك كم هو في حاجة إلى شخص مثل فيرجينيا، لكي

تعينه على إزاحتها، ولعله حينئذٍ قد تنكشف عنه الغمة!

* * *

جاءه الاتصال المُرتقب من أليس بعد مضي يومين من لقائه معها. أخبرته بأنها بعد جهد جهيد، أقنعت فيرجينيا بقراءة الرسالة التي حمَّلها إياها، وبأنها ظلت وراء أختها حتى وافقت أخيرًا على لقائه.....

- "هل أنت مرتبط السبت القادم في الساعة السابعة مساءً؟" سألته، وقد ملأ صوتها الحماس لهذا الإنجاز العظيم مع أختها العنيدة!

- "لا، ليس لدي ارتباط."

- "إذًا اللقاء سيكون عندي في الشقة.... أراك حينئذٍ، ولا تنسَ الورد."

* * *

ذهب مراد في الموعد المحدد إلى شقة أليس بشارع بويلستون، وقد ملأه الحماس؛ فموافقة فيرجينيا على لقائه كانت تعني شيئًا واحدًا: أنها تريد إعطاءه فرصة لكي يعتذر لها وجهًا لوجه، حتى تسامحه! لم ينتظر هبوط المصعد، الذي كان لا يزال في الدور العلوي من العمارة، فذهب على الفور إلى الدرج وأخذ يقفز على سلالمه، حتى وصل إلى الطابق الخامس. ما إن وضع أصبعه على زر الجرس حتى فتحت أليس الباب راسمة على وجهها ابتسامة تملؤها السعادة على هذا الإنجاز العظيم الذي قامت به....

- "تفضل مراد، فيرجينا بالداخل تنتظرك."

- "شكرًا." أجابها قبل أن يدخل إلى الصالة، حاملًا معه باقة من

الزهور البيضاء.

- "مراد، فيرجينيا، أنا مضطرة إلى ترككما الآن، من أجل إنهاء بعض المشاوير المهمة. سوف أعود بعد ساعة؛ أرجو أن تكونا حينها قد صفَّيتما هذا الخلاف السخيف بينكما."

انتظر مراد حتى غادرت أليس، ثم اقترب من فيرجينيا مقدماً لها باقة الزهور، وبصوت يعلوه الندم قال:

- "آسف."

أخذت فيرجينيا منه الزهور بيدها اليسرى؛ ثم بيدها الأخرى، ومن غير مقدمات، هوت على خده بصفعة مدوية جعلته يتراجع مذهولًا إلى الوراء!

- "كان يجب عليك أن تصارحني منذ البداية! كان يجب أن تثق بي أيها الغبي!" صرخت في وجه مراد.

- "فيرجينيا، أرجوك.... فكِّري في الأمر قليلًا من غير انفعال.... كيف كنت سأصارحك بشيء مذهل يخصني قبل أن أتأكد منك. قبل أن أتأكد أنك لن تنعتيني بالجنون! أنت من دون كل البشر يجب أن تقدري هذا الأمر، خاصة أنك أخفيت سرك عن أليس وهي أختك! لماذا لم تخبريها عن قدراتك العجيبة؟ لأنك خشيت ألّا تفهم، أليس كذلك؟ أنا كذلك خشيت ألّا تتفهمي، ولكن عندما تأكدت أنك مثلي، صارحتك بكل شيء!"

شعر مراد بغصة في حلقه بسبب جملته الأخيرة، فهو لم يصارحها بكل شيء. لم يخبرها عن حادثة طعنه في برنستون، وما جرى له من بعدها.... لسبب ما شعر بأنه من الأفضل الآن على الأقل، أن يبقي هذا الأمر لنفسه.

- "ربما... ربما تكون محقّاً." أجابته بترددٍ أزعجها.....

- "ولكن هذا لا يعني أني لست غاضبة منك! ولا تحسب أن باقة من الزهور البيضاء ستجعلني أصفح عنك!"

- "وماذا عن عشاء لطيف في مطعمك المفضل بالبيير وان؟" سألها مستجديًا، وقد رسم على وجهه ابتسامة خجولة.

ظلت فيرجينا تنظر إليه برهة من الوقت؛ تتأمله بعينيها السوداوين، وكأنها كانت تتفحص رغبته الصادقة في الاعتذار؛ ثم فجأة أجابت عن ابتسامته بمثلها. ظن حينها مراد أنها أخيرًا قد صفحت عنه!

* * *

- "أي تقنية متقدمة لشخصٍ لا يفهمها هي أشبه بالسحر." قالت فيرجينيا لمراد في أثناء احتسائها النبيذ في مطعم الأسماك المطل على ميناء بوسطن...

- "هذه المقولة الشهيرة لأرثر سي كلارك خطرت على بالي، عندما بدأت أبحث لكي أفهم هذا التغير العجيب الذي طرأ علي. جعلتني أفكر، لو أن شخصًا ما مثلًا ذهب إلى قبيلة نائية تسكن أدغال الأمازون ولم تسمع بحضارتنا، ولم ترَ أي شيء ينتمي لها، وحاول هذا الرجل أن يشرح لها أن الناس في بلاده يركبون أسطوانة حديدية تطير بهم بين السحاب، لكي توصلهم من مكان إلى آخر، ماذا تعتقد سيظن أفراد تلك القبيلة؟ إما أن الرجل مخبول أو أنه جاء من بلاد يسكنها السحرة! تخيل لو أنه أخرج من جيبه مذياعًا صغيرًا، وجرّبه أمامهم، ماذا سيعتقدون؟ أن هذا الرجل ساحر عظيم لديه القدرة على حبس الأرواح في صندوقه الأسود!"

- "كلامك هذا يذكرني بقصة قرأتها عن الهاتف عندما دخل أول مرة في السعودية؛ بعض رجال الدين حرَّموا استخدامه بحجة أن لـه علاقـة بالجـن، لأنه يُصدر أصواتًـا لا يُرَى أصحابها!" أضاف مراد.

- "ومثـل هـذه القصـص كثيرة عبر التاريـخ، لذلك بدأت أبحث فـي المخطوطـات القديمة التـي صُنِّفت على أنها مجرد خرافات وأوهام. بحثت في الكثير منها، حتى وجدت في بعضها ما كنت أبحث عنه."

- "مثل مخطوطة جُلّاب."

- "بالضبط!"

- "أبي كان يفكر مثلك، ربما لأنه تأثر بواصل بن غيلان، حيث كانت لديه مقولة شبيهة بمقولة أرثر سي كلارك التي ذكرتِها قبل قليـل: المعجـزة هـي علـم لم يُكتشـف بعد." صمت مـراد قليلًا عندما تذكر أباه، ثم تابع حديثه....

- "هـذه العبـارة وغيرهـا ممـا أورده أبي في كتابه عن واصل بن غيلان، سببت له الكثير من المشاكل."

- "أنا آسفة مراد على ما حدث لأبيك. يبدو أنه كان رجلًا رائعًا." قالت فيرجينيا بصوت حنون، واضعة يدها على كفه.

- "نعـم، كان كذلـك، ولكنـه تزوج من المرأة الخطأ...." سـرح مـرة أخـرى قبـل أن يتمالك نفســه ويُكمل، موجهًـا دفّة الحديث إلى مساره الأول ....

- "ولكن ألم يلفت نظرك أن ما وصفه جُلّاب يكاد ينطبق علينا؟"

- "دون شـك لفت نظري هذا الأمر، وهذا ما كنت أبحث عنه لتأكيد نظريتي بأن ما حدث لي في الغالب قد حدث لغيري أيضًا، أو بمعنى أدق أنني لسـت الشـخص الوحيد في التاريخ البشـري الذي تمتع بمثل بهذه القدرات؛ ولكن يبقى السـؤال لماذا بعض الناس فقط هم من يمتلكونها؟ ما الذي يميزني أنا وأنت، والذين ذكرهم جُلّاب في كتابه، عن باقي البشر؟"
- "ما الذي يُميز موزارت أو بيكاسو أو أينشتاين؟ لعله استعداد جيني، أو موهبة ليس لها تفسير."
- "لا يوجد شيء بلا تفسير يا مراد، السؤال فقط هل نعلمه أم لا؟"
- "أتفـق معـك، ولكـن ألا تعتقديـن أن هناك أسـئلة أهـمّ، مثل: ما طبيعـة هـذه الأشـياء التي رأيناها؟ ولماذا كانـت تزيد من قدراتنا الذهنية؟ ثم لماذا انقطع نومنا، ولم نعد نرى تلك الرؤى؟ وغيرها من الأسئلة الكثيرة المحيرة."
- "دعني أخبرك عن تجربة أجريتها على نفسي منذ سنوات قبل أن ينقطـع عنـي النـوم. أنت تعلـم أن الأحلام التي يراها النائم تمَّت دراسـتها مـن قبـل بعـض الباحثين بقيـاس الموجـات الكهربائية الصادرة عن المخ؛ وقد تبين أن الحلم ينشـأ عبر موجة كهربائية تأتـي مـن جزع المخ، وتذهـب إلى الفص القذالي، مركز البصر، لذلـك الحالم يرى صورًا لأشـياء مختلفـة، وكذلك تكون اللوزة نشـطة، وهي مصدر الشـعور، ولذلك الحالم يشـعر بالخوف أو السـعادة، ويكـون أيضًـا مركـز الذاكـرة، الحصين، نشـطًا ولذلك عادة ما تكون الأحلام مبنية على ذكريات عاشـها الإنسـان. هذه

المسألة أُثبِتت عبر الكثير من التجارب، وهذا ما جعلني أجري التجربة على نفسي..... إن كان الذي أراه عندما أنام مجرد حلم، فسيطرأ على مخي النشاط الكهربائي نفسه الذي تم رصده على الآخرين....."

- "أنت عبقرية بحق يا فيرجينيا! فإن لم يُرصد أي نشاط كهربائي لمخك في أثناء النوم مما يتماشى مع نشاط الأحلام، في حين أنك في واقع الأمر رأيتِ تلك الرؤى أثناء نومك، فهذا إثبات بأن ما شاهدتِه لم يكن مجرد حلم، وأنه حدث بعيدًا عن جسدك! ما يعني أن النفس قد انفصلت عن الجسد، وذهبت إلى مكان آخر!"
- "وهذا بالضبط ما تبين لي، عندما نمت ورأيت تلك الرؤى، ولم يتم رصد أي نشاط كهربائي خاص بالأحلام! كررت هذه التجربة أكثر من مرة، وكانت النتيجة هي نفسها، لم تتغير!"
- "مذهل! بحق، هذا شيء مذهل! إذًا هذا دليل قاطع على أن تلك الأشياء لم تكن مجرد حلم.... الأمر أبعد بكثير من ذلك! بل هو كما حسبت من قبل؛ نحن ننفصل عن أجسادنا في أثناء النوم، وفي تلك الحالة العجيبة نستطيع رؤية العالم بشكل مختلف لا يحجبه الزمان أو المكان..... لعل هذا هو ما قصده جُلّاب بالعالم المحجوب..... العالم الذي لا يستطيع الشخص العادي أن يراه!"

بدا مراد في غاية الحماس لهذا الكشف العظيم.

- "هو كذلك بالفعل."
- "ولكن...." فجأة تحول مراد من حالة الحماس إلى الحيرة من جديد.....

- "ما الخطب؟ شيء يشغلك؟"

- "فيرجينيا.... أذكر أنه عندما كنت في تلك الحالة في أثناء النوم.... حالة الانفصال عن الجسد هذه.... كنت أذهب إلى أماكن مختلفة في الحاضر والماضي، والزمن كان يمرّ علي بشكل مختلف عن المعتاد؛ فمثلًا قد تمرّ علي سنوات وأنا في ذلك العالم، حتى أستيقظ فأكتشف أن الأمر برمته استغرق فقط ساعات النوم."

- "هذا أمر طبيعي، لأن الذي ينطبق على الحالة المادية مثل الجسد، لا ينطبق بالضرورة على الحالة المَوجية، سواءً سمّينا هذه الحالة: الطاقة البشرية أو الروح أو النفس أو أي مصطلح آخر تشاء. مراد، نحن نتحدث عن جانب آخر من الوجود، قلة من البشر عبر العصور هم من لامسوه!"

- "تتحدثين عن حالة مادية وحالة موجية كأنك تصفين الجسيمات دون الذرية؛ ولكن من المعروف أن هذه الخاصية هي للعالَم الذري فقط. قوانين فيزياء الكم لا تنطبق على الأجسام الأكبر."

- "مراد، كل شيء في هذا الكون، بما فيه أنا وأنت وهذا الكرسي وتلك النجوم في السماء، كلنا في نهاية المطاف مكونون من الشيء نفسه: الذرة وما تحتويه من جسيمات؛ والذي يحكمنا جميعًا في نهاية المطاف هو شيء واحد. قوانين فيزياء الكم هي جزء من الحقيقة وليست الحقيقة كلها. أنا وأنت لدينا فرصة عظيمة لكي نكتشف تلك الحقيقة الكُلِّيَّة!"

- "العلم الأعظم، كما سماه واصل بن غيلان، الذي مكّن آصف

بـن برخيـا مـن الإتيان بعرش بلقيـس." ردّد مراد بصوت خافت، وكأنه كان يُحَدِّث نفسه.

- "ماذا؟!" تساءلت فيرجينيا باستعجاب.

- "لا عليـكِ؛ تذكـرت عبـارة كان يرددهـا أبـي عـن واصـل بن غيلان.... هناك أمر آخر حيَّرني.... لا أدري، لعلّك وجدت له تفسيرًا هو أيضًا."

- "وما هو؟"

- "مسألة السيطرة على بعض الأفراد التي ظهرت بعد انقطاع النوم. إلى الآن لا أجد تفسيرًا لها؛ ولا لماذا بعض الناس فقط هم من يخضعون لتلك القدرة؟.... حاولت أن أجد رابطًا مشـتركًا عند هؤلاء مثل مستوى الذكاء أو التعليم، ولكني لم أجد."

عقـدت فيرجينيـا حاجبيهـا، مبديـة علامـة تعجـب لـم يتوقعهـا مراد....

- "عمّ تتحدث؟ أنت لديك قدرة السيطرة على الناس؟!"

- "ليس كل الناس...." تلعثم بعض الشيء وهو يجيبها، حيث حسب أنها تتمتع مثله بالقدرة نفسها، ولكن بدا له من ردّة فعلها أن الأمر خلاف ذلك.....

- "ألم تظهر عليك تلك القدرة؟"

لـم تجبـه فيرجينيـا في الحال عن سـؤاله، بل ظلـت تفكر قليلًا قبل أن تنطق....

- "لا يا مراد.... ليست لدي تلك القدرة."

- "أؤكد لك أني لم أحاول أو أفكر لحظة في أن.... في أن أسيطر عليك..." بادر على الفور لكي يزيل أي مخاوف خشي أنها قد تخطر على بالها.

- "لا أحد يستطيع السيطرة علي، مهما أوتي من قدرات!" قاطعته على الفور، ثم نظرت إلى ساعتها...

- "آسفة مراد، ولكني تذكرت أنه لدي موعد مهم بعد قليل. سأتصل بك غدًا لكي نكمل حديثنا.... إلى اللقاء." قامت فيرجينيا من على كرسيها، دون أن تمهله فرصة للرد عليها، ثم انصرفت على عجل، تاركة إياه في حالة من الذهول.... لوهلة خشي مراد أن يكون قد أغضبها من جديد!

* * *

اتصلت به في اليوم التالي كما وعدته، وطلبت منه أن يذهب إليها في منزلها لأمر مهم. لم تدع له أي مجال للاعتذار، حيث بدت مصرة على حضوره، فاستجاب لها مراد. كانت هذه أول مرة تدعوه فيها إلى منزلها الواقع في ضاحية نيوتن....

- "هناك شخص أثق به، أريدك أن تتعرف إليه." قالت له فيرجينيا وهي تقوده إلى صالة المنزل، حيث كان ينتظر رجل خمسيني بادر بالوقوف فور رؤيته، ماداً له يده بالمصافحة، وقد رسم على وجهه ابتسامة ترحيب....

- "مراد، أقدم لك وليام برمن، مدير داربا."

- "داربا؟" ردّد مراد.

- "مركز البحوث المتقدمة بوزارة الدفاع." أضاف الرجل موضحًا

لمراد الذي بدا دَهِشًا، وكأنه لم يسمع بداربا من قبل....

- "سعيد بلقائك. لقد سمعت عنك الكثير من فيرجينيا."

- "مراد، وليام هو بمنزلة أبي، ولقد ساعدني كثيرًا في حياتي. لولاه لما استطعت أن أجري الكثير من بحوثي كالّتي حدثتك عنها."

فجأة تذكر مراد أمرًا كان قد غاب عنه: ما ذكرته له سارة عن رؤيتها لفيرجينيا منذ مدة في منزل وزير الدفاع الأمريكي؛ مسألة كهذه بدأت تشعره بالقلق..... شعر وكأنه قد تورط في أمر ما كان يتمناه ولا يبتغيه!

- "لا أريدك أن تقلق من وجودي. أنا لست هنا بصفة رسمية، ولكن بصفة خاصة بناءً على طلب فيرجينيا."

- "وليام يعلم ما تعلمه عني، وقد أخبرته عنك أنت أيضًا، فوافق على اقتراحي بأن تشاركني في البحوث التي أجريها ويشرف هو عليها."

- "فيرجينيا، هل بالإمكان أن نتحدث قليلًا بمفردنا، بعد إذن السيد برمن."

استأذنت فيرجينيا من وليام، ثم أخذت مراد إلى حديقة منزلها الخلفية. ما إن شعر مراد بأنهما قد أصبحا بعيدًا عن مسامع مدير داربا حتى انفجر فيها.....

- "هل جننت؟! مركز البحوث المتقدمة بوزارة الدفاع الأمريكية!! لماذا لم تشاوريني في الأمر قبل أن تتخذي القرار بفضحي عنده؟!"

- "مراد اهدأ.... الأمر لا يحتاج إلى كل هذا... ألا تثق بي؟!"
- "أثق بك نعم، ولكن ليس في وزارة الدفاع!"
- "نحن في حاجة إلى إمكانيات داربا الكبيرة، إذا أردنا أن نتقدم، وإلّا فسنظل محلك سر. ألا ترغب في إيجاد الأجوبة عن جميع الأسئلة المحيرة حول قدراتنا؟ هذه هي أفضل وأسرع طريقة..... لو كان لديك حل آخر، فأرجوك أخبرني به!"

لم يعلم مراد بماذا يجيبها؛ فعلى الرغم من توجسه من فكرة أن يطَّلع على سره شخص لا يعرفه يترأس مركزًا ينتمي إلى وزارة الدفاع، حتى إن كان هذا المركز مختصّاً بالبحوث العلمية، إلّا أن المنطق الذي كانت تتحدث به فيرجينيا يحمل شيئًا من الوجاهة. ما هُما بصدده من بحث في مسائل شائكة، سيأخذهما في طريق لا توجد له معالم واضحة، وأي مساعدة تأتيهم حتمًا ستسهل عليهم السير في هذا الطريق.....

- "وما هو المقابل؟ بالتأكيد وليام هذا لن يساعدنا هكذا دون مقابل، هو ومركزه التابع لوزارة الدفاع."
- "فرصة الاطلاع على حقائق كونية ظلت مبهمة طوال تاريخ البشرية، هي أكبر مقابل يمكن أن تحصل عليه داربا..... مراد، عليك أن تدرك أن القائمين على داربا هم في نهاية المطاف علماء يرغبون في كشف أسرار هذا الكون الذي يعيشون فيه، مثلي ومثلك! أنا واثقة بأنك عندما تتعرف إلى وليام عن قرب، ستثق به تمامًا، كما تثق بي."
- "لا أريد أن أصبح فأر تجارب يا فيرجينيا!"

- "ومن قال إنك ستكون فأر تجارب؟! هذا أمر أنا لا أقبله لك أو لي! أنا وأنت اللذان سنقرر كل شيء يخصنا، وعلاقتنا ستكون مباشرة مع وليام الذي سيمدنا بكل ما نحتاج إليه من خلال داربا، ولكي أريحك أكثر، فسأكون أنا من في وجه المدفع، واسمك لن يظهر في أي أوراق رسمية."

- "فيرجينيا.... إن كنت سأوافق على عرضك، فهذا فقط لأني أثق بك، وأَعُدُّك أكثر من مجرد صديقة.... أنت أقرب شيء للأخت بالنسبة إلي."

اقتربت فيرجينيا من مراد، ثم ضمته إليها هامسة في أذنه.....

- "وأنت أيضًا أكثر من مجرد صديق. لو كان لدي أخ فلن تكون معزته أكبر من معزتي لك. ثق بأني لن أسمح لأي مكروه أن يصيبك."

ما إن فرغت من طمأنته، حتى قطعت عناقها له، وأمسكت برأسه ناظرة إلى عينيه بحماسة وشغف....

- "والآن عندي لك مفاجأة عظيمة، اعتبرها هدية مني ومن داربا.... ما رأيك في رحلة نخوضها سويّاً أنا وأنت إلى تلك العوالم المحجوبة؟!"

- "مستحيل بعد أن انقطع النوم عنّا، كما أننا لا نملك تلك القدرة الخارقة على الدخول في تلك العوالم في أثناء اليقظة!"

- "هناك طريقة أخرى يبدو أنك نسيتها." أضافت فيرجينيا راسمة على وجهها ابتسامة زهو.

- "تقصدين مسحوق الوسْكا؟! ولكن جُلّاب لم يصف مكوناته في كتابه."

لم ترد فيرجينيا عليه، ولكن نظرتها له المصحوبة بالابتسامة التي لم تنقطع كانت كافية لكي يفهم قصدها....

- "مهلاً، هل تريدين القول إنك استطعت التوصل إلى سر مكونات ذلك المسحوق؟!"

- "ألم أقل لك إن العمل مع داربا له فوائده! نعم مراد، لقد استطعنا إعادة إنتاج مسحوق الوسْكا، وتأكدت بنفسي أنه يعمل!"

* * *

شعور غريب انتاب مراد وهو ينظر إلى جسده الساكن بجوار جسد فيرجينيا داخل حجرة زجاجية بقبو أشبه بالمختبر في منزلها. دخان كثيف ملأ الحجرة الزجاجية المُعدة لمثل هذا الأمر، بحيث يخرج الدخان بمقدار محسوب من أنابيب التهوية ولمدة مُقدرة مسبقًا. تجربة الانفصال عن الجسد بتأثير الوسْكا كانت مختلفة إلى حد ما عن الانفصال في أثناء النوم. الوسْكا جعلته أقل تنبهًا، ربما لأنها كانت تجربته الأولى مع هذا المسحوق العجيب؛ فقد لاحظ أن فيرجينيا، على عكسه، كانت أكثر وعيًا وتمكنًا منه في هذه الحالة اللاجسدية. كانت تتصرف وكأنها تمارس حياتها اليومية، من غير تحفظ....

- "عندما تمت تجربة الوسْكا أول مرة، تطوع معي رجل من داربا. أردنا أن نرى التأثير علي ونقارنه مع شخص آخر عادي، إن صح التعبير. كان حالي في أول مرة كما هو حالك الآن، القليل من التوهان مع كامل الإدراك بالحالة اللاجسدية. الأمر احتاج معي إلى عدة رحلات، حتى أصبحت كما تراني اليوم. أما بالنسبة إلى ذلك الرجل المسكين الذي تطوع معي، فيكفي أن أقول إنه إلى

الآن محجوز في مصحة نفسية خاصة بداربا، يعاني من أعراض فصام حاد."

- "ماذا؟!"

- "الوشكا ليست لكل أحد. مع مثلي ومثلك هي تفتح آفاقًا جديدة، ولكن مع الآخرين فالأمر مختلف؛ هذا ما اكتشفناه، تصديقًا لما ورد في مخطوطة جُلّاب."

بدأت تختفي معالم القبو من حولهما، مع ظهور مشـهد جديد أقل حداثة، وكأنهما انتقلا إلى زمن قديم، بمكان آخر غير الذي كانا فيه قبل قليل.....

خيمة كبيرة ودخان كثيف. يتوسط المكان رجل غريب المظهر ذو ملامح آسـيوية حادة. عيناه لا ترمشـان، وكأنهما في حالة ذهول مسـتمر. جلـس الرجـل متربعًـا دون حركة، وما هي إلّا لحظات حتى أدرك مراد أنه مثلهما، في حالة انفصال جسـدي. تأكد له ذلك الأمر عندمـا شـاهد طيفـه يحـوم حوله في الخيمة. فجـأة تنبه مراد لأمر لم يخطر على باله من قبل؛ ففي هذه الحالة اللاجسـدية، كل نفس لها ملامح طيفية تميزها، كما تتميز الأجساد بملامحها المادية؛ بل إن هذا الطيف يحمل شبهًا ما بالجسد الذي خرج منه بطريقة لم يفهمها، وإن تنبه لها الآن مع رؤيته لفيرجينيا في الحالة اللاجسدية، ولذلك الرجل صاحب الخيمة. في المرات السابقة كان مراد ينفصل عن جسده في حالة النوم بمفرده؛ أما هذه المرة، فوجود آخرين مثله معه، مكّنه من ملاحظة هذه الأمور.

- "أراكِ عدتِ، ولكن ليس بمفردك هذه المرة." قال الرجل مخاطبًا فيرجينيا بلغة غريبة، وإن بدت مفهومة لمراد.

- "هذا هو مراد قطز الذي حدثتك عنه من قبل."

تعجّب مراد من جملة فيرجينيا.... فمن هذا الرجل؟ ولماذا حدثته عنه؟!

- "مراد، اسمح لي بأن أقدم لك تبتنكر العظيم."

تبتنكر؟؟ بدا له هذا الاسم مألوفًا.... لقد سمع به من قبل، ولكن أين؟ ثم فجأة تذكر أين مر عليه اسم تبتنكر..... ذكَره جُلّاب في مخطوطته، عندما تحدث عن أهل الكشف!

"كيف استطاعت فيرجينيا التوصل إليه؟" أخذ مراد يتساءل، "وهل بإمكانها التنقل إلى حيثما تشاء في هذه الحالة اللاجسدية؟!.... ما الذي بإمكانها فعله أيضًا يا ترى؟!"

- "قطز؟؟ من أين اكتسبت هذا الاسم المغولي؟" كان سؤال تبتنكر موجهًا هذه المرة لرفيق فيرجينيا.

تردد مراد، فلم يعلم بماذا يجيبه.... السؤال بدا له غريبًا كحال المكان الذي من حوله.

- "هو نسبة إلى...." ما كاد يكمل جملته حتى شعر بهالة نور تملأ الخيمة، ثم انطفأ طيف تبتنكر عائداً إلى جسده. لم يفهم مراد في بادئ الأمر ما الذي كان يحدث، ولكن سرعان ما تبين له الأمر عندما رأى جسد الكاهن يقوم من موضعه صارخًا في وجه فتاة صغيرة دخلت عليه في الخيمة خلسة!

بقدر ما كانت تلك الفتاة مرعوبة من صراخ الكاهن، إلّا أن هذا لم يكن شيئًا بالمقارنة مع ما انتابها من فزع، عندما رأت ذلك الطيف الداكن الذي كان يحوم في الخيمة! تنبه مراد حينها إلى أن هذه الفتاة الصغيرة كان بمقدورها رؤيته!

اختفت معالم المكان في الحال.... لم تعد هناك الخيمة، ولا الفتاة، ولا حتى تبتنكر؛ فقط مراد وفيرجينيا في القبو من جديد، داخل جسديهما.

* * *

أسئلة كثيرة خطرت على بال مراد، فاحتار بأي سؤال يبدأ..... أراد أن يفهم كيف استطاعت فيرجينيا أن تتحكم في الزمان والمكان اللذين ذهبت إليهما؟ أهذه خاصية من خصائص الوسكا أم أن الأمر لا علاقة له بذلك المسحوق؟ في المرات السابقة التي انفصل فيها مراد عن جسده في أثناء النوم، كان يجد نفسه أشبه براكب خلفي في عربة لا يتحكم في مقودها، يتنقل ما بين الأماكن والأزمنة دون أن يكون له القدرة على الاختيار؛ لم يدرك حتى تلك اللحظة، أن الأمر قد يكون خلاف ذلك! حاول أن يفهم من فيرجينيا كيف استطاعت أن تتحكم في انتقالهما إلى حيثما أرادت، ولكنها لم تُشبع فضوله بإجابة شافية، واكتفت فقط بالتأكيد أن هذه مهارة سيتعلمها مع الوقت.....

- "وماذا عن تبتنكر هذا؟ لماذا اخترت أن نذهب إليه؟ ولماذا ذَكَرتِني عنده؟"
- "مرادا" قاطعت فيرجينيا أسئلته التي ظلت تنهمر عليها....
- "أعلم أن لديك أسئلة كثيرة بعد هذه التجربة الرائعة التي خضناها سويّاً، ولكن..."
- "لن أقبل بلكن.... نعم فيرجينيا، لن أقبل بكلمة لكن بعد الآن منك! أريد أن أفهم كل شيء إن رغبت في أن أظل شريكًا لك في هذه التجربة العجيبة! كل شيء فيرجينيا... كل شيء!"

- "ولكنّ هناك أمورًا أنا نفسي لا أفهمها بعد، فكيف أشرحها لك."
أجابته بتردد.

- "ولكنك حتمًا تعلمين من هو تبتنكر الذي نَعَتِّه بالعظيم؟ أليس كذلك؟"

- "تبتنكر كاهن اشتهر بقدراته التي لم يصل إليها أحد غيره من كهنة سهول آسيا، عاش في القرن الثالث عشر، وكان كبير كهنة جنكيز خان."

- "ولماذا هو دون عن غيره؟"

- "لا أدري، ربما لأن جُلّاب ذكره في كتابه. عندما استخدمت الوسكا أول مرة، خطر على بالي، فوجدتني أذهب إليه."

- "هل معنى ذلك أنه بالإمكان الذهاب إلى أي مكان يخطر على البال؟!"

- "مراد.... الأمر ليس بهذه السهولة؛ بل هو أشبه بالسير ليلًا في طريق شبه مظلم، مستعينًا فقط بضوء النجوم. مع الوقت ستتأقلم العين مع هذا الظلام، وشيئًا فشيئًا ستستطيع رؤية المنعطفات."

- "وتبتنكر كان أول منعطف تأخذيه؟"

- "ما خطبك يا مراد؟! كأنك تحقق معي؟!"

فوجئ مراد من رد فيرجينيا الغاضب على سؤاله الأخير، خاصة أنه لم يقصد به الإساءة أو التشكيك؛ فقط أراد أن يفهم.... ولكنه أدرك بأنها قد تكون هي نفسها حائرة مثله وأكثر ممّا كان يحدث لهما، فالأمر ليس بالهيِّن؛ والذي كان يزيد المسألة تعقيدًا، أنه لا توجد

حدود واضحة لما يمكن أن تصل إليه قدراتهما، بل قد تكون قدرات كل واحد منهما متفاوتة.... لم ينسَ كيف أنها فوجئت عندما أخبرها عن قدرته في السيطرة على تصرفات بعض الأفراد عن طريق الإرادة. لعلها هي الأخرى لديها قدرات تخصها، ولكن لم تخبره عنها، فكل إنسان لديه أسراره؛ أولم يخفِ هو عنها ما حدث له في الليلة التي قُتل فيها؟! لم يخبرها عن تلك الحادثة، ولا عن عودته إلى الحياة عبر نقطة الاختيار!.... "نعم، فكلٌّ لديه أسراره." أخذ مراد يفكر، "ولكن لا أظن أن هناك سرّاً أعظم من سرّي!" هكذا حسب....

* * *

عندما تَلَقّى مراد اتصالًا من سارة لكي تخبره بأنها في المدينة، وستمره الليلة في شقته، شعر بمزيج من السعادة لأنه سيراها بعد غيبة طالت، والحزن لإدراكه أنه بعد بضعة أشهر سينتهي العام الدراسي الحالي وسيتخرج ناصر، ولن تكون هناك حجة قوية لكي تبرر بها سارة مجيئها المتكرر لبوسطن. في قرارة نفسه كان على يقين أن المدة الزمنية بين اللقاء والآخر ستطول، ما يعني أن جرعة العاطفة التي كان يعيش عليها ستقل وقد تصبح شحيحة.....

ظل يفكر في حلول لمعضلة غياب سارة، في أثناء سيره على قدميه في شارع نيوبيري، عندما لمح شخصًا لم يَرَه منذ أكثر من عام....

- "بروفسور فريدمان، ما هذه المصادفة اللطيفة."

كان آل فريدمان على وشك دخول أحد المطاعم، عندما توقف قليلاً ليصافح الشاب الآسيوي الذي بدا له وجهه مألوفًا....

- "أنا مراد قطز، كنت قد مررت عليك في مكتبك ببرنستون منذ مدة لكي أسألك عن...."

- "آه.... نعم، تذكرتك. أنت طالب ما قبل الطب، السعودي."
- "في الواقع لم أعد طالب ما قبل الطب. أنا الآن في أولى طب بجامعة هارفارد." صحّح مراد.
- "طب هارفرد.... هذا شيء مبهر. أنا سعيد من أجلك."
- "آسف لو كنت قد عطلتك، فقط أردت أن أسلم عليك، وأشكرك لأنك كنت أول من ذكر لي اسم فيرجينيا تبت، التي أصبحت الآن من أعز أصدقائي."
- "كيف حال فيرجينيا؟ حاولت الاتصال بها عندما قدمت إلى بوسطن، ولكني لم أفلح في العثور عليها. كم وحشتني تلك الفتاة المشاكسة!" صمت آل فريدمان قليلًا ليسترجع من ذاكرته أمرًا...
- "هل تعلم أن آخر مرة تحدثت فيها معها كانت في اليوم نفسه الذي التقيتك فيه.... حتى، إن لم تخنّي الذاكرة، سألتني حينها عنك."
- "تقصد أنك ذكَرتني لها، فسألتك عني؟" استفسر مراد، مستعجبًا من هذه المعلومة التي لم تذكرها له فيرجينيا، وكأنها نسيتها.
- "لا، بل هي التي ذكرتك أولا.... لا أذكر الآن ما المناسبة، ولكني فهمت منها حينها أنكما صديقان، فأخبرتها بأنك توّاً قد خرجت من مكتبي، بل حتى مازحتها قائلًا إنكَ ربما قد تكون الشخص الوحيد الذي أراه يصلح صديقًا لها."

صعق مراد مما سمعه من آل فريدمان! لوهلة ظن أنه ربما قد اختلط عليه الأمر، ولكن التفاصيل التي ذكرها، كانت تنم عن غير

ذلك! مستحيل! كيف كانت تعرفه وقتها، وهو لم يَلْقَها إلّا بعد ذلك بأشهر عدة؟! عندما قدم نفسه لها في أثناء ممارسة الركض، لم تظهر أي معرفة به؛ بل حتى بعد ذلك عندما صارحها بأنه كان على دراية بها قبل ذلك اللقاء، فوجئت من تلك المعلومة، وغضبت منه! إذًا كيف كانت تعرفه على حد قول آل فريدمان؟! إن صدق الرجل، فهذا معناه شيء واحد... مستحيل!..... هل كانت فيرجينيا تبت تخدعه طوال هذا الوقت؟! ولكن لماذا؟!!

* * *

- "مراد، إيش اللي يِخَلّي وحدة زي فيرجينيا تتآمر عليك؟ تَراك مَسَّخْتها يا بعد عمري." أجابته سارة، بعدما حكى لها عن لقائه العابر مع آل فريدمان، وما دار بينهما من حديث......
- "الرجل أكيد لَخْبَط بينك وبين أحد ثاني."
- "مستحيل؟! كلامه كان واضحْ ودقيقْ..... أنا واثق من اللي قاله." أصر مراد، ثم أمسك بكتفي عشيقته التي لم تحاول إخفاء نظرات الشك لما كانت تسمعه من نظرية مؤامرة بدت لها في غاية الغرابة....
- "اسمعيني ساره، أنا أحتاج منك خدمة."
- "سَمْ."
- "أحتاجك تعرفيلي من صديق زوجك اللي تربطه علاقة بوزير الدفاع.... هذاك اللي قابَلْتُه معاك في القهوة...."
- "تقصد دان سيمنز؟" قاطعته سارة، وقد بدا عليها عدم الارتياح من مسار الحديث.

- "إيـوَه هـو.... أبغـاه يسـألي عن فيرجينيا وعـن علاقتها بداربا من صديقه وزير الدفاع."

- "مراد أنت صاحي؟! كيف أطلب منه هذا الشيء؟! حبيبي ترى أنا واثقة بأن المسألة في غاية البساطة....."

- "المسألة ما هي في غاية البساطة!" صرخ مراد في وجهها.....

- "المسألة أعقد بكثير مما تتخيلي! أعقد بكثير مما يتخيل كل الناس! لو حكيتك الحقيقة حتحسبيني مجنونْ أو مخبولْ!"

- "لا تقول كده يا بعد عمري.... أنا لا يمكن أحسبك مخبولْ مهمـا قلـت؛ بـس يا ريتك تِفَهِّمني إيش اللي صاير علشـان أقدر أساعدك."

بعد تردد واضح، قرر مراد أن الوقت قد أزف لكي يخبر سارة بحقيقته. لم يرغب في إبقاء أي سـر بينه وبينها. كان يدرك جيدًا أن ما سيقوله لها صعب التصديق، ولكن ثقته بحب سارة له، واستعدادها أن تتقبل أي شـيء منه مهما بدا غريبًا، جعلته يفصح لها بكل شـيء منذ البداية وبكامل التفاصيل، مسـتثنيًا فقط حادثة قتله في برنسـتون وعودته إلى الحياة، التي إلى الآن تشكل له لغزًا كبيرًا مُحَيّرًا لم يفهمه بعد، ولم يفهم كيفية حدوثه....

- "مـراد! اللـي أنـت بتقولـه هذا مسـتحيل!" كان أول ردة فعلها على ما سمعته....

- "أنت شكلك تعبان.... أنا بِجِد خايفة عليك."

- "أنا عارف أن المسألة أغرب من الخيال، لكن صدقيني هي هذه الحقيقة. أنا ماني تعبان ولا بَخَرِّف."

- "طب وعلى فرض أن كلامك صحيح، كيف عرفت فيرجينيا عنك وأنت كنت لِسّاعك في برنستون؟ إيش اللي درّاها بيك؟"
- "ماني عارف؛ علشان كده حبيتك تسأليلي دان عن حقيقة داربا وعلاقة فيرجينيا بيها، من غير ما أحد تاني يعرف."
- "مراد، الموضوع هذا...." ما كادت تبدأ حتى قاطعها رنين هاتفها المحمول. نظرت إلى شاشته الصغيرة، ثم على الفور إلى مراد....
- "هذا غانم، لحظة مراد...." انتظرت لحظة قبل أن تجيب على المحمول....
- "هلا يا بعد عمري، كيفك؟"

لم تزح سارة نظرها من على عشيقها في أثناء استماعها إلى زوجها على الجانب الآخر من الهاتف....

- "لكني تَوي واصلة لبوسطن، ما لحقت أشوف ناصر وأجلس معاه....."
- "....."
- "حاضر، ما يكون إلّا الخير.... باي." لم تكن سارة سعيدة بما دار من حوار. ظهر ذلك جليّاً على ملامحها التي ازدادت قتامة.
- "خير؟ إيش في؟!" تساءل مراد بقلق.
- "غانم يبيني أجيه في الرياض. يقول باكر حتكون الطيارة جاهزة."
- "غريبة.... ما قال لك ليش يبغاك تجيه؟ أنتِ تَوّك واصلة!"

- "كل اللي قاله أنه يبيني ضروري."
- "طب إيش ناوية تسوي؟"
- "يعني إيش بيَدّي أسوي يا مراد! طبعًا لازم أرجع الرياض!" أجابته بنبرة غاضبة، ثم سرعان ما هدأت، واعتذرت له عبر عناقٍ حار.....
- "مَعَليه، أعصابي شوية فَلْتانة من اللي سمعته منك قبل قليل، والآن هذا الطلب المفاجئ من غانم بأني أرجع الرياض..... خلينا أحسن نأجل باقي الحوار إلين ما أرجع بوسطن تاني.... أكون كمان فكرت في اللي طلبته مني."

لم تمهل سارة مراد فرصة للاعتراض أو الاستفسار، واكتفت بتقبيله على خده، ثم انصرفت من الشقة. لم يحاول مراد اللحاق بها، بل تركها تفعل ما تشاء، وقد شعر بأنها لم ترغب في البقاء. أرادها أن تأخذ وقتها لكي تهضم ما سمعته منه، فالأمر لم يكن بأي حالٍ من الأحوال بالهيِّن..... لوهلة تمنى لو أنه لم يخبرها بأي شيء..... لو أنه لم يقحمها في مشاكله؛ ثم فجأة، ومن غير مقدمات، انتابه شعور غريب بأنه قد لا يراها مرة أخرى!

* * *

لم يذهب مراد في اليوم التالي إلى الجامعة، واكتفى بالمكوث في مقهاه المفضل بشارع نيوبيري. ظل يفكر في خطوته المقبلة مع فيرجينيا، فمنذ مقابلته مع آل فريدمان، وهو لم يَلْقَها أو يتحدث معها عبر الهاتف. فكّر في أن يواجهها بما قاله له آل فريدمان، ثم عدل عن هذه الفكرة، وفضّل الانتظار حتى يرى ما إن كانت ساره ستسأل دان سيمنز عن حقيقة فيرجينيا .وداربا. كلما فكّر في السرعة الكبيرة التي

تواترت بها الأحداث، شعر بريبة وتَوَجس؛ فشيء ما لم يكن على ما يرام.... لأول مرة بدأ يتساءل إن كانت فيرجينيا على دراية مسبقة بحقيقته، عندما أفصحت له عن حقيقتها؟ هل كانت تبحث عن شخص مثلها يشاركها همّ البحث عن الحقيقة؟ عن أجوبة لأسئلة محيرة؟ أم أن الأمر كان يحمل أبعادًا أكثر خطورة؟!

ظل مراد على حاله دون أن يلتفت لمرور الوقت؛ ما يكاد يفرغ من فنجان قهوة حتى يحتسي غيره، إلى أن لمح خبرًا عاجلًا ظهر على شاشة التلفاز. كل من كان في المقهى أخذ يلتفت إلى الشاشة المعلقة في أعلى الحائط، في حالة من الذهول لهول الخبر الذي كان يعلنه المذيع. لم يصدق مراد ما كان يراه ماثلًا أمامه، وعلى الفور طلب من النادل أن يرفع صوت التلفاز أكثر ممّا كان مرتفعًا، وكأنه أراد أن يتأكد مما سمعه بشكل واضح!

- "مستحيل!" أخذ يردد المرة تلو الأخرى، فلا يمكن أن يكون ما حدث قد حدث! لم يرغب في التصديق، بل لوهلة ظن أنه ربما أساء قراءة الخبر المكتوب على شاشة التلفاز، أو ربما لم يسمع ما قالته المذيعة بشكل جيد! ولكن حالة النكران هذه لم تدم طويلًا، إذ سرعان ما ظهرت صورتها الجميلة متوسطة الشاشة الكبيرة وتحتها نص الخبر العاجل:

مقتل سارة القويت زوجة الملياردير السعودي غانم الساعدي في حادث انفجار طائرتها الخاصة أثناء تحليقها في الأجواء فوق المحيط الأطلسي بالقرب من الساحل الأمريكي الشرقي!

* * *

خمور الدنيا لم تكن كافية لكي تنسيه تلك الحقيقة التي لم يعد هناك مفرٌّ منها: سارة لم تعد جزءاً من عالمه المجنون!.....

فـي لحظـة خبيثـة، خُطِفـت منه كما خُطِف أبـوه من قبل، وكأن الكون كان يقايضه، فكلما اعطاه شيئًا أخذ منه شيئاً آخر! شعر برغبة ملحة في أن يلوم أحدًا على خطف سارة منه، كما لام أمه وآل ذكري على خطف أبيه! ولكن من؟! فلم يعرف بعد إن كان انفجار الطائرة ناتجًـا عـن خلـل فنـي أم عمل إرهابي، وإن كانت ترجيحات وسـائل الإعلام أنه خلل في الطائرة؛ فما الذي يجعل أي منظمة إرهابية ترغب في تفجير طائرة على متنها سارة القويت؟ وكأن وسائل الإعلام تلك أرادت القول إن سارة القويت لم تكن هدفًا ذا قيمة لأي أحد، حتى يحاول قتلها!

ظل يسـير في شـارع نيوبيري، حيث شـقة ناصر أخيها، المكان الـذي التقاهـا فيـه أول مـرة. لم تمضِ سـنة على ذلـك اللقاء، ولكنه شعر وكأنه كان يعرفها منذ أن خُلق الزمن. هي دون أي مخلوق آخر كانت تجعله يشعر بالراحة والأمان. نظرتها له كانت كفيلة بأن تجعله ينسى العالم بأسره، ويكتفي بوجودها بجانبه ولو للحظات قليلة قبل أن تعـود إلـى عالمهـا البعيـد؛ وعلى الرغم من إدراكـه حينها أنها لن تكـون لـه كاملـة فـي يوم من الأيام، كما أخبرته هي أكثر من مرة، إلّا أن اللحظـات القليلـة التـي كانت تأتيه خلسـة كانت تعوضه عن ذلك الحرمان؛ ولكن الآن، حتى هذه اللحظات البسيطة لم تعد متاحة له! وكأن هذا الكون يتآمر عليه، لكي يحرمه من أي شـيء يحبه، أو أي شيء يريده!

* * *

عـاد إلـى شـقته في صباح اليوم التالـي، بعد أن طاف على عدد من النوادي الليلية والخمّارات، بحثًا عن مشـروب غير موجود قادر على إسكاره. عقله كان غير قابل للخضوع حتى لأعتى المُسكرات.

النسيان لم يكن يشكل خيارًا له.... لكم تمنى في تلك اللحظات لو أنه مثل باقي الخلق، قابل للنسيان؛ لو أن كأسًا مليئًا بالفودكا باستطاعته محو آلامه.... وجعله ينسى فقدان سارة....

فتح باب الشقة، منتكس الرأس، غارقًا في محيطه الخاص من الأحزان. لم يتنبه، وهو في هذه الحالة المزرية إلى المقعد الواقع في الجانب الأيسر من الصالة، الذي لم يكن خاليًا كما هو المفترض أن يكون في شقة لا يسكنها غيره....

- "بعد عدة ساعات من الانتظار، كدت أظن أني أخطأت في الشقة."

التفت مراد إلى مصدر الصوت الذي فاجأه! وجهه لم يكن غريبًا....

- "من أنت؟! وماذا تفعل هنا في شقتي؟!"

تذكر أين رآه.... هو الرجل نفسه الذي صادفه في حديقة كينيدي في اليوم الذي تعرف فيه إلى فيرجينيا!

- "أنا من طرف فيرجينيا تبت. أريدك أن تأتي معي بهدوء، حتى نتفادى ما قد لا تُحمد عقباه." أجابه الرجل بنبرة باردة.

- "فلتذهب أنت وفيرجينيا إلى الجحيم! اخرج من داري، فالويل لك إن اقتربت مني بعد ذلك!" صرخ مراد في وجهه.

- "بداية ليست جيدة. يبدو أني سأضطر إلى أسلوب آخر."

ما إن فرغ الرجل من جملته حتى شعر مراد بضربة في مؤخرة رأسه من شخص آخر لم ينتبه لوجوده في الشقة.... كل شيء من حوله تحول بعدها إلى ظلام....

* * *

- "تمنيت ألّا تصل الأمور إلى هذا الحد، ولكن في أحيان كثيرة قد يضطر المرء إلى أن يتخذ قرارًا صعبًا لو تبين له أنه القرار الصحيح، وهذه هي عين الحكمة والشجاعة."

استفاق مراد من غيبوبته على كلمات فيرجينيا، وقد شعر بثقل في رأسه. بضع ثوان مرت قبل أن يدرك أنه مقيد في القبو نفسه الذي كان فيه قبل أيام مع صديقته التي تحولت بين عشية وضحاها إلى ألد خصومه!

- "ما معنى هذا؟!" كان أول شيء ينطق به.
- "يؤسفني أن أخبرك بأنك بعد لحظات سوف تلحق بعشيقتك سارة.... ما كان يجب عليك إخبارها بأي شيء. رغبتك في مصارحتها من منطلق حبك لها، هي التي أودت بحياتها، وإلّا فهي لم تكن في الحسبان على الإطلاق. في اللحظة التي قصصت لها كل شيء عني وعنك، أصبحت قنبلة موقوتة، وكان يجب نزع فتيلها."
- "ماذا تقولين؟! هل لك يد فيما جرى لسارة؟!" لم يصدق في بادئ الأمر ما كانت تشير إليه فيرجينيا.
- "أرجوك، لا تقل لي إنك ممن يؤمنون بالمصادفات؟!"
- "أيتها السافلة الحقيرة! أنت من تسبب في تفجير طائرتها؟!! سأقتلك! بل سأمزقك قِطَعًا، وأرميك للكلاب!!"

ضحكت فيرجينيا بعد سماعها لتهديدات مراد، ثم قالت:

- "يبدو أن الضربة التي تلقيتها في مؤخرة رأسك قد أفقدتك القدرة على الإدراك... مراد أنا من أمسك بالمسدس، وأنت المقيد هنا."

- "لماذا؟! لماذا خدعتِني وتقربت مني؟!"

- "للسبب نفسه الذي جعلك تحاول خداعي في أول الأمر، وتتقرب مني..... المعرفة يا مراد، إنها المعرفة! هل حقّاً ظننت أن ذكاءك العجيب الذي مكنك من الدخول إلى جامعة برنستون وإنهاء متطلبات القبول بكلية الطب في سنة واحدة في حين أنه يستغرق أذكى طلاب تلك الجامعة العريقة أربع سنوات، لن يلفت الأنظار. داربا كانت تراقبك منذ حصولك على أعلى درجة في اختبارات السات وأنت في جدة. ولكنها في بادئ الأمر كانت مراقبة روتينية، كما تراقب أي شخص بالغ الذكاء قد يصبح في يوم من الأيام مخترعًا عظيمًا أو باحثًا فذّاً فتحاول استقطابه للعمل معها. الأمر تغير، وأخذ بعدًا جديدًا تمامًا، عندما اكتشفتَ بطريقة عجيبة في النادي الليلي ببرنستون ذلك القاتل المأجور الذي تعاقد معه وجيه ذكري، شقيق عشيقتك الأولى سوسن، عن طريق شركة بلاك تمبل الأمنية. كيف استطعت أن تكتشفه بهذه السهولة مع أن عميل داربا المكلف بمراقبتك لم يتنبه له، حتى رآك تواجهه؟ هنا بدأت الشكوك تحوم حول حقيقة قدراتك، وتم إخطار مدير داربا وليام برمن الذي يتولى متابعة هذه الحالات بنفسه..... هل من المعقول أن تكون أنت أيضًا من أصحاب القدرات الخاصة مثلي؟! أخذ يتساءل. في بادئ الأمر لم يرغب في إخطاري، ولكنه غيّر رأيه عندما ذهبتَ إلى آل فريدمان الذي أجرى معي بحوثاً عدة تخص داربا. أراد أن يعلم ما الذي دار بينكما من حديث، وهنا أصبحت أنا في الصورة، وعلمتُ بوجودك. طبعًا شكوكي حولك تأكدت بما لا يدع مجالًا للشك، عندما ذهبتَ بعد ذلك إلى مكتبة جامعة هارفارد، وسألتَ

عن مخطوطة جُلّاب. فكّرنا حينها أنا ووليام في الطريقة المثلى للتواصـل معـك من أجل اكتشـاف حقيقة قدراتك، وتناقشـنا في السـيناريوهات المختلفة الممكنة، ولكنك فاجأتني عندما ظهرت ذلـك اليـوم فـي حديقة كينيدي.... بالمناسـبة ذلك الرجل الذي تحـدث معـك هـو العميل المكلـف بحمايتـي، أراد حينها التأكد مـن هويّتـك..... عندما اقتربـت مني بعد ذلك في أثناء الركض، وتحدثت معي متظاهرًا بأنك لا تعرف من أكون، تماشيتُ معك في الأكذوبة؛ بصراحة لقد وفّرت علي جهد التعرف إليك!"

- "أنت ممثلة بارعة! تستحقين جائزة الأوسكار عن الدور الذي أدّيتِه معي!!"

- "أرجوك مراد، كف عن أداء دور الفتى البريء. ما فعلته معك لا يختلف كثيرًا عمّا كنت تنوي فعله معي، ولكن الفرق بيننا أنك ما زلت قابلًا لأن تقع تحت تأثير العاطفة، ولذلك استطعت السيطرة عليك..... بالمناسبة، ولو أن هذه المعلومة لن تفيدك الآن، السر وراء القدرة على السـيطرة على الآخرين هو أن تجعلهم يرغبون في أن تُسـيطر عليهم؛ أمر مدهش أليس كذلك؟! والأعجب أن العامة من الناس ترغب بشكل أو بآخر، سواءً اعترفت بذلك أم لا، فـي أن تقـع تحـت سـيطرة الآخرين حتى ترمي عليهم تبعات اتخاذ القرار. لماذا؟ قد تتساءل؛ الجواب بسيط جدّاً: لأن أصعب شيء في الوجود هو الاختيار."

- "كان بإمكانـك أن تختـاري عـدم خداعـي! عـدم قتـل سـارة! والآن، عدم قتلي!"

- "قتل سارة يقع عليك وليس علي، فكما قلت لك من قبل، أنت

الـذي اختـرت قتلها بإفصاحك لها عن كل شـيء، وجعلها تطَّلع علـى أمـور مـا كان ينبغـي لها أن تعلمهـا. أمّا قتلك، فهذا أمر لا بد منه. أنت خطر يا مراد، بل قنبلة موقوتة! صدقني، فكرت في جميـع الاحتمـالات، بـل حتى أخذتك لتبتنكر للمزيد من التأكد، ولكن...."

- "تبتنكر؟" قاطعها مراد متسائلا..... لم يفهم ما شأنه في الأمر كله.

- "يا إلهي يا مراد، أنت إلى الآن لم تدرك ما الذي يحدث من حولـك!.... دعنـي أخبـرك عـن أمر طريف. عندمـا هاجر جدي منـذ مئـة عـام إلـى أمريـكا، هـل تعلم ما أول شـيء فعلتـه إدارة الهجـرة؟ قامـت باختصـار لقـب العائلـة لأنه كان صعـب النطق عليهـم.... الأمريـكان!! لا يفقهـون أي شـيء خـارج محيطهم! هل تود تخمين لقب عائلتي، قبل أن يُختصر، ماذا كان؟"

- "تبتنكر! أنت من سلالته؟!" وكأنه قد تلقى صفعة على خده، فجعلته يدور حول نفسه..... كيف لم ينتبه لهذا الأمر من قبل؟! ولكن ما شأنه بتبتنكر هذا؟!

- "يبدو وكأن الإنسان في اللحظة التي يواجه فيها موته، تتفتح حواسه...."

- "ماذا عن أليس؟ هل شاركتك اللعبة هي الأخرى؟" قاطعها مرة أخرى.

- "مراد، أسئلتك أصبحت كثيرة. بماذا ستفيدك الآن الأجوبة عنها؟ ولكن على أي حال لا، ليس لديها أي علم بكل هذا؛ مثلها مثل

عامة الناس. أسرار تبتنكر العظيم لا تُفصح إلّا لمن ورث قدراته فقط. هي مثلك يا مراد، تجهل الكثير عن نسبها.... شيء مؤسف أَلَيس كذلك؟ أن يعيش الإنسـان ويموت دون أن يدرك حقيقته، ودون أن يدرك أي شـيء عن أصله. الذي لا يسـأل عن ماضيه، محتـوم عليـه أن يكـرر أخطـاء أجداده نفسـها، وأنت لا تعلـم أي شيء عن ماضيك. أنت لا تعلم حتى ماذا يعني اسمك: قطز!"

صوبت فيرجينيا المسـدس الذي كانت تحمله نحو صدر مراد، ثم اقتربت منه....

- "صدقني، أنا لا أحمل لك أي ضغينة، بل بشكل عجيب أكاد أكـنّ لـك التقديـر علـى قدراتك التي تفوق قـدرات عامة الناس، ولذلك رفضتُ أن يقوم أي شـخص غيري بالضغط على الزناد؛ فمثلك لا يسـتحق أن يُقتل على يد إنسـان عادي. أرجو أن تَعُدّ قتلي لك بنفسي هو شكل من أشكال التقدير."

ما إن فرغت من جملتها، حتى أطلقت عليه الرصاص، من غير أن تُظهر أي بادرة للتردد، ولو للحظة عابرة!

41

ما إن لامست الرصاصة صدر مراد الآخر، حتى تحول المشهد إلى غير الذي كان عليه قبل قليل. لم تعد هناك صور وأماكن وأجسام، بل مجرد فضاء داكن فيه ثلاثة أطياف كانت تراقب، وآخر رابع ظهر فجأة مع تحول المشهد. لم تكن تلك هي المرة الأولى التي يرى فيها مراد قطز ورفيقاه، عبدالرحمن وأم الوفا، ذلك الطيف الرابع، ولكنه هذه المرة كان أكثر وضوحًا، وأكثر تماسكًا، وأقرب إلى شكله الهلامي الذي رآه عليه مراد أول مرة في قافلة تجار المغول بالقرب من مدينة أترار!

اقترب الطيف الرابع من ثلاثتهم، وأخذ ينظر إليهم كلٌّ على حدة حتى وصل إلى مراد، فأمعن فيه النظر أكثر من رفيقيه. ظل يتأمله، ثم فجأة ودون مقدمات نطق بكلمة واحدة قبل أن يختفي....

- "مذهل!"

بعدها تحول المشهد إلى ما كان عليه قبل أن يخوض مراد قطز رحلته مع مراد قطز الآخر..... إلى كوخ أم الوفا بقرية الرابعية.

* * *

لا مناص من حقيقة بدأ يدركها مراد، وإن لم يفهمها: هناك أكثر من مراد قطز! فذلك الذي رآه عندما كان في معية حيدر الكاشف، ثم بعد ذلك الآن، حتمًا لم يكن هو وإن حمل اسمه وشكله! ولكن ما لم يفهمه، هو لماذا كلما حاول تذكر ماضيه، كان يذهب إلى ماضي

مراد الآخر؟ لماذا أصبح يعلم الكثير عنه في حين لا يعلم سوى القليل عن نفسه؟ والسؤال الأهم: ما الذي أوقعه في هذه المتاهة العجيبة؟!

- "لقد حجب عنّا الرؤية.... أظنها كانت هذه هي اللحظة الفاصلة؛ لحظة التيقن والاختيار." قالت أم الوفا مخاطبة عبدالرحمن.

- "أحسبها كذلك. قدرته لحقتها الاستطاعة، ولن نتمكن من رؤية المزيد،" أجابها عبدالرحمن، ثم أضاف موجهًا نظره نحو مراد:

- "حتى مع وجود قرينه."

- "قرينه؟! عمّ تتحدث؟! من قرين من؟! أنا مراد قطز! أنا الأصل وليس ذلك المسخ!" صرخ مراد في وجه عبدالرحمن، ثم نظر إلى أم الوفا باستجداء، كغريق يبحث عن طوق نجاة.

- "أظنه قد آن الأوان يا عبدالرحمن، من حقه أن يعلم.... من حقه علينا أن نخبره بالحقيقة."

- "الحقيقة يجب أن تُدرك ولا يُخبر بها. أي شيء عدا ذلك لن يخرج عن دائرة أنصاف الحقائق..... نصف الحقيقة لن يجديه نفعًا."

- "بل هي أفضل من لا شيء!" قاطعه مراد، وقد بلغ سيله زباه. لم يعد راغبًا في سماع كلام عبدالرحمن المبهم، فوجَّه انتباهه نحو أم الوفا.....

- "أنا مستعد لسماع كل ما لديك. أي شيء تخبريني به، عندي أهون من ألغاز عبدالرحمن!"

- "حسنًا، ولكن قبل كل شيء عليك أن تدرك أمرًا من الأهمية بمكان، وهو أنه لولا عبدالرحمن، لما عرفت طريقك إلى هنا. يعزّ علي أن أستشعر كل هذا السخط تجاهه، وإن كنت أشفق عليك من هذه الحيرة التي أراها."
- "افعلا كيف تشاءان." قال عبدالرحمن متَّجهًا نحو باب الكوخ، ثم أضاف قبل أن يخرج موجهًا حديثه إلى مراد:
- "لكن تذكر أنك لا تزال تسير في النصف الأول من الطريق، ولن تصل إلى وجهتك إلّا عندما تكمل السير في نصفه الآخر."

42

ظلت نور بجوار ياسمي طوال النهار وحتى دخول الليل. ناولتها بعض الطعام، ولكن الفتاة لم تذق منه إلّا القليل، واستمرت على حالها، ملقاة على الفراش دون أن تتحرك، ناظرة إلى سقف الحجرة، كمن يتأمل نجوم السماء. خف هذيانها، ما جعل نور تشعر بأنها ربما كانت تتحسن من هذه العلة التي أصابتها، والتي لم تدرك لها سببًا. تمنت لو أنه كان بمقدورها فعل أي شيء من أجل مساعدة هذه الفتاة المنكوبة؛ ولكن إن لم يستطع جُلّاب مساعدتها، فماذا بوسعها هي أن تفعل، أخذت تخالج نفسها....

حاولت إقناع ياسمي بأن تغمض عينيها قليلًا لكي تنام، ولكن دون جدوى، فوجدت نفسها هي التي تغفو حتى أيقظها صوت طرقات خفيفة على باب الحجرة. لوهلة ظنت أنه ربما يكون جُلّاب قد جاء بعد اكتشاف دواء لعلة الفتاة، أو ربما عبدالرحمن وقد عاد من مشواره إلى سيدة القرية التي تدعى أم الوفا، ولكن سرعان ما فوجئت عندما فتحت الباب ورأت آخر من كانت تتوقع مجيئه للاطمئنان على ياسمي....

- "كيف.... كيف حالها الآن؟" سأل محمود بن ممدود بصوت خافت يملؤه التردد.

- "أظنها أفضل من قبل." أجابته نور، ثم أضافت قبل أن ينصرف:

- "إنها فتاة قوية. لا تستسلم بسهولة للصعوبات، بل تقاوم حتى

آخر رمق. يعزّ وجود أمثالها في هذا الزمان، أنت زوج محظوظ."

تلعثم محمود؛ لم يعرف كيف يجيبها.

- "هل تودّ الدخول للاطمئنان عليها؟ أظن هذا سيُسْعِدها، وقد يُعَجِّل شفاءها."

وافق الأمير الخوارزمي على اقتراح نور بعد لحظة وجيزة من التردد، فدخل الحجرة متجهًا نحو الفراش الذي تستلقي عليه ياسمي. نظر إليها دون أن تلتفت هي إليه.....

- "ما الذي حلّ بها؟ ما هذا الداء العجيب؟!"

- "ليتني كنت أعلم يا مولاي، ولكن جُلّاب يقول إن ما أصابها أمر عارض، يصيب أمثالها." أجابته نور.

- "أمثالها؟" لم يفهم محمود قصد الجارية.

- "إنها يا مولاي ليست كباقي الفتيات. منذ أن وقعت عليها عيناي في القصر، أدركت ذلك الأمر."

- "هل صحيح أنها...." تردد قليلًا قبل أن يكمل السؤال، وكأنه خشي الإجابة....

- "أنها رفضت ترك تلك المدينة الملعونة، من دوننا؟"

- "نعم، صحيح يا مولاي؛ كان بإمكانها تركك ومولاتي نوران خاتون وكذلك محمد الطوسي، ولكنها أبت، وأصرت على البحث عنكم جميعًا والفرار بكم معها."

- "لماذا فعلت هذا؟! ما الذي يربطها بنا حتى تخاطر بنفسها من أجلنا؟!"

- "سألتها السؤال نفسه، فأجابتني بأنكم أهلها، والحر لا يترك أهله ويفر دونهم."

جلس محمود على جانب الفراش، متأملًا ياسمي وهي تحدق نحو السقف دون أن ترمش. وجد نفسه دون أن يشعر يمسح بيده على جبينها، ثم همس إليها:

- "ما الذي أصابك؟"

ما كاد يفرغ من سؤاله حتى تنبه إلى رمشة واحدة تصدر من ياسمي! لوهلة ظن أنها قد سمعت سؤاله، بل وربما ستجيبه...... لكنها لم تفعل، وظلت على حالها.

- "الله أكبر! لا حول ولا قوة إلّا بالله!" تعالت الصرخات من الخارج، مع أصوات أقدام تجري في كل مكان.

- "ما الخطب؟!" تساءل محمود دهشًا من هذا الهياج بالخارج.

- "لا أدري يا مولاي." انطلقت نور إلى خارج الحجرة لترى ما الذي كان يحدث، ومن ورائها محمود بن ممدود.

- "ما كل هذا الصراخ؟" سأل محمود أول شخص رآه.

- "سمرقند! لقد سقطت! وهناك جيش للمغول متجه نحو غزنة!" أجابه الرجل بهلع.

- "وماذا عن السلطان علاء الدين؟" تساءل الأمير الخوارزمي، وقد اعتراه القلق على جده.

- "فرّ بجلده غربًا، تاركًا شعبه ليلقى مصيره!" جاءته الإجابة على مضض....

43

- "أجمل ما في هذا الكون أن أسـراره ليسـت عصية على الفهم، بـل هـي فـي متناول يد كل باحث عن الحق؛ ولكن الناس يأبون البحث، ويكتفون فقط بالنظر تحت أقدامهم، ظنّاً منهم أن الحقيقة لا يمكن لها أن تتجاوز رؤية العين." قالت أم الوفا مخاطبة مراد.

- "هناك حقيقة واحدة تشغلني الآن، وأريد معرفتها قبل كل شيء! مـن منـا مـراد قطـز؟! أنـا أم ذلـك الآخر الـذي شـاهدت حياته التعسة؟!"

- "وهـل تلـزم الإجابـة واحـدًا منكما دون الآخـر؟ لـمَ لا يكون كلاكما مراد قطز؟"

- "كيف؟! مستحيل!"

- "هو مستحيل لكل من ينظر تحت قدميه، فيظن أن هذه الأرض التي يسـير عليها هي كل شـيء، ولا شـيء سـواها. لكنك تدرك جيدًا بأن الأمر على غير هذا الحال. الكون لا يعمل وفقًا لراحة فهمنـا لـه، بـل وفق سـر أعظـم لا ينال علمـه إلّا من أخلص في البحث عنه."

- "ولكـن...." علـى الرغـم مـن إدراكـه أن كل مـا قالته هو أقرب للواقـع مـن كل مـا كان يعتقده في سـابق حياتـه الماضية قبل أن يغادرهـا إلـى هـذا الزمـان، إلّا أن شـيئًا مـا بداخلـه كان لا يزال

يحاول مقاومة الحقيقة التي كانت تتجلى له يومًا بعد يوم.

- "بماذا يبدأ المؤمن صلاته بعد التكبير؟ بفاتحة القرآن أليس كذلك؟ وما أول آية في هذه السورة بعد البسملة؟ حتمًا تعلمها." قاطعته أم الوفا.

- "وما علاقة هذا بما نتحدث عنه؟"

- "كل شيء لمن لا ينظر فقط تحت قدميه..... أجبني عن السؤال."

- "الحمد لله رب العالمين." أجابها مراد، كطفل يجيب عن سؤال سألته أمه.

- "لماذا العالمين وليس العالم؟ لماذا صيغة الجمع؟ لأنه أكثر من مجرد عالم واحد.... حقيقة بسيطة نرددها بألسنتنا كل يوم في صلواتنا، دون أن نُقِرُّها في قلوبنا، لأنها تخالف نظرتنا المسطحة للحياة..... عوالم متعددة يا مراد، الله أعلم بتعدادها، ولكنها قائمة، سواء أيقنا ذلك أو أنكرناه؛ فإن تيقنت من هذه الحقيقة، ستدرك مغزى ما قلته لك إن كليكما مراد قطز، ولكن كل واحد منكما يقطن في عالمه الخاص. يبقى السؤال المحير الذي لن يستطيع أحد غيرك الإجابة عنه: كيف استطعت التنقل من عالمك أنت إلى عالمه هو؟ ولماذا؟"

- "مستحيل! كيف يمكن أن يكون هناك أكثر من مراد قطز واحد؟!" أخذ يتساءل مع نفسه بعد الذي قالته له أم الوفا مؤكدة شكوكه التي ظل يقاومها.....

- "ولكن لا يوجد أي تفسير آخر. منذ ذلك الصباح الذي

استيقظت فيه بالرياض، وكل شيء من حولي بدا على غير طبيعته. أحداث كانت تجري لم يكن لها أي معنى؛ والناس من حولي يتحدثون عن أمور بدت لي غريبة وبعيدة كل البعد عني. العالم الذي كنت فيه لم يكن عالمي أنا، بل عالمه هو...... حتى الأحداث التي رأيتها، فهي تخصه هو وليس أنا، ولكن لماذا؟ لماذا كلما حاولت استعادة ذاكرتي ورؤية ما حدث لي منذ صباي، وجدتني أنتقل إلى حياته هو؟ بتّ أعرف عنه أكثر مما أعرف عن نفسي!"

- "سؤالك في محله، ولعله مرتبط بمسألة انتقالك إلى عالمه، وما حدث لك بعد ذلك وأدّى إلى الحال الذي أنت عليه الآن."

فجأة خطر على بال مراد أمر، زاده حماسة....

- "كيف استطاع العودة مرة أخرى إلى الحياة بعدما قُتل؟ ولماذا لا أستطيع أنا فعل الشيء نفسه؟ أولسنا متشابهين؟!"

ترددت أم الوفا قبل أن تجيبه، ولأول مرة منذ أن ألتقاها، لاحظ مراد عليها الحيرة....

- "لم أسمع من قبل عن شخص مات فعادت نفسه عبر الزمن إلى الوراء لتحتل جسده من جديد، كما رأيناه يحدث معه.... عالم الأنفس مليء بالأسرار، وهذا سر أنا أجهله."
- "وماذا عن عبدالرحمن؟ هل يجهل هو الآخر ذلك السر؟"
- "سؤال لا يستطيع أحد الإجابة عنه سواه."
- "ولكنه لا يجيب عن أي سؤال أسأله له إلا بالمزيد من الألغاز، فيزيد من حيرتي وكأنه يتلذذ بفعل ذلك!"

ابتسمت أم الوفا من جملة مراد الأخيرة، ولم تحاول إبداء أي اعتراض عليها....

- "الحيرة تولد الشك، والشك قد يقود صاحبه إلى اليقين."

- "وقد يقوده إلى المزيد من الحيرة!" قاطعها مراد.

- "لكلٍّ منّا مسلكه؛ ومن لطف الله بنا أن جعل للحق أكثر من مسلك. أعلم أنك تبحث عن إجابة غير هذه، وتود لو أن شخصًا يشرح لك كل شيء، فيزيح عنك ذلك الستار الحاجب الذي يمنعك من إبصار الحقيقة كاملة، ولكن الأمر لا يستقيم هكذا؛ فهناك أمور لا يستطيع إماطة اللثام عنها سوى صاحبها."

- "أخبرني إذًا، ماذا علي أن أفعل لكي أزيح ذلك الستار؟ هل أبحث عن مراد الآخر وأواجهه، مثلًا؟ أم ماذا؟!"

- "المواجهة من دون فهم كل الظروف التي شكّلت المعضلة قد تكون في غير مصلحتك. أخشى ما قد ينتج عنه من عواقب."

- "ولكني لم أعد قادراً على مواصلة الرؤية، وكأنه اكتشف أني أراقبه، فقطع علي الطريق!"

- "وهذا ما أظنه قد حدث بالفعل. عندما قُتل في المرة الثانية تغيرت ملامح نفسه. كأنه ازداد قدرة فاستطاع رؤيتنا جميعًا، وخاصة أنت. ما الذي حدث منذ تلك اللحظة وحتى وصولك أنت إلى عالمه في الزمن الذي أتيت منه؟ هذا هو السؤال الذي يجب أن تجد إجابة عنه، حتى تتضح لك الأمور."

- "ولكن كيف؟!"

- "استمر على حالك، وراقب كل ما يحدث من حولك وكن دومًا مستعدّاً، حتى لا تأتيك الإجابة على حين غفلة، فلا تراها."

وافقها مراد على ما قالته، حيث لم يكن لديه خيار آخر سوى المراقبة. لقد شاهد كل ما يستطيع رؤيته من حياة مراد الآخر، ولم يعد قادراً على الانتقال مرة أخرى إلى عالمه. كما لسبب ما لا يستطيع استرجاع حياته الخاصة، وما تحمله من ذكريات..... أمر عجيب، أخذ يظن، أن يستطيع رؤية أجزاء من حياة قرينه، ولا يستطيع رؤية الفترة نفسها من حياته؛ لماذا حُجب عنه قَدَره الذي نتج عن اختياراته هو؟! سؤال محير، لم يجد له إجابة.

44

تناقص عدد الرجال من حول السلطان علاء الدين محمد، حتى لـم يعـد معه سـوى المئـات. بعضهم مات في الطريق بسـبب الجهد والمـرض وتناقـص الطعـام، والبعـض الآخـر فرّ خوفًا من سـوبوتاي وجيشه الذي ظل يلاحق سلطان خوارزم دون هوادة. تساقطت المدن الواحدة تلو الأخرى؛ أغلبها استسلم دون أي مقاومة تذكر، خوفًا من التنكيل والإبادة. عَلم الولاة والقضاة والأعيان بشـأن فرار السـلطان، والجيش المغولي الذي كان يلاحقه، فلم يعد مرحبًا به في أي مكان يذهـب إليـه. بـل إن البعـض طمع في مكافأة قـد يقدمها جنكيز خان أو حظـوة قـد يحظـى بهـا عنـده إن أمسـك به، ما جعل عـلاء الدين محمـد يتفـادى الذهـاب إلى أي مدينة أو قريـة، ويكتفي بالمبيت في البراري والأحراش، قبل أن يستمر في سيره غربًا. ظل هذا الحال مع السلطان الهارب حتى وصل إلى جنوب بحر الخزر مع فرسانه الذين ظلـوا يتناقصـون فـي العدد، وابنه الأصغر غيـاث الدين، وأحد رجاله المخلصين، سيف الدين تيمور.....

- "مولاي السلطان، الخيول أصابها الوهن، ولـم تعد قادرة على مواصلة الطريق."

- "إن توقفنا الآن فسيلحق بنا المغول. لا بد من مواصلة سيرنا!"
قاطع الأمير غياث الدين، غير مرحب بما قاله سيف الدين تيمور لأبيه الذي ظهر عليه هو الآخر الإعياء الشديد، فلم يعد راغبًا في

الحديث، وقد عافت نفسه الحياة وما فيها.

- "إن أخذنا قاربًا إلى إحدى جزر بحر الخزر، فلن يستطيعوا اللحاق بنا. المغول ليسوا أهل بحر. كما أن جميع المراكب هنا صغيرة، ولن تتحمل إلّا أعدادًا قليلة، فإن تجرؤوا وأرسلوا بعض فرسانهم خلفنا، فسنستطيع اصطيادهم بسهامنا من على الشاطئ."

تردد غياث الدين قليلاً قبل أن يبدي موافقته على اقتراح سيف الدين تيمور، فلم يكن أمامه الكثير من الخيارات. كان بودّه مواصلة السير إلى أذربيجان ومن ثم إلى العراق بعيدًا عن المغول، ولكنه كان يدرك أن الخيول قد تخرّ في أي لحظة، وحال أبيه السلطان كان يزداد سوءاً يومًا بعد يوم، ولن يتمكن من مواصلة السير؛ كل هذا جعله يوافق على اقتراح سيف الدين تيمور، فلم يكن أمامه خيار آخر.....

- "حسنًا..... فلعل البحر يحول بيننا وبين هؤلاء العلوج!"

* * *

أدرك السلطان علاء الدين محمد، عندما حطّت قدماه الواهنتان على شاطئ الجزيرة، أن هذه الأرض هي آخر ما ستخطو عليه هاتان القدمان، وأنه قد بات قاب قوسين أو أدنى من مفارقة حياته التي أصبحت مثالًا للبؤس والهوان. لم يعد بقادر على مواصلة الفرار، ولم يعد راغباً في مواصلة الحياة ومملكته التي كانت بالأمس القريب قوة تُرهب جيرانها، قد أصبحت حطام دولة تتهاوى كدولٍ أخرى من قبلها؛ ولكن كان هناك قرار أخير لا بد من اتخاذه قبل أن يموت. قرار جعله يتشبث بالحياة التي لم يعد راغبًا فيها، فلعل هذا القرار يكفر له عن سلسلة أخطائه التي تراكمت حتى أصبح يراها جبلًا ماثلًا أمام عينيه..... "لماذا لا تأتي الحكمة إلّا بعد فوات الأوان؟!" أخذ يتساءل مع نفسه... "أين

كانت قبل أن يحلّ بنا الهلاك؟!" ولكنه واسى نفسه بقراره الأخير الذي قد يُصلح شيئًا مما أفسده عبر سنوات من سوء التدبير.....

مضت الأيام والليالي، وجسده المتهالك قد أصبح في أسوأ أحواله، حتى أصبح كل نَفَس يأخذه يشكل عبئًا عليه. ولكن رغبته الجامحة في تصحيح شيء من أخطائه الكثيرة، جعلته يقاوم بشدة إغراء الراحة مع الموت..... كان لا بد له أن يتماسك حتى يأتي....

- "هل حضر؟" كان سؤاله الوحيد الذي ظل يكرره على مسامع سيف الدين تيمور حتى جاءته الإجابة التي ظل ينتظرها بفارغ الصبر، في أثناء استلقائه على الشاطئ، في خيمة صغيرة نُصبت له....

حطّت على شاطئ الجزيرة قوارب عدة، تحمل العشرات من الرجال المسلحين، وعلى رأس هؤلاء ظهر الأمير جلال الدين منكبرتي. استطاع بحنكته أن يتفادى جيش سوبوتاي، وأن يذهب إلى قرية صيادين بعيدة، على ضفاف بحر الخزر، ليستخدم قواربهم للذهاب هو وبعض رجاله الأشداء إلى الجزيرة التي لجأ إليها السلطان، مبقيًا على جلّ جيشه عند القرية ليُؤَمِّنوا له خط رجعته. أقبل على أبيه الذي كان يحتضر في خيمته الضيقة، مُقَبِّلًا رأسه ويده. ابتسم السلطان علاء الدين، حامدًا ربه، لأنه أمهله من الوقت حتى هذه اللحظة لكي يُنَفذ ما جال في خاطره. أمسك بيد ابنه الأكبر ونادى جميع الرجال الذين كانوا حاضرين معه في الجزيرة؛ ثم من غير أي مقدمات بايع الأمير جلال الدين منكبرتي سلطانًا على البلاد من بعده، وأمر الجميع، وعلى رأسهم الأمير غياث الدين، بأن يبايعوه. فعل الجميع ما أمرهم به السلطان، وما كادوا يفرغون من ذلك، حتى لفظ علاء الدين محمد أنفاسه الأخيرة، بعد أن تمكن من فرض قراره الأخير، الذي أراد أن يُكَفِّر به عن بعض أخطائه، كما حسب!

45

كأنهـا كانـت فـي عالم آخر ما بين النوم واليقظة. رأت جسـدها المستسـلم يُحمـل مـن قبـل عبدالرحمن على فرسـه، وهـم متجهون إلـى قريـة الرابعيـة، ثم بعد ذلك إلـى الحجرة التي وضعت فيها على الفراش. كأنها لم تعد قادرة على التحكم في ذلك الجسد المُترهل، فبات يشرب الماء ويتناول بعض الطعام فقط من أجل البقاء، وليس لأنها كانت تصدر له الأوامر لكي يفعل ذلك بمحض إرادتها. شعور غريب أن يكون الإنسـان مستيقظًا وعلى غير ذلك في الوقت نفسـه. الأمر أخذ بعض الوقت حتى استطاعت أن تعتاد على ذلك الوضع الغريب، ثم شـعرت بعد ذلك وكأنها تحررت من قيد اسـمه الجسـد! في هذا الحال العجيب كانت ترى ذلك الشخص الذي تعرفت إليه، صاحب الاسـم الغريب، قطز.... الكلب الشـرس! رأته وهو يذهب وراء عبدالرحمـن، ولكنهـا خافت أن تتبعه، فتترك جسـدها السـاكن، فلا تستطيع العودة إليه مرة أخرى! لولا أنها رأت ذلك الجسد وهو يبلع الماء والطعام بعناء، لظنت نفسها ماتت، وما هذه إلّا روحها بعد أن انتزعت منه إلى الأبد!

شعور بالخوف بدأ يتزايد يومًا بعد يوم، وهي على هذا الحال؛ فإلى متى ستبقى هكذا؟! أخذت تتساءل مع نفسها. حاولت مرارًا أن تعود إلى جسدها؛ أن توقظه من هذا الحال، ولكن دون جدوى، فلم تعـرف كيـف تفعـل، حتى جـاء ذلك اليوم الذي أقبل فيه محمود إلى

حجرتها لكي يطمئن عليها؛ لم تتوقع ذلك الفعل منه. حسبته يكرهها، ولا يريد الاقتراب منها لأي سبب كان؛ ولكنه اقترب من جسدها هذه المرة، بعد أن تحدث مع نور، ثم جلس على الفراش قبل أن يضع كفه على رأسها! في تلك اللحظة المدهشة التي لم تتوقعها، شعرت لوهلة وكأنها قادرة على التحكم في جسدها من جديد! أرادت أن تضع كفها على كفه، ولكنها لم تستطع سوى إحداث رمشة وحيدة.....

- "محمود! أنا هنا بجوارك، لا أعلم ما الذي حدث لي!" صرخت، أو هكذا حسبت أنها فعلت، ولكن صوتها لم يُسْمِعه، فشعرت بالخوف مجددًا بعد أن كادت تشعر بالطمأنينة عندما جلس بجوارها.

خرج محمود من الحجرة، فخرجت هي وراءه. أرادت أن تبحث عن عبدالرحمن أو مراد قطز.... عن أي شخص يخبرها عن هذا الحال الذي هي فيه! لا تريد أن تبقى هكذا إلى الأبد. لا تريد أن تصبح مثل مراد المسكين! ظلت تسير خلف محمود، ثم فجأة تنبهت إلى أمر...... لقد تركت جسدها في تلك الحجرة، ولأول مرة ابتعدت عنه!

* * *

- "لديك نفس قوية. يبدو أن مساحيق حيدر الكاشف هيَّجتها، وجعلتها راغبة في التحرر."

تنبهت ياسمي للمرأة العجوز التي ظهرت فجأة دون أن تشعر بقدومها، ومعها مراد قطز، أو طيفه اللا متجسد..... "من تكون هذه؟ لماذا هي الوحيدة القادرة على رؤيتي؟!" تساءلت مع نفسها.

- "أنا أم الوفا." أجابتها، وكأنها سمعت سؤالها....

- "أظنك سمعت بي من صديقة مشتركة."
- "حلّاجة!" تذكرت ياسمي على الفور تلك الجارية المقتولة التي ظنّت أنها رأتها في قصر السلطان ببخارى.....
- "ألم يكن ذلك مجرد حلم؟! إنها ميتة."
- "الأجساد هي التي تبلى وتموت، ولكن الأنفس تبقى، فهي مخلدة؛ وهذا من فضل الله علينا."
- "ماذا عن هذا الذي يحدث لي..... ما هو؟!"
- "كما قلت لك قبل قليل. لديك نَفْس قوية تواقة للتحرر من قيد جسدها. ما يحدث لك هو أمر معهود لفئة قليلة من البشر جمعت بين القُدرة والاستطاعة."
- "أهل الكشف؟" تساءلت ياسمي.
- "أحسبه هذا هو الوصف الذي أطلقه جُلّاب، وإن كان لا يعطي الأمر كامل حقه."
- "وهل سأظل هكذا إلى الأبد؟!" اعترى ياسمي قلق كبير، وقد حسبت أن حالها أصبح كحال مراد قطز.
- "جسدك لم يبلَ بعد، تستطيعين العودة له متى ما شئت."
- "ولكني حاولت مرارًا، ولم أستطع."
- "لأن خوفك تغلب على إرادتك. تخلصي من هذا الخوف، وستكون إرادتك هي النافذة..... أنت فتاة شجاعة، كما سمعت عنك. مثلك لا يغلب في إيجاد الطريق."

ما إن فرغت أم الوفا من حديثها حتى انتابت ياسمي سكينة

جعلتها تشعر براحة لم تعهدها منذ مدة من الزمن، بل تلاشى الخوف، وكأنه لم يكن. أدركت في تلك اللحظة سر ذلك الشعور الغريب الذي انتابها عندما حدّثتها حلاجة عن معلمتها. أرادت حينها أن تلتقي مع هذه المرأة التي ينادونها بأم الوفا، بل شعرت بأنها في حاجة للذهاب إليها. هل كانت تدرك في قرارة نفسها ما كان سيحدث لها من تغيرات عجيبة ستعصف بها، وتجعلها طريحة فراش الحيرة؟! ما سر هذا العالَم العجيب الذي لم تسمع به من قبل؟! وكيف يمكن للإنسان أن ينفصل بنفسه عن جسده على هذا النحو؟!

تبدد خوف ياسمي، كأنه لم يكن، واستُبدل به الفضول؛ خاصة بعدما شعرت في تلك اللحظة بالقدرة، وبأنها تستطيع العودة إلى جسدها متى ما أرادت!

46

- "لو سقطت غزنة، فستسقط الدولة بأكملها! لا بد من حشد كل من يقدر على حمل السلاح، من أجل الدفاع عن المدينة!"

حاول محمود بن ممدود أن يقنع قائد فرسان الرابعية ومن كان معه من بعض رجال القرية. الأمر كان بالنسبة إليه حياة أو موت، خاصة بعدما علم أن جزءاً كبيرًا من جيش غزنة كان مع خاله الأمير جلال الدين منكبرتي عندما غادر للّحاق بجده السلطان في غرب البلاد.

- "من أجل الدفاع عن غزنة أم من أجل الدفاع عن مُلك الخوارزميين؟!" جاء التعليق من أحد الحاضرين على غير هوى الأمير الخوارزمي.

- "ما شأننا نحن بغزنة؟! لماذا لا يدافع عنها أميرها الذي تركها من أجل اللّحاق بأبيه الذي فرَّ خوفًا من المغول؟!" علَّق شخص آخر.

ضجت القاعة بأصوات المؤيدين، في حين ظل قائد الفرسان صامتًا متأملًا ما كان يحدث، على خلاف محمود.....

- "ستتركون بلاد المسلمين تسقط هكذا الواحدة تلو الأخرى دون أن تحركوا ساكنًا من أجل الدفاع عنها؟! ما الذي أصابكم يا قوم؟!"

- "أنتم الذين أصبتمونا! هل نسيت ماذا فعل بنا جدك السلطان الخوارزمي؟! قتل إخوتنا وسبا نساءنا، والآن تطلب منّا الدفاع عن مُلككم الجائر؟! تالله لولا أن السيدة أم الوفا أجارتك أنت وجدتك زوجة ذلك السلطان الظالم، لحملناكما إلى المغول بأنفسنا!"

- "ويحك يا طاهر، يا ابن أبي الأزرق! أتَمُنّ على الفتى وجدته، أم على السيدة أم الوفا؟!" أسْكَت صوت قائد فرسان الرابعية الجهوري جميع الحاضرين، فعمّ الهدوء القاعة مرة أخرى، كما كان حالها قبل أن ينطق الأمير محمود بن ممدود طالبًا منهم العون والنجدة.....

- "نحن جميعًا عندما قدمنا إلى هنا.... إلى هذه القرية المباركة، ارتضينا أن يكون أمرنا بيد تلك السيدة الفاضلة، العارفة بالله، أم الوفا. لست أنت ولا هو ولا حتى أنا من سيقرر في أمر طلب هذا الفتى، بل هي التي ستفصل في الأمر، أم أن لأحد منكم رأيًا آخر؟"

لم يتجرأ أي من رجال القرية المتواجدون على الرد، واستمروا في صمتهم، مكتفين فقط بالنظر إلى بعضهم، وكأن كل واحد منهم كان يبحث عن غيره، لكي يعبر هو عمّا كان يجول في خاطره.

لم تستمر تلك اللحظات الصامتة طويلاً، إذ سرعان ما فُتح باب القاعة مُفصحًا عن قدوم سيدة القرية، وكأن ذكر قائد الفرسان لها كان كفيلاً باستدعائها.

- "سلام بديع الكون، وخالق السماوات ومن فيها، عليكم ورحمته وبركاته." بادرت أم الوفا بالتحية، ثم دون لحظة انتظار وجّهت

نظرها إلى الرجل الذي كان أول المعترضين على ما قاله الأمير الخوارزمي......

- "ذكِّرني يا طاهر، كيف مات أخوك الحسن؟"

تردد الرجل قليلاً قبل أن يجيبها عن سؤال كان على يقين أنها تعلم إجابته....

- "استشهد في حربه مع الخوارزميين."
- "ولماذا حارب الخوارزميين؟" بادرت بسؤال آخر فور تلقيها الإجابة عن سؤالها الأول.
- "لأنهم غزوا بلادنا."
- "وهل كان أخوك هو الحاكم حينها؟"

استغرب طاهر السؤال....

- "لا، بل كان الحكم للغوريين."
- "وهل قاتل أخوك من أجل إبقاء ملك الغوريين أم من أجل الذود عن أهله وأرضه ضد الغزاة؟"

أدرك طاهر بن أبي الأزرق إلى ماذا كانت تشير، فلاذ بالصمت شاعرًا بشيء من الخجل على ما بدر منه قبل أن تحضر.

- "إنما الأعمال بالنيّات، وإنما لكل امرئ مانوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله، فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها، أو امرأة ينكحها، فهجرته إلى ما هاجر إليه... أوليس هذا ما علّمنا إياه الحبيب المصطفى عليه أفضل الصلاة والسلام؟ من كان يرغب في القتال ضد المغول الغزاة من أجل الحفاظ على ملك الخوارزميين، فهذا شأنه، وسيحاسبه

عليه خالقه، ومن كان يرغب في القتال من أجل الدفاع عن ديار المسلمين فهذا شأنه، وسيجازيه الله كما وعد كل من يحارب في سبيله؛ ومن أراد التقاعس عن نصرة إخوته وهم في أمسّ الحاجة إليـه، فهـذا أيضًـا شـأنه، ولكن مثله لا مكان لـه هنا بيننا في هذه القرية."

مـا إن فرغـت أم الوفـا مـن حديثها، حتى انصرفـت من القاعة، تاركة أمر قتال المغول لأهالي الرابعية لكي يحسموه بأنفسهم، وكأنها لم تخشَ عليهم من سوء القرار.

* * *

عـاد محمـود إلـى حجرته بعد أن أخبر جدته نوران عمّا دار في اللقاء الذي جمعه مع قائد فرسان الرابعية وبعض رجال القرية. شعر بالسـعادة لأنه أخيرًا سـيكف عن الفرار، ويذهب ليقاتل الغزاة دفاعًا عـن ملك آل خوارزمشـاه. سـينضم أخيرًا إلى خالـه الفارس المغوار وخيرة أمراء الأسـرة، جلال الدين منكبرتي! كم سـتكون سـعادتَه به عندمـا يـراه قادمًـا ومعه أكثر مـن ألف فارس ومقاتل.... "ولن تكون هذه سـوى البداية،" أخذ يفكر.... "فسنحشـد الهمم وسـننتصر على المغول بإذن الله!"

اسـتلقى على فراشـه، وقد اعترته سـعادة كبيرة لم يشعر بها منذ زمـن بعيـد، ثـم أخـذ يفكر في الخطوات التالية وكيف سـيدير نفسـه على رأس عدد كبير من الفرسان الأشاوس، عندما فُتح باب الحجرة بهدوء. تنبه محمود إلى الجسـد النحيل القادم إليه، فقام من موضعه غير مصدق لما كان يراه ماثلًا أمامه! لقد تعافت!

اقتربت منه ياسـمي، ومن دون تردد عانقته بشـغف شـديد، ثم قبّلت شفتيه.... في بادئ الأمر شعر الأمير الخوارزمي بدهشة كبيرة

من هذا التصرف المفاجئ الذي لم يتوقعه منها، ثم سـرعان ما تبدد ذلـك الشـعور ليسـتبدل بـه شـعوراً آخـر أكثـر حميمية لم يأنسـه من قبل؛ في تلك اللحظة لم يستطع المقاومة، فلم يرَ أمامه حفيدة خان المغول.... لم يرَ تلك الفتاة المغولية التي فرضت عليه زوجة...... لم يرَ فتاة كافرة على غير دينه..... بل رأى شـيئًا آخر تمامًا رآه كل من حوله إلّا هو حتى هذه اللحظة، فقرر أن يستسـلم لذلك الشـغف الجامح الذي اعتراه.... قرر أن يكون زوجًا لياسمي!

47

زلـزل خبـر وفاة السـلطان علاء الدين محمد فـي جزيرة منعزلة ببحر الخزر، عامة البلاد، بل حتى الممالك المجاورة. لم يصدق أحد في بادئ الأمر أن نهاية هذا السـلطان الجبار والفارس المغوار الذي هـدد أرض الخلافـة العباسـية ومـا حولها، قد تكـون على هذا النحو البائس. هناك من فرح لهذا المصاب، وهناك من حزن؛ وعلى الرغم من هذا الاختلاف البَيِّن بين الفريقين، إلاّ أن كليهما سرعان ما تنبها إلى الوتيرة السـريعة التي كانت تتسـاقط بها المدينة تلو الأخرى في مملكة خوارزم! فأخذ الجميع يتساءل: هل بإمكان السلطان الجديد، جـلال الديـن منكبرتـي، أن ينقذ مـا تبقى من مملكتـه المتهاوية التي ورثها عن أبيه؟!

كان محمـود بـن ممـدود مـن بيـن الذين حزنوا علـى وفاة جده السـلطان، على خلاف جدته نوران خاتون؛ لم يتمنَّ أن تكون نهايته هكذا. لو أنه مات شهيدًا وهو يقاتل العدو، لكان أشرف له ولأسرته. لذلك شعر بعبء كبير جعله يصر على أن يدافع عن مدينة غزنة حتى لو استشهد في سبيل ذلك. قوة بنيانه على الرغم من صغر سنه، جعلته يشعر بأنه قادر على تحمل مسؤولية أسرته الحاكمة، على الأقل حتى يعود خاله السـلطان الجديد من الأقاليم الغربية للبلاد؛ ولـم يكن هو الوحيد بقرية الرابعية الذي عزم أمره على الجهاد، خاصة بعدما تناقل الأهالي ما قالته السيدة أم الوفا؛ فخرج معه ومع فرسان الرابعية كل

من كان قادرًا على حمل السلاح من رجال وفتيان، بل حتى عدد من النساء اليافعات خرجن من أجل التطبيب والتمريض. من بين هؤلاء كانـت الزوجـة المغوليـة للأميـر الخوارزمـي الشـاب، وكذلك زوجة السلطان الهالك، نوران خاتون....

48

تحـرك الجيـش مـن قريـة الرابعية بعد أن أكمل اسـتعداده، ولـم تكن وجهته مدينة غزنة، بعد أن اتخذ قائد الفرسان قرارًا، بعد مداولة طويلة مع رجاله، بأنه لن يتحصن وراء أسوار المدينة. لن يكون فأرًا فـي مصيـدة يحـوم حولها المغول! إن رغبوا في الانتصار على جيش تولـوي القـادم إلـى غزنة، فلا بد مـن المواجهة، ولكن على طريقتهم هم، وليس على طريقة المغول.

- "ولكن أعدادنا قليلة مقارنة مع جيش المغول.... لن نستطيع الصمـود أمامهـم! سـتكون مجزرة لنا!" أصـر محمود بن ممدود على أن خيارهم الأفضل هو الدفاع عن غزنة من خلف أسوارها، مع من تبقى من جيش المدينة، حتى يعود خاله السـلطان جلال الدين مع جيش أكبر.

- "سـتكون مجـزرة إن واجهناهـم كمـا يتواجه الجيشـان، ولكننا لن نفعل ذلك. الحرب ستكون كرّاً وفرّاً. سنرهقهم ليلاً بعد أن ترهقهـم حصـون غزنة نهارًا. المغول مهما كان بأسـهم، فهم في نهايـة المطـاف بشـر وفي حاجـة إلى النوم والراحة. إن اسـتمرنا على هذا الحال معهم، فسـيجد السـلطان جلال الدين أمامه بعد أن يعود جيشًا جاهزًا للهزيمة."

- "ماذا لو قرّر المغول ملاحقتنا قبل أن يعود السلطان بجيشه؟!

لن نستطيع الفرار منهم ومعنا النساء!"

- "لذلك سنخيِّم بعيدًا عن غزنة، ونضع النساء هناك والجرحى. ولـن نغيـر علـى جيش المغول إلّا بعد أن يقيموا حصارهم حول أسـوار المدينة، حتى يكون من الصعب عليهم أن يتبعونا بكامل أعدادهم." أجابه قائد الفرسان.

- "ولكن هذه مخاطرة كبيرة!"

- "الحرب مخاطرة كبيرة أيها الأمير، أم حسبتها نزهة؟! إن لم تكن على أتم الاسـتعداد لفقدان كل شـيء..... وأعني كل شـيء، بما فيه حياتك وحياة نسائك، فلا داعي لخوضها!"

- "إن أذنت لي أيها القائد...." قاطع محمد الطوسـي الحديث الدائر بين قائد فرسـان الرابعية والأمير محمود بن ممدود حول المشعل....

- "عطفًا على ما قلتَه، لماذا لا تكون وجهتنا شرقًا إلى ضفاف نهر السـند، حتى إذا ما اضطررنا إلى الفرار، نعبر النهر دون أن نخشى لحاق المغول بنا."

استـغرب محمود اقتراح محمد الطوسـي، وكذلك قائد الفرسان فبادر بالاستفهام....

- "وما أدراك أن المغول لن يتبعونا عبر النهر؟"

- "لأنهم يخشون عبور الأنهر والبحار."

- "وكيف عرفت هذا؟" سأله محمود، غير مقتنع بما قاله.

- "هذا هو التفسير الأرجح لعدم لحاق المغول بالسلطان علاء

الدين إلى الجزيرة التي لجأ إليها ببحر الخزر. كان بإمكانهم أن يتبعوه إلى هناك ويقضوا عليه، ولكنهم لم يفعلوا. ما الذي جعلهم يقفون عند ضفاف البحر، وهم الذين ظلوا يلاحقونه بضراوة عبر البلاد؟"

- "تبقى هذه مجرد تخمينات، وليس من الحكمة أن نبني خططنا عليها."

- "أظن أن الفتى مصيب فيما قال." اختلف القائد مع محمود.....

- "لقد سمعت من عدد من الرجال الفارّين من الشمال أن المغول إذا مروا بنهر يبنون عليه السدود حتى يجف ماؤه. هذا يتماشى مع ما قاله الفتى."

- "ربما، وربما لا." واصل محمود اعتراضه.....

- "أن نجعل نهر السند في ظهرنا والعدو من أمامنا لهو أمر فيه مخاطرة كبيرة، خاصة لو تبين لنا بعد فوات الأوان أن محمدًا قد جانبه الصواب!"

- "ولكن بإمكاننا قطع الشك باليقين، والتأكد مما قلت." قاطعه محمد الطوسي.

- "كيف؟" تساءل قائد الفرسان.

- "بأن نسأل حفيدة خان المغول..... ياسمي!"

49

كأنها وُلدت من جديد.... هكذا كان شعورها عندما عادت إلى جسـدها المسـتلقي على الفراش بعد لقائها الأول مع أم الوفا. نشـاط جسدي، وصفاء ذهني جعلاها أكثر حيوية من أي عهد مضى. أصبحت تـدرك جيـدًا مـا الذي تريده وكيف تحصـل عليه، فكان أول ما فعلته هو الذهاب إلى محمود من أجل حسـم أمرهما المعلق. كانت على يقين أنه في قرارة نفسه يرغبها، فبادرت هي. بعدما أزاحت هذا الأمر مـن علـى بالهـا، أخذت تفكر فيما آل إليه حالها. هذا التغير العجيب الذي طرأ عليها كان في حاجة إلى المزيد من البحث والفهم. أرادت أن تعلم إن كان بمقدورها فصل نفسـها عن جسـدها بمحض إرادتها وقتما تشـاء، دون الاسـتعانة بمسـحوق الوسـكا. كما أرادت أن تفهم ما حدود قدرات النفس الحرة عندما تنفك عن قيود الجسـد وكيف يمكن لها أن تجوب الزمان والمكان كما رأت مرادًا يفعل..... أمور كثيرة رغبت في معرفتها، جعلتها لا تريد الانفصال عن أم الوفا، من أجل تحصيل كل ما يمكن تحصيله قبل أن تترك قرية الرابعية....

- "الكون مليء بالأسرار، وأعظم سر فيه هو النفس البشرية. ما ينطبـق علـى غيـرك قـد لا ينطبق عليـك، فالقـدرات تتفاوت من شـخص لآخـر؛ لذلـك عليـك أن تكتشـفي ذاتـك أولاً، وهذا لا يتسنى للمرء إلّا عبر السير في طريق المعرفة، وأول هذا الطريق يكمن في إدراك أن النفس البشرية هي جزء من نسيج هذا الكون

المترابط النابع من إرادة الخالق. كل الموجودات وكل الممكنات وكل القائمات، كل ما تراه العين وما لا تراه، وكل ما يعيه العقل وما لا يعيه، كل هذا هو جزء من الكل؛ ما من شيء سيكون إلا وقد كان، وما من شـيء سـيزول إلا وقد زال.... اليوم والأمس والغد، ما هم إلّا أمر واحد ولكننا نراهم كُلّاً على حدة بمنظور مختلف."

على الرغم من أن ياسـمي لم تفهم من حديث أم الوفا سـوى القليل، إلّا أنها شعرت بأن ما فهمته منها كان كفيلاً بأن يجعلها تخطو بثقة نحو الأمام. أدركت أن الإجابة لا تُلقن، بل تنكشف للباحث عنها، عندمـا يحيـن وقتهـا؛ وأنه لا توجد إجابة واحدة لجميع الأسـئلة، بل أجْوِبة عدة مترابطة كترابط الكون..... عبدالرحمن، محمود، تبتنكر، وكل من صادفتهم في حياتها، جميعهم مترابطون بشكل أو بآخر؛ بل حتى مراد قطز والزمن الذي جاء منه! ما إن أدركت هذا الأمر، حتى أخذت تدرك سر تلك العبارات التي سمعتها أول مرة في خيمة تبتنكر وهي طفلة، فظلت تحيرها حتى سمعتها الآن من أم الوفا..... "ما من شـيء سـيكون إلّا وقد كان. ما من شـيء سـيزول إلاّ وقد زال؛ وكأن اليوم قد جاء بالأمس، وكأن الأمس سيجيء غدًا."

لأول مـرة منـذ زمن بعيد، شـعرت ياسـمي بـأن الطريق لم يعد مظلمًا كما كان.....

50

لـم تكـن غزنـة لتولويْ مجرد مدينة كبيرة كلفه أبوه جنكيز خان بمحاصرتهـا إلـى أن يلحـق بـه مـع باقـي الجيـش بعـد أن يفـرغ من سـمرقند، بل كانت له أكثر من ذلك بكثير؛ فلو اسـتطاع أن يُخضعها بالعشرين ألف فارس الذين معه، وقبل مجيء الخان الأعظم، فسَيرفع ذلك من شأنه بشكل كبير، ويجعله في مكانة أعلى لدى أبيه؛ لذلك كان لا بد للحصار أن يأتي أُكُله على نحو سريع، وتستسلم غزنة له هو دون سواه!

أمـر تولـويْ بإلقـاء جثـث الموتـى المتعفنة التـي جلبها معه من بخـارى بالمنجنيـق خلـف أسـوار المدينـة، ثـم تبعهـا بإلقـاء براميـل البارود التي أحدث انفجارها رعبًا شـديدًا في نفوس الأهالي، إذ لم يشاهدوا من قبل أمرًا كهذا، وإن كانوا قد سمعوا عن ذلك المسحوق الأسـود العجيـب "تـراب الجـن" الذي جلبه معهـم المغول! لم يكن تولويْ يسـتخدم فقط سـلاح الترهيب مع أهالي غزنة، بل كان هناك أيضًـا للترغيـب مكان في هذه المعركة الحاسـمة على جنوب مملكة خـوارزم، فعـرض علـى الوالي الذي خلَّفه جلال الدين منكبرتي على المدينة أن يستسلم مقابل ضمان سلامته وسلامة الأهالي.

كادت خطـة تولـويْ تأتـي بثمارهـا، حين أخذ أعيـان غزنة، من التجـار وبعـض القضاة، يتشـاورون فيما بينهم فـي الخيارات المتاحة أمامهم ومنها التسليم للمغول من أجل ضمان سلامتهم من هذا المد

الكاسح الذي اجتاح عامة البلاد وقهر جميع العباد! أخذ يتحدث البعض عن قضاء الله الذي ليس له راد، والبعض الآخر عن غضب الله المتمثل في المغول على ما اقترفه الناس من معاصٍ.... شيئًا فشيئًا أخذت الهمم تتضاءل، وتعالت الأصوات المنادية بالاستسلام للمغول من أجل اتّقاء شرهم، حيث لا جدوى من المقاومة، خاصة أن أغلب الجيش كان مع السلطان جلال الدين منكبرتي، والسلطان لا يُعرف أين هو الآن....

بعد أيام عدة من الحصار والسجال، في ليلة كانت سماؤها غائمة، كاد القرار بالاستسلام يُتّخذ، لولا أن حدث ما لم يخطر على البال؛ إذ ظهر اليسر بعد العسر، فتبدل الحال، لترتفع همم أهالي غزنة من جديد، بعد أن تراخت إلى الحضيض!

* * *

استيقظ المغول في منتصف الليل على صوت انفجار مُدَوٍّ، سرعان ما أدركوا أن منبعه الخيمة التي خُزِّن فيها براميل البرود. تسارع عدد من الفرسان إلى مكان الانفجار لكي يخمدوا الحريق الهائل الذي نجم عنه، وما إن فعلوا حتى تساقطوا واحدًا تلو الآخر، صرعى سهام اخترقت صدورهم. حينها أدرك الباقون أن الأمر لم يكن مجرد حادثة عابرة، ولكنه هجوم مدبر.... لقد تم اختراقهم!

التف عدد كبير من الفرسان حول تولويْ، حماية له من هذا الهجوم، في حين اتجه عدد آخر لمؤازرة الفرقة القابعة شرقي سور غزنة، حيث وقع الاختراق. كان الهجوم سريعًا وخاطفًا. الأمر برمته لم يستغرق سوى بضع دقائق، نتج عنه نحو مئة قتيل من جهة المغول، وضعف ذلك العدد من الجرحى!

في الليلة التالية جاء الهجوم من جهة الشمال، ثم جاء من

جهـة الجنـوب فـي الليلـة التـي أعقبتهـا؛ هكـذا استمر الهجوم على مخيـم المغـول المحيـط بغزنـة، ليلة بعد ليلة، حتـى دب الضجر بين الفرسان الأشاوس الذين لم يعتادوا على مثل هذه المعارك مع جيش أشبه بالأشباح، مجهول المعالم، لا يُعرف له شكل؛ يظهر لهم فجأة، وسرعان ما يختفي تاركًا وراءه سيلًا من دمائهم!

- "الأمر لم يعد محتملاً!" صرخ تولويْ في قواده بعد ليالٍ عدة من هذا البلاء الذي دب في جيشه...

- "إما أن تأتوني برؤوس هؤلاء، وإلاّ فسأستعيض عنها برؤوسكم أنتم!"

- "مولاي تولويْ خان، إنهم لا يحاربون كالفرسان؛ لا يواجهوننا رجلاً لرجل. هؤلاء ليسوا إلّا عصبة من الجبناء."

- "هؤلاء الجبناء كما تصفهم، قتلوا المئات من فرساننا يا أبله! ومـن لـم يمـت أصبـح لا ينام تحسبًا لهم! حصارنـا حول غزنة بـدأ يتراخـى بسـبب قلة نـوم رجالنا، وأهالي غزنـة بعد أن كادوا يستسلمون لنا، اشتدت مقاومتهم!"

أخذ تولويْ يدور حول نفسه في الخيمة، غير راغب في سماع أي كلمـة أخـرى مـن قادة فرسـانه. اسـتمر هـذا الحال حتـى اهتدى تولويْ إلى ما ظن أنه الحل الأمثل لهذه المعضلة.....

- "أريد إرسال ألفي فارس في كل اتجاه للبحث عن هؤلاء الأوغاد والإتيان برؤوسهم!"

- "ولكن يا مولاي، هذا عدد كبير من الفرسان، يكاد يقترب من نصف جيشنا. لماذا لا نطلب المدد أولاً من جيش مولاي جنكيز

خان قبل أن نرَسل هذا العدد الهائل من فرساننا؟"

ما كاد القائد يفرغ من اقتراحه حتى تلقى صفعة قوية جعلته يترنح قليلاً قبل أن يتماسك، ويعلن الندم على ما صدر منه، طالبًا من تولويْ خان السماح بعد أن هدده بأنه في المرة القادمة التي ينطق فيها معترضًا على ما يصدر له من أوامر، فستكون الصفعة من سيفه بدلاً من كفه!

- "بل سنقضي على تلك العصابة بأنفسنا، وستسقط غزنة في أيدينا قبل أن يأتي إلينا جنكيز خان!" قالها تولويْ عازمًا أمره.

* * *

لم يفهم محمود السبب وراء إصرار جُلّاب على رمي تلك الخيمة تحديدًا بالأسهم المشعلة، حتى رأى بنفسه ما أحدثه ذلك من انفجار ضخم لم يرَ له مثيلًا من قبل، وكأن غضب الله قد حل على جيش المغول! عشرات الصرعى والجرحى من فرسانهم نتاج بضعة أسهم مشعلة على خيمة خُزِّن فيها ذلك المسحوق الأسود العجيب.... البارود!

كان ذلك الانفجار إشارة بدء الهجوم على المخيم وسط الفوضى العارمة التي دبت في المكان بين فرسان المغول. وكما دخلوا فجأة، انسحب محمود وفرسان الرابعية بعد أن قتلوا عددًا جيدًا من الطرف الآخر، دون أن يصاب واحد منهم!

هكذا كانت خطة قائد فرسان الرابعية.... غارة خاطفة في مناطق مختلفة من مخيم جيش المغول كل ليلة، حتى ينهكوهم. لم تعجبه محمود تلك المعارك السريعة المباغتة، فقد أراد مواجهة مباشرة حتى الموت مع عدوه، ولكن بأعدادهم المحدودة مقارنة مع المغول، كان هذا هو أفضل المتاح، على الأقل حتى يأتي خاله

السلطان جلال الدين منكبرتي مع جيش الخوارزميين، كما أشيع عبر القرى المجاورة....

في الليلة العاشرة من معارك الكر والفر، اجتمعت الفرقة التي صاحبها محمود مع قائد فرسان الرابعية، بعد غارة على مخيم المغول، عند المكان المتفق عليه شرقًا بالقرب من واحة نائية بين تلّتين. حضر الجميع ماعدا المجموعة التي أغارت على الجانب الغربي من المخيم. بدأت تشرق الشمس ولم يكن هناك أي أثر لقدوم المتخلفين من فرسان الرابعية، حتى دب القلق في نفوس رفاقهم؛ تأخرهم هذا لم يكن يعني سوى أمرين: أن يكونوا أُسروا أو قُتلوا!

أمر القائد على الفور فرسانه بجمع كل حاجاتهم والاستعداد للرحيل إلى مخيمهم الواقع على ضفاف نهر السند، حيث تركوا النساء. لو أن الغائبين من رجاله قد وقعوا في الأسر، فليس من المستبعد أن يقِرّوا للمغول، تحت تأثير التعذيب، بكل شيء!

- "لا تحملوا معكم أي شيء ثقيل!" صرخ في رجاله.....
- "نريد أن نصل إلى المخيم بعد غد على الأكثر!"

شعر محمود بالفزع، عندما أدرك سبب تخوف قائد الفرسان! فالمغول قد يكونون في طريقهم الآن إلى مخيمهم، حيث جدته.... وحيث ياسمي!

انطلق الجميع شرقًا، متوقفين فقط من أجل أن ترتاح الخيول المنهكة من العدو، وفي مساء اليوم الثاني اقتربوا من الضفة الغربية لنهر السند. بلغ قلب محمود حنجرته، عندما رأى في الأفق من بعيد الدخان المنبعث، فخاف أن يكون المغول قد سبقوهم، وأحرقوا كل

شيء، ولكن سرعان ما تنفس الصعداء، عندما أدرك أنه مجرد الدخان المنبعث من مواقد المُخيم.....

ذهب إلى خيمة جدته نوران لكي يطمئن عليها، ثم ذهب بعد ذلك إلى خيمة ياسمي؛ كان القلق واضحًا عليه.

- "ما الخطب؟ هل حدث مكروه؟!"

- "تَغَيَّب بعض الفرسان. خشينا أن يكونوا قد وقعوا في الأسر، واستطاع المغول أن يحصلوا منهم على موقع المخيم."

- "ما عدد الذين تغيبوا؟" سألت ياسمي متأملة ما قاله لها محمود.

- "عشرون مقاتلاً." أجابها دون تردد.

- "قتلوا عشرة، وسيظلون يعذبون ثمانية حتى الموت على مرأى من الاثنين المتبقيين، ثم سيحصلون منهما على ما يريدون من معلومات..... إنها مسألة وقت قبل أن يأتوا إلينا، وسيحضر تولويْ بنفسه، عندما يعلم أنني ما زلت على قيد الحياة وكذلك أنت ونوران خاتون."

فزع محمود ممّا رددته ياسمي بثقة، وكأنها تستشرف المستقبل. لو أن الأمر سيتجلى على هذا النحو، فعليهم الرحيل فورًا قبل فوات الأوان!

- "أن يرغب عمك في الإمساك بي وبجدتي، فهذا أمر مفهوم، ولكن ما لا أفهمه هو رغبته في قتلك أنت.... لماذا؟!"

- "تولويْ منذ صغره، وهو المقرب من الكاهن تبتنكر، على خلاف أبي. أحسب أن تولويْ ينفذ ما طلبه منه الكاهن، مقابل

أن يستمر في دعمه، وبحكم أنه الابن الأصغر لجنكيز خان، فهو في حاجة إلى دعم شخص ذي نفوذ مثل تبتنكر."

- "وما الذي فعلتِه لهذا الكاهن لكي يصر على قتلك، بهذا النحو؟!" شعر محمود بدهشة كبيرة؛ فكيف يمكن لكاهن، مهما بلغ من نفوذ، أن يتحكم في مصير حفيدة خان المغول الأعظم؟!

- "الأمر لا يتعلق فقط بما فعلته، ولكن أيضًا بما سأفعله." أجابته ياسمي، مدركة أن ما قالته لن يزيده إلا دهشة.....

- "ولكن دعك من هذا الآن، فعليك أن تنبه قائد فرسان الرابعية! يجب أن يستعد الجميع!"

* * *

بنفسه أراد تولويْ أن يقبض على تلك الشرذمة التي آوت ابنة جوشي الملعونة! أولئك الذين تجرؤوا عليه، وظنوا أنهم باستطاعتهم ترويعه وجيشه الباسل! "يا له من قدر!" أخذ يظن.... "لقد جاء بياسمي إلي بعد أن كنت أنا الذي أبحث عنها، ومعها حفيد السلطان الهالك وزوجته!"

لاحت له نيران المخيم في الأفق عند المكان نفسه الذي أخبره عنه الأسير..... بضع ساعات، حَسِب تولويْ، وسينقض عليهم مع عشرة آلاف فارس، وبعدها يعود من جديد لكي يكمل الحصار مع النصف الآخر من جيشه الذي تركه حول أسوار غزنة....

قرر أن يخيم في مكانه من أجل الراحة، ثم يبدأ الهجوم على تلك العصابة في الغد. النيل منهم لن يكون بالأمر الصعب، خاصة أن عددهم كما أخبره الأسير لا يتجاوز الألف؛ الأمر برمته سيكون أشبه بالنزهة لفرسانه الذين يقتربون من عشرة أضعاف ذلك العدد!

واصل تولويْ سيره في صباح اليوم التالي بعد أن قسَّم جيشه إلى ثلاثة أقسام: جناح أيمن، وجناح أيسر، وألفي فارس في المقدمة معه.....

- "أريد القضاء عليهم جميعًا قبل أن تنتصف الشمس في كبد السماء." أمر قواده، راغبًا في العودة إلى أسوار غزنة في أسرع وقت.....
- "لا أريد أخذ أي أسير! الكل يُقتل، حتى الذين يستسلمون!"

* * *

- "أيها الفرسان الأشاوس، أذكركم بما علّمنا الله عز وجل في كتابه الحكيم على لسان الذين يظنون أنهم ملاقوه: كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله، والله مع الصابرين." نادى قائد فرسان الرابعية في رجاله، استعدادًا لمواجهة جيش المغول القادم إليهم. كان يدرك أن الأمر لم يكن باليسير، وأن عدوهم شديد البأس، ولكن ثقته في ربه ثم في فرسانه جعلته يُرَجِّح اختيار المواجهة. كانت هذه فرصة سانحة له لكي يختبر بنفسه أسطورة الجيش المغولي الذي لا يقهر! فها هو ذا، بألف فارس فقط سيواجه عشرة آلاف من فرسانهم!

* * *

انطلق تولويْ نحو فرسان الرابعية دون إطلاق السهام أولاً؛ لم يشعر بأن الأمر يستدعي مثل هذه المناورة. كلها ساعات قليلة ويكون قد قضى عليهم جميعًا عن بكرة أبيهم! لم يأبه لبعض السهام التي أطلقها جيش الخصم الصغير، نحوه ونحو فرسانه. بعضها أصاب هدفه، ولكن أكثرها مرت دون إحداث ضرر جسيم.... "هل هذا

أقصى ما لديكم!" ضحك في سره.... عندما اقترب من المخيم، لاحظ أنهم كانوا يتراجعون، وكأنهم فزعوا منه ومن سيل فرسانه الجارف، ثم فجأة تراموا على الأرض ووضعوا فوقهم التروس.... "ماذا يفعل هؤلاء؟!" ما كاد تولويْ يتساءل حتى لاحظ أن الأرض من تحته باتت رخوة، فتباطأت الخيول. فجأة سمع أصوات انفجارات قادمة من طرفي جيشه، ثم انبعثت النيران من بعدها. ساد الهرج والمرج في جناحي جيش المغول، واشتعلت النيران في عدد من الفرسان. كل هذا جعل أعدادًا من الخيول تهيج وتُلقي على الأرض بمن كانت تحمله!

- "إنهم يستخدمون البارود الصيني يا مولاي!" صرخ قائد الميمنة بعلو صوته حتى يستطيع تولويْ سماعه وسط هذه المعمعة التي لم تكن على البال.
- "مستحيل! من أين جلب الخوارزميون هذا البارود؟!"
- "علينا الانسحاب وتنظيم صفوفنا من جديد. لن نستطيع المواصلة هكذا!"

وافق تولويْ على اقتراح قائد الميمنة على مضض، وقد أدرك أخيرًا أن هذه المعركة اللعينة قد تستغرق أكثر من بضع ساعات، على خلاف ما كان يظن!

* * *

هلّل الجميع وكبروا بعد أن تمكنوا من صد الهجوم الأول لجيش المغول بقيادة تولويْ. الكثيرون شككوا في إمكانية نجاح اقتراح محمد الطوسي، باستخدام ذلك المسحوق العجيب، المسمى بالبارود، لإحداث عدة انفجارات في أماكن متفرقة من أجل بث

الفوضى في جيش الغزاة، ولكن قائد فرسان الرابعية، على خلافهم، كان حريصًا على الأخذ برأي الفتى منذ أن أظهر حصافة ودقة في الملاحظة، عندما اقترح اللّجوء إلى ضفاف نهر السند. كما بات يدرك كم هو هائل ذلك المسحوق الأسود العجيب، فقد رأى أثره بأم عينيه عند مخيم المغول! لذلك عندما طلب منه محمد الطوسي منذ أيام، أن يسمح له بالذهاب مع جُلّاب وبعض فرسانه للبحث عن المواد المطلوبة لصنع ذلك المسحوق من أجل استخدامه مرة أخرى مع عدوهم، وافق على الفور ودون تردد، فالحكمة ضالة المؤمن، أنّى وجدها فهو أحق الناس بها....

المئات من فرسان المغول ما بين قتيل وجريح..... كانت هذه حصيلة اليوم الأول من المعركة. في اليوم الثاني وضع فرسان الرابعية العراقيل بينهم وبين جيش المغول، ما أبطأ من تقدمهم نحوهم، وجعل المعركة أقل ضراوة من اليوم الذي قبله. كانت الأمطار الكثيفة في اليوم الثالث هي الحليف الأكبر لفرسان الرابعية، وما صاحبها من عاصفة رعدية تسببت في اقتلاع خيام المغول التي لم تكن مثبتة بشكل جيد في الأرض الرخوة.... استمر الحال هكذا من معارك خفيفة بين الطرفين حتى جاء اليوم العاشر، حيث كانت الأرض قد جفت، والسماء الزرقاء خلت من السحب الماطرة، فتفاءل المغول وعلى رأسهم قائدهم تولويْ خان الذي أراد أن يحسم المعركة التي طالت عن حدها المعقول، فأمر بهجوم كاسح لجميع فرسانه بعد أن تأكد من خلو أرض المعركة من جميع العراقيل، وبالأخص البارود!

* * *

تلاقت السيوف، واشتدت المعركة بين الطرفين غير المتكافئين.... وعلى الرغم من هذا الفارق الهائل بين الجيشين في

العـدد والعتـاد، إلّا أن فرسـان المغـول لـم يواجهـوا نـدّاً كالذي كان أمامهم في ذلك اليوم العصيب، وكأن الموت نفسـه كان يخشـاهم! ولكن على الرغم من تساقط المغول كالذباب، إلّا أن واقع أعدادهم الكبيرة مقارنة مع خصمهم، بدأ يفرض نفسه على أرض المعركة.....

ظل قائد فرسان الرابعية بجوار محمود، لا يفارقه. فعلى الرغم من قوة الفتى الجسدية، إلّا أن مهارة القتال لديه لم تكن بمقدورها أن تجاري مهارة فرسان المغول؛ ولكن حماسته الظاهرة، إضافة إلى بأس قائد فرسـان الرابعية، مكّنته من المواصلة حتى قبيل مغيب الشـمس، عندما بدأت الأمور تسير لمصلحة جيش تولويْ، خاصة بعدما أصيب فرس الأمير الخوارزمي، ووقع على الأرض بعيدًا عن مرافقه الباسل، فأحاط به عدد من فرسان المغول. حاول قائد فرسان الرابعية اختراق المغـول مـن أجـل الوصول إليه، ولكن هذه المحاولة باءت بالفشـل الذريع عندما أصيب فرسه هو الآخر، فوجد نفسه كذلك على الأرض محاطًا بعدد آخر من مقاتلي المغول!

تَرَجل تولويْ من على فرسـه ورجاله من حوله، ثم اقترب من محمود بن ممدود شاهرًا سيفه، منتشيًا لهذا النصر العظيم....

- "سـأعرض عليك فرصة هائلة." قال باسـتهزاء، مخاطبًا الأمير الخوارزمـي، زوج ابنـة أخيـه التـي لـم يعثـر عليهـا حتـى تلـك اللحظة....

- "إن قلت لي أين تختبئ ياسـمي، فسـأمنحك موتة سـريعة، خالية من العذاب."

- "سـحقًا لك يا عدو الله!" صرخ محمود في وجهه، ثم هاجمه بسـيفه، ولكن تولويْ صد ضربته بكل يسـر، مشـيرًا بكفه الآخر

لفرسانه الذين أرادوا التدخل بالثبات في مواقعهم. حاول محمود مرة أخرى، ولكن نصله لم يجد رقبة غريمه الأكثر مراسًا في فنون المبارزة. استمر هذا الحال برهة من الوقت، حتى شعر تولويْ بالملل، ثم بحركة سريعة أطاح بسيف محمود.

- "القوة وحدها لا تساوي شيئًا أمام المهارة." قال تولويْ بنبرة ساخرة، ثم بكل ما أوتي من قوة ومهارة أطلق سيفه نحو عنق الأمير الخوارزمي حتى يقتلع رأسه من على جسده، ولكن فجأة، قبيل ملامسة نصل السيف لهدفه، ظهر عائق في الطريق..... سيف آخر، يحمله رجل ظهر من حيث لم يرَ، صدّ ضربته من دون عناء! ذُهل تولويْ من هذا الذي حدث توّاً؛ فكيف استطاع هذا الرجل الغريب أن يتخطى جميع فرسانه حتى بلغ هذا المكان بالقرب منه؟! تراجع قليلاً إلى الوراء، وتجمع على الفور عدد من رجاله حوله، قبل أن يتنبه إلى شخص ذلك الغريب.....

- "عبدالرحمن! الرجل ذو العمامة الخضراء الذي أرهب اثنين من فرسان المغول في بخارى! لكم اشتاق نصل سيفي إلى رقبتك!"

ما كاد تولويْ ينهي جملته حتى انهال على عبدالرحمن بسيفه.... ضربة تلو الأخرى شقّت طريقها في الهواء، بعيدًا عن جسد خصمه، ما زاد من غضبه! حاول الكرة من جديد، ولكن هذه المرة ارتطم سيفه بسيف عبدالرحمن الذي لم يبدِ أي انزعاج، وكأنه في مبارزة ودِّيَّة، وليس وسط معركة ضارية! بدأ تولويْ يشعر بالتعب من محاولاته المتكررة الفاشلة للوصول إلى عنق خصمه العنيد، فأومأ لفرسانه بالتدخل من أجل إنهاء هذه المهزلة.....

حاول محمود أن يمسك بسيفه من أجل مساعدة عبدالرحمن،

بعدما شاهد خمسة من المغول متجهين نحوه شاهرين سيوفهم، ولكن عبدالرحمن سبقه إلى ذلك السيف وبحركة خفيفة لا يعلم كيف استطاع أن يقوم بها شيخ عالم، من المفترض أنه ليس من أهل الحرب، تمكن من إسقاط سيف الفارس الأول، ثم بيده الأخرى أسقط سيف الفارس الثاني، ثم الثالث فالرابع والخامس، حتى أصبح نصلا سيفه الأيمن والأيسر كالمقص حول عنق تولويْ!

حالة من الفزع عمّت المكان، حيث أدرك المغول أن قائدهم قاب قوسين أو أدنى من أن يُفصل رأسه عن جسده! تدافع الجميع إلى المشهد شاهرين سيوفهم وحرابهم وسهامهم نحو عبدالرحمن.... حياة تولويْ خان مقابل حياته، هكذا كانت الرسالة!

- "أكاهن أنت أم ساحر؟!" بادر ابن جنكيز خان الأصغر بالسؤال، في حالة من الذهول، غير مدرك كيف تمكن هذا الرجل بمفرده من أن يتغلب عليه وعلى خمسة من أفضل فرسانه! أراد أن يفهم أي سحر أو كهانة هذه التي تمكن صاحبها من هذا الفعل!

- "لا هذا ولا ذاك." أجابه عبدالرحمن، ثم أومأ له لكي يلتفّ برأسه نحو الأفق من ورائه.

تنبه فجأة تولويْ وجميع المغول إلى التراب المنبعث من بعيد. في بادئ الأمر حسبوا أنها عاصفة رملية قادمة في اتجاههم من ناحية الغرب، ولكن سرعان ما تبين لهم حقيقة الأمر عندما بدأت الأرض تهتز من تحت أرجلهم من أثر عدو الخيول، ثم لاحت لهم من بعد ذلك الرايات، فأدركوا على الفور أن دماء تولويْ خان لم تكن هي وحدها المهددة بأن تسيل ذلك اليوم، بل كان جميعهم على وشك أن يُبادوا لو لم ينسحبوا الآن من أمام ذلك الجيش الهائل القادم نحوهم من بعيد!

51

أربعون ألف مقاتل يحملون رايات الخوارزميين عرفوا طريقهم إلى ضفاف نهر السند بعد أن أبادوا الجيش الذي تركه تولويْ حول أسـوار غزنـة؛ بـل إن الخـان المغولي الأصغر كاد هـو الآخر يُباد مع جيشـه الذي جاء به للقضاء على فرسـان الرابعية، لولا أن كبار قادته استطاعوا إيجـاد ثغـرة مكنتهـم من الفرار عبرهـا...... هزيمة منكرة للمغـول لـم تحـدث لهم من قبـل، وعلى أيـادي الخوارزميين الذين كانوا قاب قوسين أو أدنى من أن يُمحى أثرهم من على وجه البسيطة!

لـم تشـهد الضفـة الغربيـة لنهـر السـند حالة من الفـرح وأجواء مـن الاحتفـالات كتلـك التي كانت في ذلك اليوم؛ وامتد الفرح أيضًا إلـى مدينـة غزنـة وكل القـرى والقلاع المجاورة لها؛ فأخيرًا اسـتطاع الخوارزميـون أن يوقفـوا مـد المغول! القيامة لم تكن على وشـك أن تقوم! والعالم لم يكن على وشك ألا يكون! العوام أصبحوا يتحدثون عـن البطـل العظيـم الذي أنقذ الأمة؛ ذلـك المُخَلِّص الذي جاء على رأس فرسانه ليُنزل بطشه على الأعداء..... إنه البطل المغوار وفارس فرسان المسلمين: السلطان جلال الدين منكبرتي!

* * *

- "الفضل لا بد أن يُنسب لأهل الفضل." قالت نوارن لابنها بعد فراغه من عناقها وتقبيل يديها....
- "فلولا الله ثم عبدالرحمن وكذلك فرسان الرابعية لهلكنا منذ زمن

بعيد، خاصة بعد فرار أبيك من بخارى!"

- "لا داعي لمثل هذا الحديث. لقد فعل أبي، رحمة الله عليه، ما بوسعه." أجابها جلال الدين دون أن يخفي استياءه من طريقة حديثها عن أبيه.

- "هل كنت ستدافع عنه هكذا لو أنه ولى غياث الدين الحكم بدلًا منك؟!"

- "لقد مات يا أمّاه، ولا يجوز لنا الآن سوى الترحم عليه." حاول جلال الدين أن يضع حدّاً لحديث أمه المهين عن أبيه، خاصة أمام ابن أخته محمود، ولكنها أصرّت على الاستمرار....

- "الموت لا يعفي الإنسان ممّا اقترفه من أخطاء في أثناء حياته، ومن الأحرى لك يا بني أن تعتبر من أخطاء أبيك."

- "لماذا هذه العظة الآن، وقد خرجت من نصر مبين، تغلبت فيه على العدو اللعين المتربص بنا، وانتقمت لأبي السلطان علاء الدين؟!"

- "لأني أخشى عليك أن تغتر بسبب نصر يتيم تحقق لك على عدو أظهر لك ذَنَبه ولم ترَ حتى الآن رأسه! خطر المغول لا يزال قائمًا يا جلال الدين، وعليك أن تستعد له الآن أكثر من أي وقت مضى."

- "جدتي محقة يا خال. جيش تولويْ لا يقارن بجيش أبيه جنكيز خان؛ ولكن هذا لا يعني بأننا لا نستطيع التغلب عليه، بل نستطيع إن استخدمنا طرقًا غير تقليدية في الحرب، كما فعلنا قبل مجيئك." قاطع محمود الحوار الدائر بين جدته وخاله؛ وما

إن فرغ من حديثه حتى انفرط السلطان جلال الدين في الضحك، غير مصدق ما تبادر إلى مسمعه من نصائح في فنون الحرب والقتال قادمة من ابن أخته، الفتى الذي لم يشهد في حياته القصيرة معركة واحدة قبل الآن!

- "ومن الذي سيعلمني هذه الطرق الجديدة في الحرب؟ أنت أم ذلك الشيخ المعتوه أم غلام الزنديق؟! لعلك ترغب حتى أن أجعل ذلك الرجل، الذي قاد مجموعة من القرويين، على رأس فرقة من فرق جيشي، مكافأة له على تعريضك أنت وجدتك للخطر الداهم، حتى كدتَ تُقتل لولا أني أتيت في اللحظة الأخيرة!"

- "فرسان الرابعية ليسوا مجرد مجموعة من القرويين، بل مقاتلون أشدّاء، لا تنقصهم الحنكة، ولا يتعالون على المشورة. لولا ذلك لما استطاعوا أن يصدوا عدوًا يبلغ عشرة أضعافهم!"

- "كفى!" صرخ السلطان جلال الدين في وجه محمود....

- "يبدو أنك نسيت مع من تتحدث! أم أن زواجك من فتاة همجية جعلك مثلها!" أمسك جلال الدين محمودًا من قميصه، وقد بلغ غضبه أشده قبل أن يكمل وعيده.....

- "تالله لولا أني أقدر ما مررت به من ويلات، لرأيت مني شأنًا آخر!" وبهذا غادر جلال الدين خيمة أمه، غير راغب في سماع المزيد منها أو من ابن أخته الفتى محمود بن ممدود....

* * *

لم يسعد الأمير غياث الدين بما توارد إلى مسمعه من حفاوة العوام بأخيه السلطان، متناسين دوره في قيادة فرسان الكانكالي الذين

يشكلون نصف الجيش؛ هؤلاء الفرسان المنتمون إلى عشيرة جدته تركان خاتون، والّذين لولاه لما قبلوا الانضمام إلى جيش جلال الدين ابن نوران! ولم يكن هو وحده المستاء مما كان يحدث، بل حتى أرطغرل، قائد فرسان الكانكالي، عبّر مرارًا عن تذمره وتخوفه من أن يصبح الغزنويون على حسابهم هم أصحاب الأمر والنهي فيما تبقى من مملكة خوارزم.....

- "عشيرة الكانكالي لن تقبل أبدًا أن تصبح في مكانة دنيا لهؤلاء الأفغان!" ردد أرطغرل أكثر من مرة لأميره الخوارزمي الذي لم يرضَ بغيره سلطانًا عليه.

كان غياث الدين مدركًا أن حاجة أخيه له كبيرة، خاصة أنه الوحيد القادر على السيطرة على فرسان الكانكالي الأشداء، وأن جلال الدين لن يستطيع بمن معه مواجهة جيش جنكيز خان القادم إليهم، إن انسحبوا هم. لذلك ارتأى أن هذه هي الفرصة السانحة لكي يساومه على ما يريد: أن تتم مبايعته وليّاً للعهد، مبايعة غير قابلة للنقض! وعلى هذا الأساس ذهب غياث الدين بعد أن عزم أمره، ومن خلفه قادة فرسان الكانكالي، إلى خيمة أخيه السلطان ليحمل له عرضه الأخير، غير القابل للنقاش.....

رفض جلال الدين منكبرتي بشدة عرض أخيه، وحاول إقناعه بأن الوقت ليس مناسبًا لمثل هذه المساومات، خاصة أن جيش جنكيز خان الراغب في الانتقام لهزيمة تولويْ كان على بعد مسيرة بضعة أيام؛ ولكن غياث الدين كان مُصرّاً على طلبه..... إما ولاية العهد أو الانصراف بنصف الجيش! رفض جلال الدين المساومة، فكانت الفُرقة، ليتقلص جيش السلطان إلى عشرين ألف مقاتل في مواجهة جيش جنكيز خان البالغ ضعف ذلك العدد!

52

مع وصول جنكيز خان وفرسانه ساحة المعركة عند نهر السند، كان جيش السلطان جلال الدين منكبرتي الذي أحرز أول انتصار على المغول، قد تقلص بشكل كبير! لم يكن الأمير غياث الدين وفرسان عشيرة الكانكالي هم وحدهم من غادر أرض المعركة قبيل مجيء جيش المغول، بل سبقهم قبل ذلك ببضعة أيام من تبقى من الجيش الصغير الذي أرسلته قرية الرابعية مع محمود بن ممدود وجدته نوران خاتون. تلك الفرقة التي وجدت نفسها في مواجهة غير متكافئة مع جيش تولويْ، وكان بإمكانها أن تفر ولم تفعل حتى كادت تباد عن بكرة أبيها، قد وجدت نفسها الآن في موضع غير المرحب به. الوحيد الذي كان مرحبًا به من قبل سلطان الخوارزميين فلم يرحل هو عبدالرحمن، وذلك لسابق عهده به ولمكانته الخاصة عند أمه. رحل جُلّاب ورحلت نور وكذلك محمد الطوسي، مع من رحلوا، تاركين وراءهم ذكرى صحبة عجيبة، وإن كانت قصيرة بمقاييس الزمان، إلّا أن أثرها كان كبيرًا وعميقًا بمقاييس الوجدان. كانت هذه هي نقطة الفراق كما أدركها الجميع، فالطريق لم يعد بالمتسع الذي يسمح للكل بالعبور من خلاله. لعل محمد الطوسي كان الوحيد الذي حاول أن يجادل من أجل البقاء، ولكن عبدالرحمن كان له رأي آخر؛ فهو ليس مثل واصل بن غيلان، ممن يتخذون تلامذة وأتباعًا. طريقه يسلكه مع

الآخرين عند الحاجة، والحاجة لم تعد قائمة بينهما.....

* * *

بقدر ما سمع مراد قطز عن جنكيز خان، سواء في حياته السابقة أو في وضعه الحالي، ما كان ليتخيل هذا الذي شاهده أمامه، عندما بدأت المعركة بين جيش خان المغول الأعظم وجيش السلطان الخوارزمي الجديد، جلال الدين منكبرتي! أمر كان يفوق الوصف.... لم يسبق أن شاهد شيئًا مثله. حتى المعارك التي شاهدها بين جيش تولويْ وفرسان الرابعية، ثم جيش جلال الدين بعد ذلك، لم تكن بهذه الحدة والجسارة والبطش! تولويْ كان لا شيء مقارنة بأبيه؛ فوجود جنكيز خان بفرده كان كفيلاً بإنهاء أي معركة لصالحه!

كانت هذه أول مرة يرى فيها خان المغول الأعظم، وما رآه مراد كان أشبه بالسحر! أخيرًا، علم لماذا الناس كانوا يرتعدون لسماع اسم جنكيز خان! الرجل لم يكتفِ فقط بقيادة جيشه من بعيد، بل كان في مقدمة فرسانه يقاتل بضراوة وبأس، وكأنه لا يخشى الموت! ورجاله كانوا يقاتلون مثله، وكأنهم لا يريدون شيئًا في هذا الكون سوى إرضائه. مهابة عجيبة كان جنكيز خان يفرضها على خصومه، فتراهم ينهزمون قبل أن ينهزموا بمجرد المثول أمامه! شتّان ما بين تولويْ خان وأبيه جنكيز خان..... هذا ما شعر به مراد قطز، عندما رأى سير المعركة منذ ساعاتها الأولى، وهذا ما أدركه السلطان جلال الدين منكبرتي، عندما وجد رجاله يتساقطون كما تتساقط أوراق الشجر في فصل الخريف!

* * *

عمّت الفوضى في أرجاء جيش الخوارزميين، وأصبح كل شخص يبحث عن ملاذه. تفككت الصفوف واختُرقت، حتى لم يعد

القائد قادراً على مخاطبة فرسانه أو توجيههم. بات هناك خيار واحد أمام الخوارزميين وسلطانهم إن رغبوا في النجاة... الفرار!

حاول جلال الدين أن يجد ثغرة في جيش المغول لكي يفر منها، ولكنهم كانوا كالبنيان المرصوص، ومحاولة اختراقهم كانت أشبه بالانتحار! احتار السلطان، وأخذ يطلب المشورة من قادته الذين كانوا أكثر ذعرًا منه، ولكن دون فائدة....

- "النهر!" صرخ محمود بن ممدود.....

- "المغول لن يلاحقونا عبر النهر؛ لهذا أتينا إلى هنا، حتى نفر عبره إن ساءت الأحوال."

شرح محمود لخاله على عجالة ما استنتجه محمد الطوسي، ووافقه عليه قائد فرسان الرابعية.

- "ماذا لو كان قد جانبه الصواب فيما استنتج؟" تساءل جلال الدين، غير راغب في الأخذ بمشورة تلميذ الزنديق الذي أمر أبوه بقتله.

- "لا يوجد لنا خيار آخر الآن." أجابه محمود، وصدَّقه من تبقى معهما من القادة.

- "مولاي، علينا التوجه إلى النهر الآن قبل فوات الأوان!" قال أحد القادة متوسلًا.

- "بل يجب علينا التوجه أولاً إلى خِيَم النساء! لن نترك جدتي وياسمي!" نهره محمود، ثم نظر إلى خاله السلطان الذي بدا حائرًا، وكأنه أراد أن يتبع نصيحة القائد، ولكنه استشعر الحرج!

- "استودعهما عند الله يا مولاي، فجيش المغول قد أصبح بيننا

وبينهم!" ما كاد يفرغ القائد من جملته حتى بدأت السهام تتساقط من حولهم، فأصيب عدد من الفرسان، ثم لاحت في الأفق فرقة من فرسان المغول متقدمة نحوهم. حسم حينها السلطان الأمر، فلم يجد أمامه خيارًا غير الفرار والنجاة بنفسه، على خلاف محمود الذي عزم أمره وانطلق نحو النهر، ولكن من أجل العبور عبر شاطئه إلى خِيَم النساء!

* * *

ساد الذعر بين النساء اللواتي هرعن نحو القارب الوحيد على الشاطئ من أجل العبور به إلى الضفة الشرقية لنهر السند هربًا من السبي من قبل فرسان المغول! النيران كادت تلتهم الخيام، والجثث كانت تتساقط أمامهم من أثر السهام. استطاعت نوران بصعوبة شديدة، وسط تدافع الأخريات، الصعود على القارب، ولكن ياسمي لم تستطع. وقفت على الشاطئ تنظر إلى ذلك المشهد الأليم..... إلى النساء وهن يتعلقن بأطراف القارب الذي انطلق من مكانه بعد أن قطعت إحداهن الحبل الذي كان يربطه بجذع شجرة. حاولت نوران قبل انطلاق القارب أن تمسك بيد ياسمي لكي تشدها إليها، وعندما تبين لها استحالة هذا الأمر، لبعد المسافة بينهما، أرادت النزول، ولكن التدافع الشديد أسقطها قبل أن تتمكن من ذلك..... لم تعد ياسمي بمقدورها رؤية جدة زوجها، فقد اختفت نوران خاتون وسط كومة النساء! لم تستطع فعل أي شيء غير الوقوف على الشاطئ، فلو كانت تستطيع العوم لذهبت خلف القارب، ولكن ما ينطبق على رجال المغول ينطبق أيضًا على نسائهم؛ فهم، والبحار والأنهار ليسوا بصحبة!

- "هيّا، امتطي الحصان من خلفي." جاء صوت محمود من

خلفها، حيث ظهر لها فجأة دون أن تنتبه....

- "أين جدتي؟!"

أخبرته بما حدث في القارب بعد أن امتطت خلفه، فما كان منه إلّا أن قفز بجواده في النهر، في محاولة منه لكي يلحق بجدته. لفَّت ياسمي ذراعيها حول خصره، حتى لا تسقط في الماء، ثم أخذت تنظر نحو وسط النهر حيث أصبح القارب. لم يكن هناك أي أثر لنوران خاتون وسط كومة النساء اللواتي كن فوق بعضهن، حتى إن القارب بدأ يميل من أعدادهن الكبيرة! شعرت حينها ياسمي بقلبها وهو يقفز إلى حنجرتها!.... لم يكن القارب فقط يميل! بل كان على وشك أن يغرق!

بكل ما أوتي من مهارة، حاول محمود أن يدفع بجواده المُنهك لكي يسرع حتى يلحق بجدته، ولكن دون جدوى؛ فما كان منه إلّا أن قفز من عليه وعام نحو القارب الغارق.... النساء من حوله حاولن الاستنجاد به، ولكنه لم يلتفت إليهن لانشغاله بالبحث عن جدته التي لم يظهر لها أي أثر. أخذ يصرخ مناديًا لها، ولكن دون أن يتلقى أي رد.... فقط صراخ النساء! غاص في النهر في محاولة يائسة منه للبحث عنها، ولكنه لم يتمكن من رؤية أي شيء.... لم يكن هناك أي أثرٍ لنوران خاتون! ظل محمود يبحث ويغوص وينادي حتى أدركه الإعياء، ولكنه على الرغم من ذلك تحامل على نفسه، ودفع عنه اليأس، ليستمر في البحث عنها. ظل على هذا الحال حتى خفتت الأصوات من حوله.... لم يعد هناك صراخ، ولم يعد هناك عويل.... توقف محمود عن بحثه وأخذ ينظر حوله، فأدرك سبب هذا الهدوء المفاجئ.... أدرك حجم الكارثة!

53

- "فرّ جبان الدين وتركها! فرّ وتركها لكي تهلك!" ظل محمود يردد مخاطبًا نفسه بعد أن وجد طريقه عومًا إلى الضفة الشرقية من النهر، حيث كانت تنتظره ياسمي....

- "محمود.... أنا آسفة على ما حدث. ليته كان بيدي فعل أي شيء...." حاولت التهدئة من روعه ولكنه قاطعها....

- "بل هو الذي يجب أن يتأسف! جبان الدين منكبرتي، الذي فرّ بجلده، وترك أمه وباقي نسائه حتى يلقين مصيرهن البائس!" أخذ يبكي بعد أن ضمته ياسمي لصدرها، وبصوت متحشرج أضاف:

- "كن يغرقن أمامي، وما كان بوسعي فعل أي شيء لهن! كل همي كان منصباً في أن أجد جدتي، فتركتهن يغرقن!"

- "لا تلم نفسك، ولا تلم خالك، ولا تلم حتى المغول..... فهذه هي الحرب؛ الكل فيها خاسر حتى المنتصرين."

التفت محمود وياسمي إلى عبدالرحمن الذي ظهر من خلف الأشجار مقبلاً نحوهما بمفرده، وكأنه كان ينتظرهما في المكان نفسه.

- "جنكيز خان لم يخسر شيئًا." أجابه محمود، متحديًا إيّاه ومتهكمًا على ما قاله.

- "بل خسر.... وإن كنت إلى الآن لا تعلم ما الذي خسره هو،

وكسبته أنت، فإنك لم تتعلم شيئًا بعد."

فاجأ محمودًا ردُّ عبدالرحمن. لم يعلم بماذا يجيبه، واكتفى بالتفاتة نحو ياسمي التي ظلت صامتة في حالة من الحزن....

- "ماذا سنفعل الآن؟" جاء التساؤل من محمود بعد برهة من الزمن عمّ فيها السكون.

- "هل ترغب في اللحاق بخالك السلطان؟" سأله عبدالرحمن.

- "لا!" أجابه على الفور ودون تفكير.

- "إذًا لا خيار لكما سوى الاتجاه شمالاً إلى مدينة خوارزم، حيث تتحصن تركان خاتون وسط عشيرة الكانكالي."

- "وإلى متى سنظل نهرب هكذا من مدينة إلى أخرى كالصعاليك؟!" انفجر محمود وقد ضاق به الحال، حيث وجد نفسه بين خيارين أحلاهما مر: خاله الذي لم يعد يطيق سماع اسمه، أو أم جده التي كان يعلم جيدًا أنها لا تحبه فقط لأنه من نسل نوران!

- "لماذا لا نعود إلى قرية الرابعية، ونعيش فيها بأمان بعيدًا عن كل هذا القتل؟" تساءلت ياسمي آمِلةً أن يوافقها محمود على هذا الاقتراح.

- "لو ذهبتما إلى الرابعية، فلن تستمر آمنة كما تظنين. سيحدث لها كما حدث لمدينة وادي القُنَّب." أجابها عبدالرحمن بما لم تكن تود سماعه، وإن كانت في قرارة نفسها مدركة أنه محق فيما قال. فالمغول لن يهدأ لهم بال حتى يقضوا على جميع أمراء خوارزم بمن فيهم محمود، والكاهن تبتنكر لن يكف عن تتبّعها،

سـواء عـن طريـق تولويْ أو غيره..... ذهابهمـا إلى قرية الرابعية وبقاؤهما هناك لن يجلب لها سوى الدمار! وبهذا كان الأمر قد حسم نحو الشمال، وكأن هذا ما أراده عبدالرحمن.

54

كـم هـي غريبـة هـذه الحياة، شـعر مـراد؛ فمن جهـة أفنى خان المغول سلطان الخوارزميين، ومن جهة أخرى ألّف الحب بين قلبي حفيدة الخان وحفيد السلطان حتى أثمر هذا الحب عن نبتة وجدت طريقهـا إلـى رحـم الأميـرة المغوليـة، وكأن عالم العشـق والهوى له مقاييسه الخاصة التي تسمو فوق مشكلات الحياة ومآسيها. لسبب ما أحس مراد بالراحة لما آلت إليه الأمور، وهذا في الوقت نفسه أخافه. فكيف يشعر بالراحة بعد هذا الكم من القتل والدمار؟! حاول أن يقنع نفسـه مرارًا بأن ما شـاهده في الآونة الأخيرة أمر يسـتحق الاستهجان والتقبيح، ولكنه لم يستطع. في قرارة نفسه كان مرتاحًا، بل راضيًا عمّا جرت عليه الأحداث! تذكر أنه ذات مرة، قبيل مغادرته لقرية الرابعية، أخبرته أم الوفا بأن حدس الإنسـان المتصالح مع نفسـه ومع الكون عـادة مـا يكـون صحيحًا مهما بلغ من غرابة..... ولكن السـؤال: هل أصبح متصالحًا مع نفسه ومع الكون؟ هذا ما لم يكن متيقنًا منه بعد.

- "ماذا سيكون مصيرهما بعدما تسقط مدينة خوارزم، كما سقطت باقي مدن المملكة؟" سـأل مراد عبدالرحمن بعد مرور أيام عدة من السير نحو الشمال.

- "ومن قال لك إنها ستسقط؟" جاءته الإجابة على صيغة سؤال، كما هي عادة عبدالرحمن.

- "هكذا تسير الأحداث. دروب الأقدار التي تم السير عليها تتجه إلى هذه النهاية." جاءت إجابة مراد بشكل عفوي ودون تكلف.

- "يبدو أن أم الوفا كانت محقة في اعتقادها."

لم يفهم مراد ماذا يقصد عبدالرحمن بجملته هذه، ولكن دهشته لم تستمر طويلاً....

- "كانت على ثقة بأنك ستجد طريقك نحو التصالح مع الذات.... أما أنا فكنت قد بدأت أشك في ذلك، ولكنها ليست المرة الأولى التي يجانبني فيها الصواب.... أنت محق في أمر سقوط مدينة خوارزم، ولكنك أخطأت التوقيت. فالمدينة قد سقطت منذ أيام، وتركان خاتون وقعت في أسر المغول ومعها عدد من بناتها. مملكة خوارزم أصبحت في قبضة جنكيز خان، وباستطاعته أن يفعل بها ما يشاء. لم يعد هناك أي حائل بينه وبينها."

- "وماذا عن محمود وياسمي؟!" جاء سؤال مراد بعد أن أكد له عبدالرحمن مخاوفه.

- "على كلٍّ منهما أن يسير في الطريق، كما سرت أنت فيه."

- "ولكن...." فجأة تنبه مراد إلى أمرٍ لم يعره بالاً من قبل. المكان الذي وصلوا إليه كان مألوفًا لديه. لقد جاء إلى هنا من قبل. التضاريس من حوله كانت هي نفسها.... نظر شرقًا فوجد التلة نفسها بتشكلاتها الصخرية التي لفتت انتباهه عندما وجد نفسه هنا أول مرة. انتقل علي الفور إلى تلك التلة، ثم أطلّ من عليها، فوجد أمرًا كان قد شاهده من قبل، ولكن بأعداد أضخم هذه

المرة! مجموعة من قوافل المغول مع عدد كبير لا يستهان به من الفرسان. نظر إلى عبدالرحمن، وبدهشة كبيرة خرج منه السؤال:

- "ما الذي فعلته؟!"

- "عدنا إلى حيث بدأنا.... إلى مشارف مدينة أترار." أجابه الرجل العربي الغريب ذو العمامة الخضراء، دون أدني تحفظ....

55

- "والله ما طلعت شمس ولا غربت، إلّا وحبك مقرون في أنفاسي.... ولا خلوت إلى قوم إلّا وأنت حديثي بين جُلاسي.... ولا ذكرتك محزونًا ولا فرحًا، إلّا وأنت بقلبي بين وسواسي.... ولا هممت بشرب الماء من عطش، إلّا رأيت خيالًا منك في الكاس.... ولو قدرت على الإتيان جئتكمُ، سعيًا على الوجه أو مشيًا على الراس.... ويا فتى الحي إن غنيت لي طربًا، فغنني وأسفًا من قلبك القاسي.... مالي وللناس كم يلحونني سفهًا، ديني لنفسي ودين الناس للناس."

سمعت ياسمي ذات يوم أم الوفا وهي تنشد تلك الأبيات، فسألتها عنها، فأخبرتها بأنها لعاشق أعماه عشقه عن إبصار الحقيقة، فضلّ الطريق، وذكرتها بأن كل قلب هو في حاجة إلى عقل يرشده من أجل أن تستقيم خطاه. تذكرت ياسمي ذلك الحدث، عندما أدركت ما كان على وشك أن يحدث!

أخبرها جُلّاب يوماً ما عمّا قاله له حيدر الكاشف وهو يحتضر، عن الحلقة التي يجب أن تكتمل..... فهل عودتها إلى هذا المكان هي التي تُكمل الحلقة؟ أخذت تتساءل..... إنه المكان نفسه الذي التقت فيه مع عبدالرحمن أول مرة، وليس بعيدًا عن هنا تعرفت إلى محمود وجدته نوران خاتون عندما اجتمعت القافلتان لكي تسيرا سويّاً إلى مدينة بخارى. مجيئهم إلى هنا، كان يعني أنهم لن يذهبوا

إلى تركان خاتون، هكذا أدركت ياسمي، بل لعل المدينة التي كانت تتحصن فيها قد سقطت هي الأخرى. هكذا كانت تسير الأمور؛ بدأت تقرأ الأحداث من حولها كما يقرأ المرء الخريطة التي توضح له معالم الطرقـات، فثقُلـت جفونهـا. أدركت أنها لن تـرى محمودًا بعد اليوم! عانقته بشـدة، فاسـتغرب من هذا التصرف المفاجئ، واسـتغرب من مجيئهم إلى هذا المكان، حيث قوافل المغول قد خَيَّمت من حولهم في كل مكان.

- "ماذا دهاك؟" تساءل الأمير الخوارزمي، مستعجبًا تصرف ياسمي التي آثرت الصمت، ولم تجبه.
- "لقد آن الأوان." قال عبدالرحمن، مخاطبًا الزوجين.
- "آن أوان ماذا؟" لم يفهم محمود ما الذي كان يحدث، على خلاف زوجته.
- "اذهب معه وستدرك كل شيء." طَمأنته ياسمي.

ارتاب محمود مما كان يجري؛ فشيء ما لم يكن على ما يرام. لـم يرغـب فـي الذهـاب مـع عبدالرحمن، بـل أراد أن يتـرك المكان بأسره، ويرحل بعيدًا عن المغول.

- "هذا ليس الطريق إلى مدينة خوارزم! لماذا أتيت بنا إلى هنا؟!"

لـم يتلـقَّ الجـواب عـن سـؤاله، فأخذ ينظر إلى ياسـمي، فلعلها تجيبـه هـي، ولكنهـا لم تفعـل، بل أخذت تتراجع إلى الوراء منكسـة رأسها بعد أن غمرت الدموع وجنتيها.

- "ياسمي؟! ما الخطب؟! ما الذي يحدث؟!"

مـا كاد يفـرغ مـن أسـئلته حتى وجد رجلين مـن رجال المغول

يمسكان به، كل من ذراع في محاولة لتقييده. فوجئ محمود مما كان يجري، ولكنه أخذ يقاوم بضراوة حتى طرح أحد الرجال على الأرض، وكاد يطرح الآخر لولا أن تلقى ضربة على مؤخرة رأسه من مغولي ثالث طرحته على الأرض، فأفقدته وعيه!

- "يا له من فتى قوي!" قال الرجل، وهو يسلم عبدالرحمن كيسًا من النقود....
- "هكذا يكون العبيد وإلّا فلا.... ما اسمه بالمناسبة؟"
- "سمِّه ما شئت." أجابه عبدالرحمن، ثم رحل عنه.
- "فتى قوي مثله وشديد البأس والشراسة كالكلب الهائج، لا يستحق سوى لقب واحد..... قُطُز!"

56

مسحت عبراتها من على وجنتيها، ثم نظرت إلى عبدالرحمن. كانت تدرك جيدًا أن الأمر لن ينتهي عند هذا الحد، فالحلقة لم تكتمل بعد، وإن كادت. لم تكن هناك حاجة لكي تخبره بأنها مستعدة.... بأن يأتي بما تبقى لديه؛ فاكتفت فقط بأن تطلب منه طلبًا أخيرًا: ألّا تراه مرة أخرى بعد اليوم....

- "هـذا فـراق بيني وبينكـم، بعد أن اسـتطعتم معي صبرًا." ما كاد عبدالرحمـن يفـرغ مـن جملته حتى التف من حول ياسـمي عدد مـن فرسـان المغـول الذين لم ترَهم مـن قبل. لم تكن في حاجة إلـى أن يخبرهـا أي أحـد منهم من يكونون أو ماذا يريدون منها، فكل شيء الآن قد بان لها وانكشف. إن كانت حلقة محمود قد بدأت هنا من على مشـارف أترار واكتملت، فحلقتها هي بدأت منـذ زمـن أبعـد في خيمة الكاهن تبتنكر، وهناك يجب أن تنتهي. ولكن الكاهن الأعظم ليس بالمغفل حتى يُحضرها إلى قراقورم، عاصمـة جدهـا، وهـو لا يـزال فيها. بـل كان عليه أن ينتظر حتى يتركهـا خـان المغول مع فرسـانه من أجـل حرب تطول أوزارها، فتخلو له المدينة. حينها فقط يسـتطيع أن يأتي بها إليه..... إلى خيمتـه لكـي يفعـل مـا كان يجب أن يفعله منـذ ذلك اليوم الذي علم فيه بحقيقتها، عندما استطاعت أن ترى حفيدها مراد وحفيدته فيرجينيا!

57

- "هـل تعلميـن مـا هـو أكثر شـيء أخافني منـك؟ أن الكون لا يصبح واضح المعالم وأنت من حولي، وكأن وجودك فيه يشكل عائقًا لي."

آثـرت ياسـمي الصمـت، ولم تـرد على ما قالـه الكاهن تبتنكر. أرادت أن تسـتمع إليـه وهـو يحدثهـا في خيمته التـي لم تدخلها منذ ذلك اليوم المشؤوم.

- "أعترف لك بأني لم أحب أباك جوشي قط. ليس لأني أشك في نسبه، فأنا على يقين أنه من نبتة جنكيز خان، ولكن لأني رأيت ما سيحدثه نسله من دمار. نعم، الأمر لا يتعلق بك أنت وحدك، وإن كنتِ رأس هذا البلاء. حاولت مرارًا أن أقنع جدتك بورته، عندما كانت حاملاً في أبيك، بأن تسقطه ولكنها أبت. حاولت أن أزرع الشك في عقل جدك بأنه ليس من صلبه، وإنما من صلب شـيليدو، خـان المركيـت، ولكنـه لـم يقتنع، أو ربمـا لم يكترث بسبب عشقه لبورته ولكل شيء منها. أصبح من الواضح لي أن الكـون يأبـى إلا أن يأتيـه جوشـي، فتركته في حاله، خاصة بعدما قطعت على نفسي عهدًا لبورته بألا أقترب منه أو أحاول إيذاءه. بورته أدركت بفطنتها أن الأمر لن يقف عند جوشي، بل سيشمل أبنـاءه، ولذلـك أقنعتْ جدك بتزويجك لأحد أمراء الخوارزميين، بعدمـا اقترحـت عليهـا زوجة تولويْ هذا الأمر. أرادت أن تبعدك

عني، ولكن الكون أعادك لي من جديد، لكي أفعل بك ما عجزت عن فعله مع أبيك!"

- "ولماذا أنا بالذات من دون باقي إخوتي؟"
- "لأن ما تمتلكينه لا يمتلكه إخوتك، وهذا يجعلك أشد خطرًا منهم مجتمعين!"
- "أشد خطرًا على من؟! أنا لست راغبة في إيذاء أحد!" حاولت ياسمي إقناعه لكي يتركها في سلام.
- "الأمر لا علاقة له بالرغبة، ولكن بالقدرة..... وأنت ستظلين دائمًا سلاحًا قادرًا، مسلطًا على رقاب الآخرين، حتى إن ابتعدتِ عن هنا."
- "سأتركك لكي تفعل بي ما تشاء، ولكن أعدني بأنك لن تلاحق محمود، وأنك ستتركه في حاله."
- "لا أستطيع أن أعدك بذلك؛ فكلب شرس واحد باستطاعته أن يحمي العجول من الذئاب."
- "إذًا لن أدعك تقتلني، وسأضطر أنا إلى قتلك، كما فعلت بورته مع شيليدو." ما كادت تنهي جملتها حتى شقّت ياسمي سروالها، وأمسكت بخنجر كان ملصقًا بفخذها. بسرعة خاطفة، وقبل أن يتمكن تبتنكر من أن يصرخ لكي ينادي حراسه، كان نصل الخنجر قد شق طريقه إلى عنقه. لم يصدق الكاهن ما قد حدث توًا! أخذ ينظر للدماء وهي تنهمر من جسده النحيل نحو أرض الخيمة، فخارت قواه، وسقط على ركبتيه. اقتربت منه ياسمي، ثم همست في أذنه اليمنى:
- "هذا الكلب الشرس هو زوجي الذي أحمل نبتته!"

58

- "يـا لهـا مـن نهايـة عجيبة! بصدق لم أتوقع أن تكون جدتنا بهذه القسـوة مـن أجـل الدفـاع عن جدنا قطـز. إنها امـرأة عجيبة.... بالمناسبة، أظنك قد أدركت الآن من هي ياسمي ومن هو محمود بن ممدود، أو قطز؟"

ظهر الطيف الداكن فجأة وبدأ المشـهد يتلاشـى من حول مراد، فلم يعد قادراً على رؤية ياسمي. النور من حوله بدأ يخفت، ولم يكن هناك سواه وذلك الكائن، القرين، الذي رأى حياتَه تتمثل أمامه حتى أطلقت فيرجينيا عليه الرصاص!

- "لقد رآني تبتنكر على حقيقتي بعد أن أضعفني عبدالرحمن أمام قلعة بخارى، عندما كنت أتحدث معك."
- "تقصد عندما أردت قتلي!"
- "قتلك؟! أهذا ما حسبته؟! كل ما حاولت فعله هو فقط ثنيك عن التدخل في أمور أنت لا تفهمها، ولكني لم أكن أنوي قتلك، فأنا وأنت وجهان لعملة واحدة. من دونك لا أكون أنا ومن دوني لا تكـون أنـت. قوتي مسـتمدة منك، وبقـاؤك إلى الآن على قيد الحياة هو أمر مستمد مني، ألم تدرك هذا حتى الآن؟"
- "نحن قرينان." قال مراد، وكأنه كان يجيب عن السؤال.
- "بل أكثر من مجرد قرينين. أنا وأنت الموجب والسالب، كذلك

الشـيء الـذي يجعل الذرة مسـتقرة في كيـان واحد. وجودك هو أعظـم سـر اكتشـفته، والوصـول إليـك كان أكبـر تحـدٍّ صادفتـه، بعدمـا عـدت مـن جديد بعـد محاولة فيرجينيا البائسـة لقتلي.... آه، نسـيت أنك لم تتمكن من مشـاهدة ما حصل لي بعد ذلك. اعذرني، ولكن عندما تيقنت حينها من أن عبدالرحمن وأم الوفا كانا يراقباني من خلالك، اضطررت إلى أن أحجب الرؤية عنك، وذلـك حمايـة لنـا منهمـا. ألـم أحذرك مـن قبل مـن الوثوق في ذلـك المخـادع. لقـد باع جدنا محمود لتجار الرقيق مقابل بضعة دراهـم.... يـا لـه مـن خسـيس! ولكـن دعني أخبـرك الآن، وقد ابتعـدت عنهمـا، بمـا جرى لي. في المـرة الثانية التي قُتلت فيها، وجدتني مرة أخرى وقد انفصلت نفسي عن جسدي. هذه المرة لـم أقلـق كمـا حدث فـي المرة الأولى عندما قتلنـي ذلك القاتل المأجـور. رأيـت حينها بوضوح مختلف الأقـدار الممكنة النابعة مـن جميـع الاختيـارات. كان يجب علي، لكـي أعود من جديد، أن أذهب إلى نقطة الاختيار التي أريدها، فأعود من خلالها. أمر مذهـل أليـس كذلـك؟! أن يكون بمقدور الإنسـان أن يعيد الكرة مرة أخرى، ولكن باختيار مختلف..... فرصة ثانية لكي يصحح خطـأه! التحـدي كان بالنسـبة إلـيّ هو حُسـن الاختيـار. ألّا أكرر الخطـأ الـذي ارتكبتـه والذي أدّى إلى معرفـة فيرجينيا وجماعتها من داربا بأمري، فأدّى بعد ذلك إلى مقتل سارة ومقتلي! عندما فكـرت فـي كل المعطيـات، أصبـح الأمـر واضحًـا بالنسـبة إلـيّ كوضوح الشـمس في يوم صحو. عدت إلى برنسـتون، في تلك الليلة التي كان سيقتلني فيها ذلك القاتل المأجور. نقطة الاختيار كانت سيارة الأجرة عندما توقفت بجانبي. عندما عدت إلى تلك

النقطة في المرة الأولى، اخترت أن أركب السيارة لكي ابتعد عن القاتل، وكان ذلك اختيارًا خاطئًا. كان يجب علي أن أستمر في سيري. ألّا أهرب من الرجل الذي أراد قتلي. بل كان يجب علي أن أفعل ما فعلته ياسمي مع تبتنكر..... اعتذرت لسائق سيارة الأجرة، وسرت في طريقي وأنا أدرك أن رجلاً يلاحقني وينوي التخلص مني عندما أدخل المنعطف، بحيث لا يرانا أحد؛ ولكن هذه المرة أنا الذي فاجأته..... أنا الذي قتلته! تأكدت أن أحدًا لم يَرَني، خاصة ذلك الرجل الذي كان يراقبني من داربا..... نعم كنت على دراية بفضل ما أخبرتني به فيرجينيا، قبل أن تطلق علي الرصاص، من أني مراقب. تظاهرت بعد ذلك في حياتي اليومية بأني مجرد شخص فائق الذكاء، لا أكثر. لم ألفت الانتباه لنفسي، كما فعلت في المرة السابقة. لم أذهب للبروفسور آل فريدمان ولم أذهب بعد ذلك للاطّلاع على مخطوطة جُلّاب، فلم أعد في حاجة إلى فعل ذلك لأنه سبق أن فعلتها من قبل! أمر مدهش أليس كذلك؟!"

- "ولكن ما شأني أنا بكل هذا؟! لماذا وجدت نفسي فجأة في عالمك أنت بالرياض؟ ولماذا لم أعد قادراً على تذكر إلا القليل من تفاصيل حياتي أنا؟!"

- "لأن الأمر أعقد بكثير مما تتخيل. أنت لم تتلمس إلى الآن سوى رأس جبل الجليد الظاهر، وما خفي كان أعظم!"

- "أخبرني.... هل باستطاعتي أن أفعل ما فعلته أنت عندما قُتلت؟ أقصد، هل أستطيع العودة إلى جسدي؟! إلى عالمي الذي أعرفه؟!"

- "بالتأكيد تستطيع، وهذا ما أردت أن أخبرك به. أنت الآن في حالة تشابك مع جسدي أنا، وعليك أن تفك هذا التشابك."
- "في تشابك مع جسدك أنت؟! وكيف حدث هذا؟"
- "لا يهم كيف حدث هذا، ولكن المهم الآن أنه قد حدث بالفعل، ولذلـك وجدتَ نفسـك في عالمـي أنا بالرياض، وهذا ما تنبهتْ إليـه فيرجينيـا تبت، فَوجدَتْها فرصة سـاحنة للتخلص منك ومني بضربة واحدة. لا بد أن تفك التشابك الذي بينك وبين جسدي، حتـى أعـود أنـا إليـه، وتعود أنـت إلى جسـدك الحقيقي.... إلى عالمـك..... إلـى الريـاض التي تعرفها، وجـدة التي تركتها. كل شيء سيعود كما تتذكره، أليس هذا ما تريد؟"
- "وكيف يمكنني فعل ذلك؟"
- "الأمر في غاية السهولة. عليك فقط أن تتخذ القرار. أنت لديك القـدرة والاسـتطاعة. كل مـا تفتقد إليه هـو الإرادة. إن أردت أن تفك ارتباطك عن جسدي، فستفعل!"
- "بهذه السهولة؟!"
- "نعم بهذه السهولة."

أراد مراد أن يصدق ما قاله له قرينه، ولكن شيئًا ما بداخله كان يدفعه بألّا يفعل. أراد أن يستمع لحدسه؛ أن يترك قرينه، ويبتعد عنه، ويبحث عن ملاذ آخر، ولكن الإغراء كان أكبر من أن يترك! فهذه قد تكون هي فرصته الوحيدة لكي يعود إلى حياته التي يعرفها؛ إلى حياة مراد قطز، جراح التجميل بمستشفى غانم الساعدي، حتى إن لم تكن بتلك الحياة المثلى. فأي شيء أفضل من هذا الوضع الذي وجد نفسه

فيـه! كل مـا كان فـي حاجـة إليـه هو الإرادة! أن يفـك ارتباطه بذلك الجسد المتهاوي؛ وحينها فقط سيعود إلى حياته هو.... إلى جسده هو.... إلى عالمه هو!

* * *

بـدأ العالـم من حوله يتخذ شـكلاً واضـح المعالم. أناس بدؤوا يظهرون. لوهلة شـعر بالسـعادة.... شـعر بقلبه ينبض في صدره من جديـد، وكأنـه عـاد إلـى سـابق حالـه قبل كل هـذا الجنـون! أراد أن يعود ليكون مجرد شـخص عادي، بكل نواقصه؛ أن يعود إلى السـير فـي حياتـه الرتيبة، وينسـى كل مـا حدث له، وكأنه مجرد حلم مزعج استفاق منه.....

بـدأ يتنبـه لملامـح النـاس مـن حولـه ببـطء، كمن يسـتيقظ من النوم..... ولكن شيئًا ما لم يكن على ما يرام! لم يكن في الرياض، أو أي مكان يعرفه في السعودية! الناس من حوله.... كأنهم يحملون ملامـح مغوليـة! بـل المكان الذي أصبح فيه، هو نفسـه المكان الذي أتـاه مـن قبل على مشـارف أترار! المـكان الذي رأى فيه عبدالرحمن أول وآخـر مـرة! لقـد خدعـه قرينه! لم يعد إلى عالمه كما قال له إنه سـيحدث! لقد عاد به الحال إلى سـابق عهده، ولكن هذه المرة من دون أي شخص يعرفه! إنه كما هو، أخذ يظن..... لم يتغير شيء!

- "أنت! هل تود شـراء شـيء، أم سـتقف هكذا حاجبًا الطريق عن الآخريـن!" صـرخ فيـه أحد الباعة الذين افترشـوا المكان لعرض بضائعهم أمام القوافل القادمة.

اسـتغرب مراد الأمر، فكيف اسـتطاع رؤيته؟! هل هو أيضًا من أهل الكشـف؟! ما كاد يتسـاءل مع نفسـه حتى تبين له أن هذا الرجل لـم يكـن الوحيـد الذي يطالعه! "مسـتحيل! فكيف يمكن لكل هؤلاء

أن يكون بمقدورهم أن......" لم يكمل سؤاله، بل اقترب من خيمة البائع عندما شاهد منظرًا لم يَرَه منذ زمن..... منذ أن وجد نفسه على هـذا الحـال بعـد أن ألقاه من ناطحة السـحاب رجـال فيرجينيا تبت! كانـت هنـاك مـرآة معروضـة للبيـع..... مـا إن شـاهدها حتى أصيب بالوجوم في بادئ الأمر؛ ثم لسبب ما، لم يتمالك نفسه وأخذ يضحك كما لم يضحك من قبل. لقد فهم الآن معنى ذلك القول المأثور: شر البلية ما يضحك! وأي بلية هذه التي وجد حاله فيها؟! كان انعكاسه يطل عليه من المرآة..... لقد تجسد! أخيرًا لقد تجسد... ولكن في غير زمنه!

خاتمة الجزء الثاني

كانت هذه فرصة سانحة للتخلص منه، خاصة بعدما رأته على هذا الحال الغريب في قصر غانم الساعدي، وكأن مرادًا ليس مراداً! لا تعرف كيف حدث ذلك، ولا تريد أن تعرف. التخلص منه الآن أصبح أولوية وهو في حالة ضعفه هذه؛ قد لا تتسنى لها الفرصة مجدّدًا بعد اليوم. منذ أن عرفت حقيقته، وما هو قادر على فعله، وهي تحلم بمثل هذا اليوم..... ها هو ذا مستلقٍ على سطح برج الساعدي ورجالها الثلاثة يحيطون به؛ يستفيق من غيبوبته بعد أن ضربه أحد رجالها على مؤخرة رأسه..... "كم يبدو ضعيفًا!".....

- "كثير من الناس لا ينتبهون إلى التفاصيل الصغيرة، مع أن السر يكمن في تلك التفاصيل، ولذلك تستطيع تقسيم البشر إلى فئة قليلة تنظر فترى، وأخرى كثيرة تنظر ولا ترى شيئًا غير ما أُريد لها أن تراه، ولكن في نهاية المطاف، هكذا هي الحياة، لا تستقيم من غير قلة خاصة وكثرة عامة."

ابتسمت فيرجينيا، وهي ترى الدهشة على عيني مراد قطز أو ما تبقى منه! كأنه شخص آخر غير الذي تعرفت إليه في تلك الليلة المشؤومة من رأس سنة 2000، بشقة أختها أليس!

- "سأسلك سؤالاً.... تستطيع أن تعتبره أهم سؤال في حياتك، لأن الإجابة عليه هي التي ستحدد مسار الأحداث."

- "فيرجينيا؟! ما معنى هذا؟ لماذا أنا هنا؟"

- "مراد، الللية أنا التي سوف أوجه السؤال. إن استطعت الإجابة، فسأمنحك الفرصة لكي تسأل كيفما تشاء.... والآن أجبني. القطة، هل هي حية أم ميتة؟"

وكأنه بنطقها للسؤال شيء ما تغير في مراد.... عيناه لم تعودا تائهتين حائرتين كما كان حالهما منذ قليل، بل فجأة ظهرت فيهما لمعة برّاقة، ثم حدث ما كانت تخشاه!

ابتسم لها ابتسامة فيها مكر وخبث، ثم بسرعة خاطفة قام من موضعه، ووضع كفه على صدر حارسها الذي كان على يمينه فخر على الأرض صريعًا! الحارس الثاني عند رؤيته لهذا المشهد حاول إخراج مسدسه من حافظة صدره، ولكنه أطلق الرصاص على نفسه! الثالث استطاع أن يخرج المسدس، ثم أمر مراد بالتراجع إلى الخلف، وإلّا فسيطلق عليه الرصاص! لم يستمع إليه مراد وأخذ يتقدم نحوه. أطلق الحارس الرصاص، مرة تلو الأخرى، ولكنها كانت لا تصيب الهدف! الرجل كاد يُجَنّ.... في حالة من الذهول ممّا كان يحدث أمام عينيه! ما إن وصل إليه مراد حتى باغته بسؤال:

- "أنت الذي ألقيت بجسدي من على السطح، أليس كذلك؟"

- "ماذا؟!" لم يفهم عمّ كان يتحدث؟!

ابتسم مراد من الإجابة التي ذكّرته بإجابة مراد الآخر عندما، سألته فيرجينيا عن القطة.

- "أريدك أن تلقي بنفسك من على السطح، كما كنتَ ستلقيني من عليه."

ما إن فرغ مراد من طلبه حتى وجد الرجل نفسه يصرخ فزعًا وهو يهوي سريعًا نحو أسفل ناطحة السحاب!

لـم تصـدق فيرجينيـا تبت هذا الذي كان يحدث أمام عينيها....
"مستحيل!" فكيف أخطأت التقدير على هذا النحو الفظيع؟! شاهدت مـراد "الكلـب الشـرس" وهـو يقترب منهـا، دون أن تغادره ابتسـامته الصفـراء التـي كانـت تقـول لهـا من غير أن تنطـق: "ها أنذا قد عدتُ من جديد، وأقوى ممّا كنت!"

هو حتمًا مراد الذي تعرفه.... مراد قطز!